النص الكامل
الطبعة الشرعية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

جَريمَة في قِطار الشَّرق





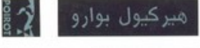

جَرِيمَةٌ في قِطَارِ الشَّرق

تسبّبت الثلوجُ المتراكِمة في تعطيل القطار بعد منتصف الليل بقليل.

لقد كان «قطار الشرق السريع» مزدحماً بالركاب، وهو أمر غريب في هذا الوقت من العام. لكن الركاب نقصوا واحداً عند الصباح؛ فقد وُجِدَ أحدهم مقتولاً في مقصورته وفي جسمه اثنتا عشرة طعنة، وكان باب المقصورة مُقفَلاً من الداخل!

التوتر يتزايد والحيرة تبلغ غايتها، ولكن بوارو يفاجئ الجميع؛ إنه لا يقدّم حلاً واحداً لهذه الجريمة الغريبة، بل حلّين!





رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!





٢٠ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

ISBN 2-1957-2593-8











US $ 4.00



الجزء الأول

الحقائق

الفصل الأول

راكب مهم على قطار طوروس السريع

كانت الساعة الخامسة من صباح يوم من أيام الشتاء في سوريا، وقد وقف على طول الرصيف في حلب ذلك القطار الذي أشارت إليه بتعظيم منشورات سكة الحديد بعد أن أسمته قطار طوروس السريع، وكان يتكون من عربة مطعم ومطبخ وعربة نوم وعربتين أخريين.

وعند الدرجات التي تصعد إلى عربة النوم وقف ملازم فرنسي شاب متألق بزيه يتحدث إلى رجل نحيل ضئيل الحجم غارق بالملابس حتى أذنيه بحيث لا يظهر منه سوى أنف احمرت أرنبته وطرفي شاربيه المفتولين إلى الأعلى.

كان الطقس بارداً جداً لدرجة التجمد ولم يكن الملازم دوبوسك ليُحسَد على مهمته هذه في وداع رجل غريب بارز. إلاّ أنه أدى دوره برجولة، إذ كانت عبارات الإطراء تنبعث من شفتيه بلغة فرنسية مهذبة رغم أنه لم يكن يعلم ما هو الموضوع كله. انتشرت إشاعات بالطبع كما هي العادة في مثل هذه الحالات، وقد بدأ مزاج الجنرال (جنراله هو) يسوء ويسوء، ثم جاء هذا البلجيكي الغريب

قاطعاً الطريق كله من إنكلترا فيما يبدو. ثم حل أسبوع من التوتر الغريب. ثم حدثت بعض الأمور، إذ انتحر ضابط متميز واستقال آخر فانفرجت بعض الوجوه المتوترة وتم تخفيف بعض الإجراءات العسكرية الاحترازية. وفجأة بدا الجنرال (جنرال الملازم دوبوسك) أصغر من سنه بعشر سنوات.

كان دوبوسك قد سمع بعضاً من الحديث الذي دار بين الجنرال وبين الغريب.

قال الجنرال بشيء من العاطفة وقد ارتجف شارباه الأبيضان وهو يتحدث: لقد أنقذتنا يا عزيزي؛ لقد أنقذت شرف الجيش الفرنسي وجنبتنا الكثير من سفك الدماء! كيف أستطيع أن أشكرك على قبول طلبي؟ أن تأتي كل هذه المسافة...

أجاب الغريب (واسمه هيركيول بوارو) إجابة مناسبة، وكان من ضمنها عبارة: وكيف لا أتذكر أنك أنقذت حياتي مرة؟

ثم أجابه الجنرال -بدوره- إجابة مناسبة نافياً أي فضل له في تلك الخدمة السابقة. وبعد المزيد من الإشارة إلى فرنسا وبلجيكا والعظمة والشرف ومثل هذه الأمور، تعانق الاثنان بمحبة وانتهت المحادثة.

لم يعلم الملازم دوبوسك كنه هذا الأمر ولكن تم توكيله بمهمة وداع السيد بوارو عند قطار طوروس السريع، وقد مضى ينفذ هذه المهمة بكل الحماسة والاندفاع اللذين يناسبان ضابطاً صغيراً ذا مستقبل مبشر بالخير.

قال الملازم دوبوسك: اليوم هو الأحد، وغداً مساء سوف تكون في إسطنبول.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدلي بها بهذه الملاحظة، إذ يبدو أن المحادثات على رصيف المحطة قبل مغادرة القطار تتصف دوماً بتكرار بعض العبارات.

وافقه السيد بوارو: هذا صحيح.

- وأظنك تنوي البقاء هناك لبضعة أيام، أليس كذلك؟

- بلى؛ فإسطنبول مدينة لم أزرها من قبل، وسوف يكون مؤسفاً لو تجاوزتُها هكذا.

ثم حرك أصابعه ملمحاً إلى السرعة وأضاف: لا يوجد ما يدعوني إلى العجلة، سأمكث هناك سائحاً لبضعة أيام.

هبت ريح باردة عبر الرصيف فارتعش الرجلان، واستطاع الملازم دوبوسك أن يختلس نظرة نحو ساعته. كانت تشير إلى الخامسة إلاّ خمس دقائق، ولم يبقَ سوى خمس دقائق. ولظنه أن الرجل الآخر لاحظ نظرته تلك فقد أسرع إلى الكلام مرة أخرى قائلاً وهو ينظر نحو نوافذ عربة النوم فوقهما: يوجد القليل من المسافرين في هذا الوقت من السنة.

وافقه السيد بوارو قائلاً: هذا صحيح.

- فلنأمل ألاّ تغمركم الثلوج في طوروس.

- وهل يحدث مثل هذا الأمر؟

- نعم؛ لقد حدث هذا من قبل، ولكنه لم يحدث هذا العام بعد.

قال بوارو: "لنأمل ألاّ يحدث إذن". ثم أضاف: إن تقارير الطقس القادمة من أوروبا سيئة.

- سيئة جداً، مع وجود الكثير من الثلوج في البلقان.

- وفي ألمانيا أيضاً كما سمعت.

قال الملازم دوبوسك ذلك بسرعة، وحين بدا أن الحديث قد يتوقف مرة أخرى أضاف: حسناً، ستكون في القسطنطينية غداً مساء في السابعة وأربعين دقيقة.

قال بوارو: نعم.

وفوق رأسيهما أُزيحت ستارة إحدى مقصورات النوم ونظرت امرأة شابة خارج النافذة.

* * *

لم تكن ماري ديبنهام قد نامت كثيراً منذ أن غادرت بغداد يوم الخميس الماضي، لا في القطار المتجه إلى كركوك ولا في الاستراحة في الموصل، كما لم تنم بشكل مناسب في القطار ليلة أمس. أما وقد سئمت من الاستلقاء يقظة في مقصورتها شديدة التدفئة فقد قامت ونظرت خارج النافذة.

لا بد وأن هذه هي حلب. لا يوجد كثير مما يُرى طبعاً؛ مجرد رصيف طويل ذي إضاءة خافتة، ومشاحنات كلامية غاضبة بالعربية تجري في مكان ما. كان رجلان يتحدثان أسفل نافذتها بالفرنسية، وكان أحدهما ضابطاً فرنسياً، أما الآخر فكان رجلاً ضئيل الحجم عظيم الشاربين. ابتسمت ابتسامة باهتة؛ فهي لم ترَ قط أحداً يلبس ملابس ثقيلة بهذا الكمّ من قبل. لابد وأن الطقس بارد جداً في الخارج، وهذا هو السبب وراء التدفئة العالية في القطار. حاولت بقوة أن تُنزِل النافذة إلاّ أنها لم تتزحزح.

تقدم مسؤول تذاكر عربات النوم نحو الرجلين وأخبرهما أن القطار على وشك المغادرة وأن من الأفضل أن يصعد السيد إلى القطار. رفع الرجل الصغير قبعته. يا لرأسه البيضاوي! وعلى الرغم من شرودها إلاّ أنها ابتسمت لمرأى الرجل الضئيل المضحك. إنه من نوع أولئك الرجال الذين لا يؤخَذون مأخذ الجد.

كان الملازم دوبوسك يلقي خطبة الوداع. كان قد أعد هذه الخطبة من قبل واحتفظ بها حتى اللحظة الأخيرة، وقد كانت خطبة جميلة ومنمقة. ولكن السيد بوارو ما كان ليقبل أن يتفوق عليه أحد؛ فرد عليه التحية بأحسن منها.

وأخيراً قال مسؤول التذاكر: تفضل يا سيدي.

وبتردد شديد صعد السيد بوارو إلى القطار وصعد المسؤول خلفه، ثم لوح السيد بوارو بيده فأدى الملازم دوبوسك التحية له. بعد ذلك، وبهزة عظيمة، تحرك القطار ببطء متقدماً.

تمتم السيد هيركيول بوارو: أخيراً!

* * *

قال مسؤول التذاكر وهو يشير بيده إلى جمال مقصورة نوم بوارو والترتيب الأنيق لأمتعته: تفضل يا سيدي؛ لقد وضعت حقيبتك الصغيرة هنا.

كان لامتداد يده مغزى واضح، فوضع بوارو فيها ورقة نقد مطوية. وعندئذ قال مسؤول التذاكر وقد أصبحت نبرته سريعة عملية: شكراً يا سيدي. تذاكرك معي يا سيدي، وسوف آخذ جواز سفرك أيضاً إذا سمحت. هل أفهم -يا سيدي- أنك سوف تقطع رحلتك في إسطنبول؟

أومأ له بوارو موافقاً وقال: لا يوجد الكثير من المسافرين على ما أظن؟

- هذا صحيح يا سيدي. معنا مسافران آخران فقط وكلاهما إنكليزي؛ عقيد من الهند وفتاة إنكليزية من بغداد. هل يحتاج سيدي إلى شيء؟

طلب السيد زجاجة صغيرة من المياه المعدنية.

إن ركوب القطار في الخامسة صباحاً مسألة فظيعة؛ فقد بقيت لشروق الشمس ساعتان لا غير. تقوقع السيد بوارو للنوم في زاوية وهو يفكر في ليلة نام فيها قليلاً وفي مهمة حساسة قام بها بنجاح، وعندما استيقظ كانت الساعة التاسعة والنصف، فانطلق إلى عربة

المطعم باحثاً عن قهوة ساخنة.

كان هناك شخص آخر فقط في هذه اللحظة، ومن الواضح أنها الشابة الإنكليزية التي أشار إليها مسؤول التذاكر. كانت طويلة نحيلة داكنة البشرة في نحو الثامنة والعشرين من عمرها، وقد ظهر شيء من الكفاءة الباردة في طريقة أكلها فطورها وفي الطريقة التي نادت بها النادل ليحضر لها مزيداً من القهوة، مما يدل على معرفة بالعالم وبالسفر. كانت تلبس ثوباً يصلح للسفر، داكن اللون ذا قماش رقيق يناسب التدفئة البالغة في القطار.

ولما لم يكن للسيد هيركيول بوارو ما يفعله فقد تسلى بدراستها عن كثب دون أن يظهر عليه ذلك، وقد حكم عليها بأنها من النوع القادر على الاعتناء بنفسها بسهولة أينما ذهبت. كانت مثالاً للهدوء والكفاءة والانضباط، وقد أعجبه الانتظام الحاد في ملامحها والشحوب اللطيف لبشرتها، كما أعجبه لمعان شعرها الأسود المتموج وعيناها الرماديتان الباردتان اللتان توحيان بالحياد، ولكنه رأى أن كفاءتها أكثر قليلاً من أن توصف بأنها امرأة مرحة.

في هذه اللحظة دخل شخص آخر إلى عربة المطعم. كان رجلاً طويلاً بين الأربعين والخمسين من عمره ذا جسم نحيل وبشرة بنية، وقد بدأ شعر صدغيه يشيب. قال بوارو في نفسه: هذا هو العقيد القادم من الهند.

انحنى القادم الجديد انحناءة بسيطة نحو الفتاة قائلاً: صباح الخير يا آنسة دبنهام.

- صباح الخير أيها العقيد آربوثنوت.

سألها العقيد وهو يقف واضعاً يده على الكرسي الذي يقابلها: هل تمانعين؟

- كلا بالطبع، تفضل.

- حسناً، إن الإفطار -كما تعلمين- ليس من الوجبات التي يروق للمرء التحدث أثناءها.

- آمل ألا يكون الأمر كذلك، ولكنني لا أعض.

جلس العقيد ونادى بحزم: "يا ولد"، ثم طلب بيضاً وقهوة.

توقفت عيناه للحظة على هيركيول بوارو ثم ابتعد بنظره بعيداً بلامبالاة، وعرف بوارو (وهو الذي يقرأ العقل الإنكليزي بدقة) أن العقيد قال في نفسه: "أجنبي لعين، ليس إلاّ"!

وكشأن الإنكليز دائماً، لم يتبادل هذان الشخصان الكثير من الحديث؛ فقط بعض الملاحظات العابرة، وبعد ذلك قامت الفتاة وعادت إلى مقصورتها.

وفي وقت الغداء اشترك الاثنان في طاولة واحدة من جديد، ومرة أخرى أيضاً أهملا المسافر الثالث تماماً. كان حديثهما أكثر نشاطاً عما كان عليه وقت الفطور، وقد تحدث العقيد آربوثنوت عن البنجاب وأحياناً كان يسأل الفتاة عن بغداد، وبدا واضحاً أنها كانت تعمل مربية هناك. وأثناء الحديث اكتشفا أن لديهما أصدقاء مشتركين؛ مما زاد الود بينهما وقلّل من الرسمية الصارمة. تحدثا

عن بعض الأشخاص، ثم سألها العقيد عما إذا كانت ستستمر في رحلتها إلى لندن أم أنها ستتوقف في إسطنبول.

- بل أنا ذاهبة إلى لندن مباشرة.

- أليس هذا مؤسفاً؟

- لقد قمت بهذه السفرة قبل سنتين وقضيت ثلاثة أيام في إسطنبول حينئذ.

- آه، فهمت. حسناً، أستطيع أن أقول إنني سعيد جداً لمرورك مباشرة دون توقف لأنني سأفعل ذلك أيضاً.

انحنى انحناءة مرتبكة، وتورد خداه وهو يفعل ذلك. وقال بوارو في نفسه بشيء من السرور: إن عقيدنا سريع التأثر. إن القطار خطير كخطورة الرحلات البحرية!

قالت الآنسة دبنهام -بلا عواطف- إن ذلك سيكون جيداً، وكان في طريقة كلامها ما يوحي بالحزم.

لاحظ بوارو أن العقيد رافقها وهي تعود إلى مقصورتها. وفي وقت لاحق مر القطار بالمناظر الرائعة في جبال طوروس، وقد كان الاثنان يقفان جنباً إلى جنب في ممر القطار عندما نظرا إلى الأسفل باتجاه الممر الجبلي المسمى «بوابات سيليسيا»، وفجأة تنهدت الفتاة بعمق. وقد كان بوارو واقفاً بالقرب منهما فسمعها وهي تتمتم: إنها رائعة جداً. أتمنى... أتمنى...

- نعم.

- أتمنى لو أستطيع التمتع بها!

لم يجبها آربوثنوت على الفور، وبدا الخط المربع لفكه أقسى وأكثر تجهماً. ثم قال: أتمنى حقاً لو أنك خارج هذا الأمر كله.

- صهٍ أرجوك، اسكت.

- آه، لا بأس.

ألقى نظرة انزعاج باتجاه بوارو ثم تابع كلامه: ولكن لا تروق لي فكرة كونك مربية، حيث تكونين تحت رحمة الأمهات المتسلطات وأبنائهن المزعجين.

ضحكت وفي صوتها أثر بسيط للاسترخاء وقالت: آه. لا تفكر هكذا؛ فالمربية المضطهدة أسطورة منقرضة، وأنا أؤكد لك أن الآباء والأمهات هم الذين يخافون من المربيات في هذه الأيام.

توقفا عن الكلام، وربما أحس آربوثنوت بالخجل بسبب فورة انفعاله.

قال بوارو لنفسه مفكراً: "إنها لكوميديا غريبة هذه التي أشاهدها هنا"! وقد قُدر له أن يتذكر لاحقاً فكرته هذه.

* * *

وصلوا قونية تلك الليلة في نحو الحادية عشرة والنصف، وخرج المسافران الإنكليزيان لتمرين أرجلهما بالمسير جيئة وذهاباً على الرصيف المليء بالثلوج. أما السيد بوارو فقد اكتفى بمشاهدة

النشاط المكثف في المحطة من خلال نافذته، ولكن بعد نحو عشر دقائق قرر أن بعض الهواء النقي في الخارج لن يكون سيئاً؛ فاستعد بحرص للخروج فلبس عدة معاطف ولفاعات عنق وانتعل حذاء مطاطياً رقيقاً فوق حذائه ثم انحدر ببطء نحو الرصيف وبدأ يسير على امتداده حتى تعدّى قاطرة المحرك.

كانت الأصوات هي التي نبهته إلى وجود الشخصين. كانا يقفان في ظل إحدى الحافلات الصغيرة وكان آربوثنوت يتحدث: ماري...

قاطعته الفتاة: ليس الآن، ليس الآن. عندما ينتهي كل شيء، عندما يصبح الأمر خلفنا. عندها...

وبحذر استدار بوارو مبتعداً وهو يتعجب، وقال في نفسه: غريب!

في اليوم التالي تساءل فيما إذا كانا قد تشاجرا؛ إذ قليلاً ما تحدث أحدهما مع الآخر، ورأى أن الفتاة بدت مضطربة، وقد ظهرت حلقات داكنة أسفل عينيها.

وفي نحو الثانية والنصف بعد الظهر توقف القطار وخرجت الرؤوس تطل من النوافذ. كان عدد من الرجال مجتمعين بجانب السكة ينظرون إلى شيء ما أسفل عربة المطعم ويشيرون إليه. وأطل بوارو من النافذة وتحدث إلى مسؤول التذاكر الذي كان يمر أمامه مسرعاً، فأجابه الرجل وعاد بوارو إلى الداخل. وعندما التفت كاد أن يرتطم بماري دبنهام التي كانت تقف خلفه مباشرة.

سألت بالفرنسية وهي تلهث قليلاً: ما الأمر؟ لماذا توقفنا؟

- لا تخافي يا آنسة. لقد شبت النار في شيء أسفل عربة المطعم. لا خطورة في الأمر، فقد تم إخماد النار وهم يصلحون الخراب الآن. لا يوجد خطر أبداً، أؤكد لك ذلك.

صدرت عنها إيماءة سريعة وكأنها تستبعد فكرة الخطر كونها شيئاً غير مهم أبداً، ثم قالت: نعم، نعم، أفهم ذلك. ولكن الوقت!

- الوقت؟

- نعم؛ هذا سوف يؤخرنا.

وافقها بوارو قائلاً: هذا محتمل، نعم.

- ولكني لا أملك أن أتأخر؛ فمن المقرر أن يصل القطار في السادسة وخمس وخمسين دقيقة، وعليّ أن أقطع البوسفور للّحاق بقطار الشرق السريع في الجانب الآخر في الساعة التاسعة. ولو حدث تأخير لساعة أو ساعتين فسيفوتنا القطار.

اعترف قائلاً: نعم، هذا محتمل.

نظر إليها متعجباً. لم تكن يدها التي تمسك بمقبض النافذة ثابتة تماماً، وكانت شفتاها أيضاً ترتعشان. سألها: أيهمك هذا كثيراً يا آنسة؟

قالت بسرعة: "نعم، نعم، إنه يهمني. يجب... يجب أن ألحق

بذلك القطار". ثم التفتت مبتعدة عنه وسارت عبر الممر لتنضم إلى العقيد آربوثنوت.

ولكن قلقها لم يكن في محله؛ فبعد عشر دقائق بدأ القطار سيره ثانية، ووصل هيدابسّار متأخراً خمس دقائق فقط، إذ استطاع القطار أن يسرع قليلاً ويعوض بعضاً من الوقت الضائع.

كان البوسفور مائجاً ولم يستمتع بوارو بالعبور، وقد انفصل عن رفيقيه المسافرين أثناء وجوده على القارب ولم يرهما ثانية.

وعندما وصل إلى جسر غالاتا توجه من فوره إلى فندق توكاتليان.

* * *

الفصل الثاني
فندق توكاتليان

في فندق توكاتليان طلب هيركيول بوارو غرفة بحمّام، ثم توجه إلى قسم استعلامات الفندق وسأل إن كان له رسائل.

كانت في انتظاره ثلاث رسائل وبرقية، وارتفع حاجباه بشيء من الدهشة لرؤية البرقية، فقد كانت غير متوقعة. ثم فتحها بهدوئه وتأنقه المعهودين فظهرت الكلمات المطبوعة بوضوح: "التطور الذي توقعتَه في قضية كاسنر ظهر بصورة غير متوقعة. نرجو أن تعود فوراً".

تمتم بوارو بغيظ، ثم نظر نحو الساعة وقال لمسؤول الفندق: إنني مضطر للمضي في السفر الليلة. متى يغادر قطار الشرق السريع؟

- في الساعة التاسعة يا سيدي.

- هل تستطيع أن تحصل لي على مقصورة نوم؟

- بالتأكيد يا سيدي؛ فلا توجد صعوبة في مثل هذا الوقت من السنة والقطارات تكاد تكون خالية. درجة أولى أم ثانية؟

- أولى.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى لندن.

- سأحصل لك على تذكرة إلى لندن وأحجز لك مقصورة نوم في عربة إسطنبول كاليه.

نظر بوارو نحو الساعة مرة أخرى وكانت تشير إلى الثامنة إلاّ عشر دقائق. ثم سأل: هل لديّ وقت للعشاء؟

- بالتأكيد يا سيدي.

هز البلجيكي الضئيل رأسه، ثم ذهب وألغى حجز الغرفة في الفندق وعَبَر القاعة إلى المطعم. وفيما كان يعطي طلباته إلى النادل استقرت يدٌ على كتفه وقال صوتٌ خلفه: صديقي العزيز، يا لها من سعادة غير متوقعة!

كان المتحدث كهلاً قصيراً بديناً قد قص شعره قصيراً، وكان يبتسم بسرور. نهض بوارو بسرعة وقال: سيد بوك!

- سيد بوارو.

كان السيد بوك بلجيكياً ومديراً للشركة العالمية لعربات القطارات، وكانت علاقته مع النجم السابق لجهاز الشرطة البلجيكية

تعود لعدة سنوات ماضية.

قال السيد بوك: أراك بعيداً عن الوطن يا عزيزي.

- قضية بسيطة في سوريا.

- آه. ومتى تعود إلى الوطن؟

- الليلة.

- رائع، وأنا كذلك. أعني أنني سأذهب حتى لوزان حيث لديَّ بعض الأمور. أنت مسافر على قطار الشرق السريع على ما أظن؟

- نعم. لقد طلبت منهم لتوي أن يحجزوا لي مقصورة نوم. كنت أنوي أن أقضي بضعة أيام هنا ولكنني استلمت برقية تدعوني للعودة إلى إنكلترا بسبب أعمال مهمة.

تنهد السيد بوك وقال: آه. أعمال، أعمال! ولكنك... ولكنك في أوج مجدك هذه الأيام يا صديقي العزيز.

- ربما حصلت على بعض النجاح.

حاول بوارو أن يبدو متواضعاً لكنه أخفق في ذلك تماماً. وضحك بوك وقال: سنتقابل فيما بعد.

ركز بوارو على مهمة إبعاد شاربيه خارج طبق الشُّربة. وبعدما نفّذ هذه المهمة الصعبة نظر حوله فيما كان ينتظر طبقه التالي. لم يكن في المطعم سوى نحو ستة أشخاص، ومن بين هؤلاء الستة اثنان فقط جذبا اهتمام هيركيول بوارو.

جلس هذان الاثنان على طاولة غير بعيدة. كان الأصغر منهما رجلاً حسن المنظر في الثلاثين من عمره ومن الواضح أنه أمريكي، ولكنه لم يكن هو الذي جلب انتباه رجل التحري الضئيل، وإنما رفيقه.

كان رجلاً بين الستين والسبعين من عمره، ومن مسافة قريبة بدا من أهل الإحسان والخير، فقد بدا رأسه الأصلع قليلاً وجبهته المحدبة ووجهه المبتسم الذي يبدي طقم أسنان صناعية بيضاء، كل هذا بدا وكأنه يتحدث عن شخصية خَيِّرة، وحدهما العينان هما اللتان كذّبتا هذا الحدس! كانتا صغيرتين وغائرتين وماكرتين. وليس هذا فحسب، إذ بينما كان الرجل يحدث رفيقه الشاب نظر عبر الغرفة واستقرت عيناه على بوارو للحظة، وفي هذه اللحظة فقط ظهر حقد غريب وتوتر غير طبيعي في نظرته.

ثم نهض قائلاً: ادفع الفاتورة يا هيكتور.

كان صوته أجش بعض الشيء، وكانت لذلك الصوت نوعية غريبة ناعمة وخطيرة.

عندما انضم بوارو إلى رفيقه في القاعة كان الآخران على وشك مغادرة الفندق وقد أنزلت أمتعتهما، وكان الأصغر منهما يشرف على الأمور، ثم فتح الباب الزجاجي وقال: جاهزون الآن يا سيد راتشيت.

دمدم الرجل الكبير موافقاً واندفع خارجاً.

قال بوارو: حسناً، ما رأيك بهذين الاثنين؟

قال السيد بوك: إنهما أميركيان.

- إنهما أميركيان بالتأكيد، ولكنني عنيت سؤالك عن شخصيتيهما؟

- يبدو أن الشاب لطيف تماماً.

- والآخر؟

- في الحقيقة إنني لا آبه به يا صديقي، فقد ترك لديّ انطباعاً كريهاً. وأنت؟

صمت هيركيول بوارو لدقيقة قبل أن يجيبه. وأخيراً قال: عندما مرّ بجانبي في المطعم كان لديّ شعور غريب وكأن حيواناً متوحشاً... متوحشاً تماماً قد مر بجانبي.

- ومع ذلك فقد بدا وكأنه محترم جداً.

- بالضبط! إن الجسد (القفص...) يبدو محترماً جداً، ولكن من خلال القضبان يُطِلّ الحيوان المتوحش.

قال السيد بوك: إنك تتوهم يا صديقي العزيز.

- قد يكون الأمر كذلك، ولكنني لا أستطيع أن أبعد عن نفسي الانطباع بأن شراً قد مرّ بالقرب مني.

- ذلك السيد الأميركي المحترم؟

- نعم، ذلك السيد الأميركي المحترم.

قال السيد بوك بسرور: حسناً، قد يكون الأمر كذلك، ففي العالم شر كثير.

في تلك اللحظة فُتح الباب وجاء مسؤول استعلامات الفندق نحوهما. بدا قلقاً ومعتذراً وقال لبوارو: إنه شيء عجيب يا سيدي؛ فلا توجد مقصورة نوم واحدة فارغة في الدرجة الأولى في القطار.

صاح السيد بوك: ماذا؟ في مثل هذا الوقت من السنة؟! آه، لا شك في أن مجموعة من الصحفيين، أو السياسيين...

التفت المسؤول نحوه باحترام وقال: لا أعلم يا سيدي، ولكن الأمر كذلك.

التفت السيد بوك نحو بوارو وقال: حسناً، حسناً. لا تخف ياصديقي، سنتدبر الأمر؛ إذ توجد دائماً مقصورة تبقى غير مشغولة وهي المقصورة رقم ١٦، وهذا ما يحرص عليه مسؤول التذاكر دائماً.

ابتسم ثم نظر نحو الساعة وقال: هيا، لقد حان وقت الرحيل.

في المحطة استقبل مسؤول التذاكر بزيّه البني السيد بوك باحترام بالغ: مساء الخير يا سيدي، مقصورتك هي المقصورة رقم ١.

نادى الحمالين الذين حملوا الأمتعة على عربات إلى وسط عربة القطار وقد كُتِب على صفائح حديدية وجهة تلك العربة: «إسطنبول-تريستي-كاليه».

- القطار ممتلئ هذه الليلة كما سمعت؟

- شيء فظيع يا سيدي؛ فالعالم كله اختار السفر هذه الليلة!

- لا يهم، يجب أن تجدوا مكاناً لهذا السيد هنا. إنه صديق لي، ويمكن أن تعطوه المقصورة رقم ١٦.

- لقد أُخِذَت يا سيدي.

- ماذا؟ رقم ١٦؟

تبادلا نظرة تفاهم ثم ابتسم مسؤول التذاكر. كان رجلاً طويلاً وشاحباً في وسط العمر وقال: نعم يا سيدي؛ فالقطار مليء كما أخبرتك... مليء في كل مكان.

سأل السيد بوك غاضباً: "ولكن ما الذي يحدث؟"، ثم أضاف: هل يوجد مؤتمر في مكان ما؟ هل هي مناسبة لمجموعة ما؟

- لا يا سيدي، إنها الصدفة فقط. كل ما في الأمر أن العديد من الناس اختاروا أن يسافروا هذه الليلة.

أصدر السيد بوك صوتاً يعبّر عن الانزعاج وقال: في بلغراد ستنضم قاطرة إضافية قادمة من أثينا، بالإضافة إلى قاطرة بوخارست باريس، ولكننا لن نصل بلغراد حتى مساء الغد، فالمشكلة هي في هذه الليلة فقط. ألا توجد مقصورة فارغة في الدرجة الثانية؟

- توجد مقصورة فارغة في الدرجة الثانية.

- حسناً، إذن...

- ولكنها مقصورة سيدة، وفيها سيدة ألمانية. إنها خادمة.

قال السيد بوك: هذا صعب.

قال بوارو: لا تزعج نفسك يا صديقي؛ سأسافر في عربة عادية.

- أبداً، أبداً.

التفتَ ثانية نحو مسؤول التذاكر وقال: هل وصل الجميع؟

قال الرجل ببطء وتردد: في الواقع مسافر لم يصل بعد.

- تكلم. ثم؟

- المقصورة رقم ٧ في الدرجة الثانية. لم يصل الرجل بعد والساعة الآن التاسعة إلا أربع دقائق.

- من هو؟

- رجل إنكليزي.

نظر مسؤول التذاكر في قائمته ثم أكمل: السيد هاريس.

قال بوارو: اسم ذو فأل حسن. إنني أقرأ روايات ديكنز، والسيد هاريس لن يأتي.

قال السيد بوك: ضع أمتعة السيد في المقصورة رقم ٧، وإذا وصل السيد هاريس هذا فستقول له إنه قد تأخر وإنه لا يمكن حجز المقصورات إلى هذا الوقت... سنتدبر الأمر بطريقة ما. ماذا يهمني من أمر السيد هاريس؟

قال مسؤول التذاكر: كما يحب سيدي.

ثم كلم الحمال الذي كان يحمل أمتعة بوارو وأرشده إلى أين يذهب، وبعد ذلك تنحى عن الدرجات ليدع بوارو يدخل القطار وقال: المقصورة قبل الأخيرة.

مرّ بوارو عبر الممر ببطء نوعاً ما لأن معظم المسافرين كانوا يقفون خارج مقصوراتهم، وكانت اعتذاراته تصدر بانتظام يشابه انتظام الساعة، وأخيراً وصل إلى المقصورة المنشودة وبداخلها كان الشاب الأميركي الطويل (الذي رآه في فندق توكاتليان) يمد يده إلى الأعلى نحو حقيبته. وعندما رأى بوارو يدخل قطّب حاجبيه وقال: اعذرني؛ أظن أنك ارتكبت خطأ.

ثم قال جاهداً بالفرنسية: أظن أن هذا المكان محجوز.

أجابه بوارو بالإنكليزية: أأنت السيد هاريس؟

- لا. اسمي ماكوين. إنني...

وفي هذه اللحظة جاء صوت مسؤول التذاكر من خلف بوارو بنبرة اعتذارية ونَفَس مقطوع: لا يوجد سرير آخر على القطار يا سيدي، ويجب أن يبقى هذا السيد هنا.

كان يرفع نافذة الممر وهو يتكلم، ثم بدأ يرفع أمتعة بوارو.

ولاحظ بوارو الاعتذار في صوته بشيء من التعجب. لا بد وأنه وُعِدَ بمكافأة سخية لو استطاع أن يُبقي المقصورة لاستعمال المسافر الآخر فقط، ولكن حتى أكبر المكافآت سخاء تفقد تأثيرها إذا كان

رئيس الشركة على متن القطار يعطي أوامره.

خرج مسؤول التذاكر من المقصورة بعد أن رفع الحقائب على الرف وقال: حسناً يا سيدي، لقد تم ترتيب كل شيء. سريرك هو العلوي، رقم ٧. ستنطلق بعد دقيقة.

سار مسرعاً عبر الممر، ودخل بوارو إلى المقصورة ثانية وقال بانشراح: "ظاهرة نادراً ما رأيتها". ثم أضاف: مسؤول التذاكر يرفع الأمتعة بنفسه؟ لم أسمع بهذا من قبل!

ابتسم رفيق سفره، وقد بدا واضحاً أنه تخطى الانزعاج الذي أصابه. ولعله رأى أن من المستحسن أن ينظر إلى الأمر بصورة فلسفية؛ فقد قال: إن القطار ممتلئ بصورة عجيبة.

صوتت صافرة وصدر عن المحرك صوت كئيب وخرج الرجلان إلى الممر. صاح صوت في الخارج: "انطلاق"، فقال ماكوين: لقد تحركنا.

ولكنهم لم يتحركوا حقاً، وصوّتت الصافرة مرة أخرى.

قال الشاب فجأة: أقول يا سيدي، إذا كنت تفضل السرير السفلي (للسهولة وما إلى ذلك) فليس لديّ مانع.

اعترض بوارو قائلاً: لا، لا. لن أحرمك...

- لا بأس بذلك.

- إنك لطيف جداً.

صدرت اعتراضات مؤدبة من الطرفين، ثم أوضح بوارو: إنها لليلة واحدة فقط، ففي بلغراد...

- آه، فهمت. ستغادر القطار في بلغراد.

- ليس تماماً. أترى...؟

وقعت هزة مفاجأة، والتفت الرجلان نحو النافذة ونظرا نحو الرصيف الطويل وهو يمر مبتعداً عنهم.

لقد بدأ قطار الشرق السريع رحلته لثلاثة أيام عبر أوروبا.

* * *

الفصل الثالث

بوارو يرفض قضية

تأخر السيد هيركيول بوارو قليلاً في الدخول إلى عربة المطعم لتناول الغداء في اليوم التالي. كان قد صحا مبكراً وأفطر وحده تقريباً وأمضى صباحه يراجع ملاحظات القضية التي دعته للعودة إلى لندن، ولم يرَ إلا القليل من رفيقه في السفر.

كان السيد بوك جالساً قبله، وأشار بتحية نحوه ودعاه إلى كرسي فارغ أمامه. جلس بوارو وأدرك -على الفور- أنه يجلس في مكان متميز حيث كانت الطاولة تُخدَم قبل غيرها، وكان الطعام جيداً على غير العادة. ولم يخرج السيد بوك عن موضوعات الطعام إلاّ وهما يهمان بتناول طبق من جبنة الكريمة. كان قد بلغ في طعامه مرحلة يصبح المرء فيها متفلسفاً. تنهد وقال: آه، لو أن لي قلم بلزاك لكنت وصفت هذا المنظر.

ثم أشار بيده، فقال بوارو: إنها فكرة جيدة.

- آه، أتوافقني؟ لم يقم أحد بمثل هذا الأمر على ما أظن،

خفيفة ونهضت. والتقت نظراتها بنظرة بوارو لها فرمقته من أعلى إلى أسفل بطريقة الأرستقراطية غير العابثة.

قال السيد بوك بصوت خافت: تلك هي الأميرة دراغوميروف. إنها روسية، وقد حصل زوجها على كل هذا المال قبل الثورة واستثمره في الخارج. إنها ثرية جداً، وتعرف العالم كله.

أومأ بوارو برأسه، فقد سمع عن الأميرة دراغوميروف.

قال السيد بوك: "إنها شخصية متميزة". ثم أضاف: إنها شديدة القبح، ولكن لها حضوراً. ألا توافقني؟

وافقه بوارو.

وعلى طاولة أخرى كبيرة جلست ماري دينهام مع امرأتين أخريين. إحداهما كانت طويلة في وسط العمر تلبس قميصاً ذا نسيج مربع وتنورة من القماش الإنكليزي الثقيل، وقد صففت شعرها الأصفر على شكل كعكة على رأسها. كانت تلبس نظارات ولها وجه طويل خانع ودود كوجه النعجة، وكانت تنصت إلى المرأة الثالثة التي كانت كهلة بدينة ذات وجه لطيف وتتحدث بصوت بطيء وواضح ومتصل بحيث لم تُظهر أية إشارة تدل على التوقف لالتقاط الأنفاس أو للتوقف عن الكلام: ولذلك قالت ابنتي: "لا يمكنك تطبيق الطرق الأميركية في هذا البلد، فمن الطبيعي أن يكون الناس هنا كسالى". وقالت: "لا يوجد عندهم دافع يدعوهم إلى العجلة". ولكني لم أهتم بهذا، وسوف تُفاجَئين لو تعلمين ما الذي تقوم به كليّتنا هناك. إن لدينا هيئة تدريسية جيدة وأظن أنه لا يوجد شيء

كالتعليم. تقول ابنتي...

مر القطار في نفق فضاع ذلك الصوت الهادئ وسط الضجيج.

وعلى الطاولة الصغيرة التي تلي تلك جلس العقيد آربوثنوت وحده. كان يحدق إلى مؤخرة رأس ماري دينهام. لم يجلسا معاً رغم أنه كان من السهل ترتيب ذلك. لماذا؟

فكر بوارو أن ماري دينهام ربما تكون قد احتشمت قليلاً؛ فالمربية تتعلم كيف تكون حريصة لأن المظاهر مهمة، وفتاة تعمل من أجل العيش عادة ما تكون متحفظة.

انتقلت نظرته إلى الجانب الآخر من العربة. كانت امرأة تلبس السواد تجلس في الطرف البعيد قرب الحائط، وكانت ذات وجه عريض عديم المشاعر. وفكر في أنها قد تكون ألمانية أو إسكندنافية... ربما تكون خادمة ألمانية.

وبعدها كان ثمة زوجان متكئان إلى الأمام يتحادثان ويؤشران بأيديهما. كان الرجل يلبس ملابس فضفاضة مصنوعة من قماش إنكليزي ثقيل ولكنه لم يكن إنكليزياً، وعلى الرغم من أنه كان يجلس وظهره إلى بوارو إلاّ أن مؤخرة رأسه ووضعية كتفيه أظهرا جنسيته. كان رجلاً ضخماً ذا بنية متينة، وأدار رأسه فجأة فأبصر بوارو جانب وجهه. كان رجلاً وسيماً جداً في الثلاثينيات من عمره وقد أطلق شاربين أشقرين كبيرين.

أما المرأة المقابلة له فكانت شابة صغيرة السن، وخمّن أن عُمرها عشرون عاماً. كانت تلبس معطفاً ضيقاً أسود وقميصاً من

الساتان الأبيض، وقد وضعت على رأسها قبعة سوداء صغيرة وجميلة تميل بزاوية حادة. كان لها وجه جميل أجنبي المنظر وجلد شديد البياض وعينان بنيتان واسعتان وشعر أسود داكن، وتزين يدها ياقوتةٌ ضخمة في إطار من البلاتين. وكان في نظرتها وفي صوتها شيء من الدلال.

تمتم بوارو: إنها جميلة وأنيقة! رجل وزوجته، هه؟

أومأ السيد بوك موافقاً وقال: من السفارة الهنغارية كما أظن. زوجان جميلان.

كان في العربة مسافران آخران فقط، وهما رفيق بوارو في السفر ماكوين ورئيسه السيد راتشيت. وقد جلس الأخير مقابلاً لبوارو، وللمرة الثانية تمعن بوارو في ذلك الوجه غير الجذاب ملاحظاً عينيه الصغيرتين القاسيتين.

لا شك في أن السيد بوك رأى تغيراً في تعابير وجه صديقه، إذ سأله: أتراك تنظر إلى حيوانك المتوحش؟

أومأ بوارو بالإيجاب. وعندما أُحضرتْ قهوته نهض السيد بوك على قدميه، ولأنه بدأ قبل بوارو فقد أنهى وجبته قبل مدة. قال: أنا عائد إلى مقصورتي. تعال عندي عندما تنتهي ودعنا نتحدث.

- بكل سرور.

رشف بوارو قهوته فيما كان النادل يتنقل من طاولة إلى أخرى حاملاً صندوق نقوده جامعاً قيم الفواتير المختلفة، وارتفع صوت

المرأة الأميركية حاداً شاكياً: قالت ابنتي: "ابتاعي دفتر تذاكر الطعام ولن تواجهي أية متاعب... ولن تواجهي متاعب أبداً". ولكن لا يبدو هذا صحيحاً الآن؛ إذ يبدو أنهم يطالبون بنسبة عشرة بالمئة إكرامية، بالإضافة إلى زجاجة المياه المعدنية أيضاً، ويا لها من مياه غريبة! فليس لديهم مياه من نوع إيفيان أو فيشي، وهذا يبدو غريباً لي.

قالت السيدة ذات الوجه الخانع كوجه نعجة: إنهم مضطرون لتقديم مياه البلد الذي نكون فيه.

- إن الأمر يبدو غريباً بالنسبة لي.

نظرت باشمئزاز إلى كومة النقود الصغيرة على الطاولة أمامها، ثم أضافت: وانظروا إلى هذه الأشياء الغريبة التي أعطانيها؛ إنها لا تبدو محترمة مثل نقودنا. لقد قالت ابنتي...

دفعت ماري ديبنهام كرسيها إلى الخلف وغادرت وهي تنحني انحناءة بسيطة نحو المرأتين، ثم قام العقيد أربوثنوت وتبعها. جمعت السيدة الأميركية نقودها المحتقرة وغادرت أيضاً، وتبعتها السيدة التي تشبه النعجة. وكان الهنغاريان قد غادرا من قبل فأصبحت عربة المطعم خالية إلاّ من بوارو وراتشيت وماكوين.

تحدث راتشيت مع رفيقه الذي نهض وغادر العربة، ثم نهض هو الآخر، ولكنه بدل أن يتبع ماكوين جلس بصورة غير متوقعة في المقعد المقابل لبوارو وقال: أتسمح لي بثقاب؟

كان صوته ناعماً في أثر يوحي وكأنه يخرج من أنفه. ثم قال: اسمي راتشيت.

انحنى له بوارو قليلاً ووضع يده في جيبه وأخرج علبة ثقاب وناولها للرجل الآخر الذي أخذها بدوره ولكنه لم يشعل عوداً منها، بل تابع كلامه قائلاً: أظن أنني أحظى بشرف التحدث إلى السيد هيركيول بوارو، أليس كذلك؟

أحنى بوارو رأسه ثانية وقال: لقد أُعطيتَ معلومات صحيحة يا سيدي.

كان رجل التحري واعياً لتلكما العينين الغريبتين وهما تقيّمانه قبل أن يتكلم الرجل مرة أخرى: نحن، في بلدي، ندخل إلى صلب الموضوع مباشرة يا سيد بوارو. أريدك أن تتولى لي مهمة.

ارتفع حاجبا هيركيول بوارو قليلاً وقال: إن زبائني محدودون هذه الأيام يا سيدي، وأنا لا أقبل إلاّ القليل من القضايا.

ردّ الرجل: "إنني أتفهم الوضع بطبيعة الحال، ولكن هذا الأمر ينطوي على أموال طائلة يا سيد بوارو". ثم كرر بصوته الناعم والمغري: أموال طائلة!

صمت هيركيول بوارو لدقيقة أو اثنتين ثم قال: ما الذي تريدني أن أفعله لك يا سيد... راتشيت؟

- إنني رجل ثري يا سيد بوارو... ثري جداً. وأي رجل في مثل هذا الموقف يكون لديه أعداء، وأنا لديّ عدو.

- عدو واحد فقط؟

سأل راتشيت بحدة: ما الذي تعنيه بهذا السؤال؟

- تفيد خبرتي، يا سيدي، بأن الرجل إذا كان في موضع يجلب له الأعداء -كما تقول- فعادة ما لا يقتصر الأمر على عدو واحد.

بدا راتشيت مرتاحاً لجواب بوارو فقال بسرعة: آه، نعم. أقدّر لك هذه النقطة، ولكن لا يهم أعدو واحد هو أم أعداء متعددون... المهم هو سلامتي.

- سلامتك؟

- لقد هدد أحدهم حياتي. وأنا رجل أستطيع أن أعتني بنفسي جيداً يا سيد بوارو...

أخرج من جيب معطفه مسدساً ثم تابع متجهماً: لا أظنني من نوع الرجال الذين يمكن أن يؤخَذوا على حين غرّة، ولكنني أود أن أكون متأكداً جداً من سلامتي، وأظن أنك الرجل الذي يستحق مالي يا سيد بوارو... وتذكّرْ أنها أموال طائلة.

نظر إليه بوارو مفكراً لبعض الوقت بوجه خال تماماً من أي تعبير، وما كان للرجل الآخر أن يتكهن بما يدور في خلده. وبعد بعض الصمت قال: أنا آسف يا سيدي لأنني لا أستطيع أن أقبل الأمر.

نظر إليه الآخر بحدة وقال: حدد المبلغ الذي تريده إذن؟

هز بوارو رأسه نافياً وقال: أنت لا تفهمني يا سيدي. لقد كنتُ محظوظاً جداً في مهنتي، وقد حصلت من المال على ما يكفي لإشباع حاجاتي كلها، وأنا لا أقبل من القضايا الآن إلاّ ما يثير اهتمامي.

قال راتشيت: إن لديك إصراراً كبيراً. هل يغريك مبلغ عشرين ألف دولار؟

- لن يغريني.

- إذا كنت ترفض بغية الحصول على المزيد فإنك لن تنال ذلك؛ لأنني أعرف قيمة كل شيء بالنسبة لي.

- وكذلك أنا... يا سيد راتشيت.

- وما هو العيب في عرضي؟

نهض بوارو وقال: اعذرني إذا كنتُ ذاتياً في هذا الأمر... إنني لا أحب وجهك يا سيد راتشيت!

ثم غادر عربة المطعم.

* * *

الفصل الرابع

صيحة في الليل

وصل قطار الشرق السريع إلى بلغراد في التاسعة إلاّ ربعاً من تلك الليلة. ولم يكن مقرراً أن يغادر حتى التاسعة والربع، لذلك نزل بوارو إلى الرصيف، ولكنه لم يستمر هناك طويلاً؛ فقد كان البرد قارساً. وعلى الرغم من أن الرصيف نفسه كان محمياً إلاّ أن الثلج كان يتساقط بشدة خارجه، فرجع بوارو إلى مقصورته.

وهناك قال له مسؤول التذاكر الذي كان يضرب بقدميه على الرصيف ويلوح بيديه طلباً للدفء: لقد تم وضع أمتعتك في المقصورة رقم ١؛ مقصورة السيد بوك.

- ولكن أين السيد بوك إذن؟

- لقد انتقل إلى العربة القادمة من أثينا والتي تم وصلها بالقطار للتو.

ذهب بوارو باحثاً عن صديقه بوك الذي أبدى رفضه لاعتراضات بوارو قائلاً: أنا لم أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً؛ فالوضع هكذا مريح

أكثر. أنت ستمكث طوال الرحلة وصولاً إلى إنكلترا، ولذلك فإن من الأفضل أن تبقى في العربة التي ستمضي إلى كاليه، أما أنا فإنني مرتاح هنا، فالمقصورة هادئة جداً وليس فيها إلاّ أنا وطبيب يوناني. آه، يا صديقي، يا لها من ليلة! يقولون إن الثلوج لم تهطل بهذه الغزارة منذ سنوات. لنأمل ألاّ تحتجزنا، ودعني أخبرك بأنني غير سعيد بهذا الوضع.

تحرك القطار من المحطة في الساعة التاسعة والربع بالضبط، وبعد ذلك بقليل نهض بوارو وتمنى لصديقه ليلة سعيدة، ثم مشى عبر الممر عائداً إلى عربته التي كانت في المقدمة بعد عربة المطعم.

وفي هذا اليوم (اليوم الثاني من الرحلة) بدأت الحواجز تسقط بين المسافرين؛ فقد وقف العقيد آربوثنوت أمام مقصورته يتحدث إلى ماكوين. وقطع ماكوين حديثه عندما رأى بوارو وقد بدت عليه المفاجأة وصاح قائلاً: ماذا؟ اعتقدت أنك غادرتنا. لقد قلت إنك ستغادر القطار في بلغراد.

قال بوارو وهو يبتسم: لقد أسأتَ فهمي. أذكر أن القطار تحرك من إسطنبول في اللحظة التي كنا نتحدث فيها عن الموضوع.

- ولكن حقائبك يا رجل... لقد اختفت.

- لقد نُقِلَتْ إلى مقصورة أخرى، هذا كل ما في الأمر.

- آه، فهمت.

تابع محادثته مع آربوثنوت ومضى بوارو عبر الممر. وقبل

مقصورته ببابين كانت تقف المرأة الأميركية الكهلة، السيدة هوبارد، تتحدث إلى المرأة الشبيهة بالنعجة، والتي كانت سويدية.

كانت السيدة هوبارد تقدّم مجلةً إلى المرأة الأخرى قائلة: أبداً! خذيها يا عزيزتي، فلديّ أشياء أخرى كثيرة للقراءة. يا إلهي! أليس البرد شيئاً مخيفاً؟

ثم أومأت برأسها ودياً لبوارو، فيما قالت السيدة السويدية: أنت لطيفة جداً.

- لا عليك. أرجو أن تنامي جيداً وأن يزول صداعك في الصباح.

- إنه البرد فقط. سأصنع لنفسي كوباً من الشاي.

- هل لديك بعض الأسبرين؟ هل أنت متأكدة؟ فلديّ الكثير منه. حسناً، طابت ليلتك يا عزيزتي.

التفتت نحو بوارو متحدثة بعد أن غادرت المرأة الأخرى: يا للمسكينة! إنها سويدية، وكما فهمتُ فإنها تعمل معلمة من نوع ما. إنها لطيفة غير أنها لا تتكلم الإنكليزية جيداً، وقد اهتمت كثيراً بما أخبرتها به عن ابنتي.

كان بوارو قد عرف -عندئذ- كل شيء عن ابنة السيدة هوبارد، بل إن كل من يفهم الإنكليزية على متن القطار عرف كل شيء عن ابنتها التي كانت وزوجها من أعضاء الهيئة التدريسية في كلية أميركية كبيرة في سميرنا.

فُتح الباب الذي يليهم وخرج منه الخادم النحيل الشاحب، ولمح بوارو في داخل المقصورة السيد راتشيت جالساً على السرير، وعندما رأى بوارو تغير وجهه غضباً، ثم أُغلق الباب.

تنحت السيدة هوبارد ببوارو جانباً وقالت: أنا خائفة لدرجة الموت من ذلك الرجل. آه، ليس الخادم، وإنما الآخر، سيده. يا له من سيد! فيه شيء غير طبيعي. ابنتي تقول دائماً إن حدسي صادق: "عندما تخمّن أمي شيئاً فإن حدسها يكون صحيحاً تماماً"... هذا ما تقوله ابنتي. إن لديّ إحساساً إزاء ذلك الرجل. إنه يقيم في المقصورة التي بجانبي ولا أحب ذلك. لقد وضعتُ حقائبي أمام الباب الذي يفصل مقصورتينا ليلة أمس، وأظنني سمعته يحاول العبث بيد الباب. أتعلم؟ لن أعجب إذا تبين أن ذلك الرجل قاتل، أو أنه واحد ممن نقرأ عنهم من الذين يسطون على القطارات. قد تظنني غبية ولكن هذا ما أظنه. إنني خائفة جداً من ذلك الرجل! قالت ابنتي إنني سأقضي رحلة سهلة، ولكنني لست سعيدة بهذه الرحلة. قد يكون هذا غباء ولكنني أشعر أن أي شيء قد يحدث... أي شيء، ولا أستطيع أن أفهم كيف يتحمل ذلك الشاب اللطيف أن يكون سكرتيره.

كان العقيد آربوثنوت وماكوين يتقدمان باتجاههما في الممر، وماكوين يقول لصاحبه: تعال إلى مقصورتي؛ فلم يتم ترتيبها للنوم بعد. إن ما أود فهمه عن سياستكم في الهند هو...

مرّ الرجلان وابتعدا عنهما عبر الممر نحو مقصورة ماكوين، وتمنت السيدة هوبارد ليلة سعيدة لبوارو قائلة: أظنني سأذهب من فوري إلى السرير وأقرأ. طابت ليلتك.

- طابت ليلتك يا سيدتي.

ذهب بوارو إلى مقصورته التي كانت بعد مقصورة راتشيت مباشرة، حيث ذهب إلى سريره وقرأ لمدة نصف ساعة تقريباً وبعدها أطفأ النور.

ولكنه صحا جافلاً بعد عدة ساعات وقد أدرك ما الذي أيقظه. كانت آنّة عالية... تكاد تكون صيحة، في مكان ما قريب. وفي نفس اللحظة سمع رنة جرس حادة.

جلس بوارو وأشعل الضوء ولاحظ أن القطار كان واقفاً... ربما في محطة ما. أجفلته تلك الصيحة، وتذكر أن راتشيت هو الذي يقطن المقصورة التي بجانبه. نهض من السرير وفتح الباب في نفس اللحظة التي أتى بها مسؤول التذاكر مسرعاً عبر الممر وطرق على باب راتشيت. أبقى بوارو بابه مفتوحاً فتحة صغيرة وبدأ يراقب. طرق المسؤول الباب مرة ثانية ثم قُرِعَ جرسٌ وظهر ضوءٌ من باب آخر في الممر، فالتفت المسؤول نحو ذلك الضوء.

وفي نفس اللحظة سُمع صوتٌ داخل المقصورة التي بجانبه يقول بالفرنسية: لا يوجد شيء، كان ذلك خطأً مني.

قال مسؤول التذاكر: "حسناً يا سيدي". ثم أسرع ليدق على الباب الذي ظهر الضوء فوقه.

عاد بوارو إلى سريره وقد ارتاح ذهنه وأطفأ النور. نظر إلى ساعته وكانت تشير إلى الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة.

* * *

الفصل الخامس

الجريمة

وجد بوارو صعوبة في العودة مباشرة إلى النوم، فقد افتقد حركة القطار الرتيبة. ولئن كانت هذه محطة فلا ريب في أنها هادئة بصورة غريبة. وفي المقابل كانت الأصوات داخل القطار عالية على غير العادة. استطاع أن يسمع راتشيت يتحرك في المقصورة التي بجانبه وسمع صوتاً صادراً عن فتح المغسلة وصوت الماء يجري من الصنبور وصوت ارتطام الماء على المغسلة، ثم سُمع صوت آخر دلَّ على إغلاق الماء، وصوت أقدام تمر في الممر خارجاً وكانت صوت أقدام شخص يلبس نعالاً خفيفاً.

استلقى بوارو يقظاً يحدق إلى السقف. لماذا كانت المحطة هادئة لهذه الدرجة في الخارج؟ شعر بجفاف في حلقه وقد نسي أن يطلب زجاجته المعهودة من المياه المعدنية. نظر إلى ساعته مرة أخرى وكانت تشير إلى الواحدة والربع. سيقرع الجرس ويطلب من المسؤول بعض المياه المعدنية. وتحرك إصبعه نحو الجرس، ولكنه توقف عندما سمع قرع جرس آخر في هدوء الليل، فلا يمكن لذلك الرجل أن يجيب على جميع الأجراس مرة واحدة.

قُرع الجرس مرة بعد أخرى. أين هو الرجل؟ لقد نفد صبر أحدهم. إن قارع الجرس، أياً كان، قد أبقى إصبعه على الجرس.

فجأة أتى الرجل بسرعة وصوت وقع أقدامه يتردد عبر الممر. طَرَق باباً ليس بعيداً عن مقصورة بوارو، ثم أتت الأصوات: صوت المسؤول وفيه نبرة احترام واعتذار، وصوت امرأة، مُلحّة مهذارة.

السيدة هوبارد... ابتسم بوارو مع نفسه.

استمر الجدال لبعض الوقت، واستولت السيدة هوبارد على تسعين بالمئة من الحديث بينما اكتفى المسؤول بعشرة بالمئة قضاها وهو يحاول تهدئة الموقف. وأخيراً بدا أن المشكلة قد حُلَّت، فقد سمع بوارو بوضوح: "تصبحين على خير يا سيدتي"، ثم صوت باب يغلق.

ضغط بوارو بإصبعه على الجرس، فوصل المسؤول في الحال وبدا مغتاظاً قلقاً.

- زجاجة مياه معدنية من فضلك.

- حسناً يا سيدي.

ولعل الرجل رأى لمعة في عيني بوارو دعته إلى أن يبوح بما في نفسه: المرأة الأميركية...

- نعم؟

مسح جبينه وقال: تخيل الوقت العصيب الذي قضيته معها!

إنها تصرُّ وتصرُّ على أن في مقصورتها رجلاً! تخيل يا سيدي. في مساحة بهذا الحجم؟

حرك ذراعه مشيراً إلى حجم الغرفة ثم أضاف قائلاً: أين يمكن أن يختبئ؟ لقد تجادلت معها وبينت لها أن ذلك مستحيل، ولكنها تصرُّ على أنها استيقظت ورأت رجلاً هناك. فسألتها: "وكيف خرج وأقفل الباب من الداخل؟"، ولكنها لا تريد سماع صوت العقل. وكأننا بحاجة لمنغصات جديدة. ألا تكفي هذه الثلوج...؟

- الثلوج؟

- نعم يا سيدي، ألم تلاحظ؟ لقد توقف القطار بسبب كثافة الثلوج، ولا يعلم إلاّ الله كم سنبقى هنا. أذكر مرة أن الثلوج أعاقتنا لمدة سبعة أيام.

- أين نحن؟

- بين فينكوفي وبرود.

قال بوارو بحنق: يا إلهي!

انسحب الرجل ثم عاد بالماء وقال: طابت ليلتك يا سيدي.

شرب بوارو كأساً من الماء، ثم حاول النوم ثانية. وكان في بداية غفوته عندما أيقظه -ثانية- صوتٌ آخر، ولكنه بدا هذه المرة وكأنه صوت شيء ثقيل يرتطم بالباب.

قفز مسرعاً وفتح الباب ونظر خارجه... لا شيء. ولكن عن يمينه وفي نهاية الممر كانت امرأة ملتفعة بقميص نوم قرمزي تمشي

مبتعدة عنه، وفي الطرف الآخر جلس المسؤول في كرسيه الصغير يسجل أرقاماً على أوراق كبيرة. وكان كل شيء ساكناً سكون الموت.

قال بوارو: "ربما كانت أعصابي مجهَدة". ثم ذهب إلى فراشه، وفي هذه المرة نام حتى الصباح.

* * *

عندما استيقظ كان القطار ما يزال واقفاً، فرفع الستارة ونظر خارجاً. كانت أكوام من الثلوج تحيط بالقطار. ونظر إلى ساعته فوجد أن الوقت قد تعدى التاسعة.

وفي العاشرة إلاّ ربعاً اتجه نحو عربة المطعم مرتباً ومتأنقاً كعادته فوجدها تعج بأصوات الساخطين. ولئن كانت بعض الحواجز بين الركاب قد بقيت حتى ذلك الحين فإنها قد سقطت كلها؛ إذ وحّد سوء الطالع بين مصائر الناس. وكانت السيدة هوبارد صاحبة الصوت الأعلى في اعتراضاتها: قالت ابنتي إنها أسهل وسيلة في العالم للسفر... "ما عليك سوى أن تجلسي في القطار حتى تصلي إلى باريس". أما الآن فقد نجلس هنا لعدة أيام، وسوف يبحر القارب بعد غد، فكيف أستطيع أن ألحق به الآن؟ بل إنني لا أستطيع أن أبرق لإلغاء الحجز. أشعر بالجنون وأنا أتحدث عن ذلك.

وقال الإيطالي إن لديه أعمالاً عاجلة في ميلانو، أما الأميركي الضخم فقد وجه كلامه إلى السيدة مخففاً عنها وقال إنه يأمل في أن يتمكن القطار من تعويض الوقت الذي أضاعوه.

بكت المرأة السويدية وقالت: "إن أختي وأولادها ينتظرونني"، ثم أضافت: لا أستطيع أن أعلِمهم عما حدث. بماذا سيفكرون؟ سيظنون أن أمراً سيئاً قد حدث لي.

سألت ماري ديبنهام بلهجة الأمر: كم من الوقت سنبقى هنا؟ ألا يعلم أحد ذلك؟

بدت نافذة الصبر، ولكن بوارو لاحظَ أنها لم يبدُ عليها أثر لذلك القلق الذي أبدته عندما كانت في قطار طوروس السريع.

انطلقت السيدة هوبارد ثانية: لا يوجد أي شخص على هذا القطار يعلم شيئاً، ولا أحد يحاول أن يفعل شيئاً. مجرد زمرة من الأجانب عديمي الفائدة، فلو حدث هذا الأمر في بلدي لحاول أحدٌ أن يفعل شيئاً على الأقل.

التفت آربوثنوت إلى بوارو وتكلم بالفرنسية بلكنة إنكليزية قائلاً: إنك مدير هذه الخطوط كما أظن يا سيدي، فهل لديك أي رأي...

صحّحهُ بوارو بالإنكليزية وهو يبتسم: لا، لا... لست أنا. لقد خلطت بيني وبين صديقي السيد بوك.

– آه، أنا آسف.

– لا عليك، إنه أمر طبيعي؛ فأنا أمكث الآن في المقصورة التي كان يشغلها.

لم يكن السيد بوك موجوداً في عربة المطعم، ونظر بوارو حوله ليرى مَن غيره كان غائباً.

لم تكن الأميرة دراغوميروف موجودة ولا الزوجان الهنغاريان، وكذلك راتشيت وخادِمُهُ والخادمة الألمانية، كلهم كانوا غائبين.

مسحت المرأة السويدية عينيها وقالت: أنا غبية. إنني أبكي كالأطفال، لن يحدث إلاّ ما يريده الله.

إلاّ أن هذه الروح العملية لم تكن موجودة لدى الجميع، فقد قال ماكوين منزعجاً: قد يكون هذا جيداً، ولكننا قد نُحتَجزُ هنا لأيام.

سألت السيدة هوبارد باكية: ما اسم هذا البلد على أية حال؟

عندما أُخبِرَتْ أنها يوغوسلافيا قالت: آه! إنها واحدة من دول البلقان تلك. ماذا تتوقعون منهم؟

قال بوارو للآنسة ديبنهام: أنت الصبورة الوحيدة هنا يا آنسة.

هزت كتفيها قليلاً وقالت: وما الذي يستطيع أن يفعله المرء؟

– أنت فيلسوفة يا آنسة.

– هذا يدلّ على موقف المنسحب المنعزل، وأحسب أن موقفي أقرب للأنانية. لقد تعلمت أن أوفر على نفسي العواطف غير المفيدة.

لم تكن تنظر إليه، وإنما تَعدّتْ نظرتها إلى خارج النافذة حيث تراكمت كميات كبيرة من الثلوج. وقال بوارو بلطف: إن شخصيتك قوية يا آنسة، وأظن أنها الأقوى من بين شخصياتنا جميعاً.

- آه، لا. بالتأكيد لا. أعرف شخصاً آخر ذا شخصية أقوى مني بكثير.

- وهو...؟

فجأة بدا أنها استعادت التركيز على أفكارها وأدركت أنها تتحدث إلى أجنبي غريب لم تتبادل معه سوى بعض العبارات حتى هذا الصباح. ضحكت ضحكة غريبة ومؤدبة ثم قالت: تلك المرأة المتقدمة في السن مثلاً... ربما لاحظتها. إنها امرأة كبيرة وشديدة البشاعة، ولكنها تسحر اللب. ما عليها سوى أن تحرك إصبعها وتطلب شيئاً بصوت مؤدب حتى يتراكض جميع من في القطار.

قال بوارو: وكذلك يتراكضون لصديقي السيد بوك، ولكن ذلك عائد إلى كونه مدير الخط وليس لأن له شخصية قوية.

ابتسمت ماري ديبنهام.

* * *

مضى الصباح وبقي عدد من الناس في عربة المطعم، ومن ضمنهم بوارو. بدا أن اتباع حياة اجتماعية هي الطريقة الأفضل لإضاعة الوقت، وقد سمع المزيد عن ابنة السيدة هوبارد، وسمع عن عادات حياة السيد هوبارد المتوفى، منذ أن كان يستيقظ في الصباح ويتناول فطوراً من الحبوب إلى أن يأوي إلى فراشه ليلاً بجوارب النوم التي اعتادت السيدة هوبارد أن تغزلها له بنفسها.

وفيما كان يستمع إلى هذه التفصيلات جاء أحد مسؤولي التذاكر ووقف بجانبه قائلاً: اعذرني يا سيدي.

- نعم؟

- السيد بوك يرسل تحياته، وسوف يُسَرّ لو تلطفتَ وذهبت عنده لبضع دقائق.

نهض بوارو واعتذر للسيدة وتبع الرجل خارج عربة المطعم. لم يكن مسؤول التذاكر الذي يعرفه بل كان رجلاً أشقر ضخماً، وتبعه بوارو عبر ممر العربة التي يمكث بها وممر العربة التالية أيضاً. طرق الرجل الباب وتنحى جانباً ليفسح المجال أمام بوارو للدخول.

لم تكن تلك مقصورة السيد بوك وإنما مقصورة من الدرجة الثانية، ولربما تم اختيارها لكونها أكبر قليلاً. ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت مكتظة. كان السيد بوك يجلس على مقعد صغير في الزاوية المقابلة، وفي الزاوية التي تليها، بجانب النافذة ومقابله تماماً، جلس رجل ضئيل أسمر البشرة ينظر خارجاً نحو الثلوج. كان مسؤول القطار يقف أمامه مباشرة بزيه الأزرق بحيث كان بوارو عاجزاً عن التقدم، وكان بجانب ذلك الأخير مسؤول التذاكر الذي يعرفه.

هتف السيد بوك: آه، صديقي العزيز! ادخل؛ فنحن بحاجة إليك.

انزاح الرجل الصغير قرب النافذة على مقعده وانحشر بوارو متقدماً بين الرجلين الآخرين وجلس مقابلاً صديقه. وقد دفعه التعبير على وجه السيد بوك إلى التفكير بعمق، فقد بدا واضحاً أن أمراً غير عادي قد حدث. سأل: ما الأمر؟

- لك الحق في أن تسأل، ففي بادئ الأمر كانت الثلوج وهذا التوقف. والآن...

توقف وخرجت شهقة مخنوقة من مسؤول التذاكر.

- والآن ماذا؟

تحدث السيد بوك بشيء من اليأس الهادئ: والآن يتمدد مسافر ميت في سريره... مطعوناً.

- مسافر؟ أي مسافر؟

- أميركي. رجل يدعى... يدعى...

نظر إلى ملاحظات أمامه ثم قال: راتشيت... أهذا صحيح؟ راتشيت؟

قال مسؤول التذاكر: نعم يا سيدي.

نظر بوارو نحوه، ولمّا وجده أبيض الوجه بلون الكلس قال: من الأفضل أن تدَعوا ذلك الرجل يجلس وإلاّ فإنه سيغيب عن الوعي.

تحرك مسؤول القطار قليلاً فجلس الرجل في الزاوية وأخفى وجهه بين يديه.

قال بوارو: ممم... إنه لأمر جاد!

- إنه جاد بالتأكيد. جريمة قتل! وهذه بحد ذاتها مصيبة من الدرجة الأولى، ولكن ليس هذا فحسب، فظروف الجريمة غير

عادية؛ إذ أننا مجبَرون على التوقف هنا، وقد نبقى لساعات وربما لأيام!

قال بوارو: إنه موقف صعب للغاية.

- ولكن الأمر يزداد سوءاً. إن الدكتور كونستانتين... لقد نسيت أن أعرّف كلاً منكما بالآخر. الدكتور كونستانتين... السيد بوارو.

انحنى الرجل الضئيل الأسمر ورد بوارو عليه.

- يرى الدكتور كونستانتين أن الوفاة قد حصلت في نحو الواحدة بعد منتصف الليل.

قال الطبيب: من الصعب أن يكون المرء دقيقاً في مثل هذه الأمور، ولكن أعتقد أنني أستطيع أن أقول بكل تأكيد إن الوفاة وقعت بين منتصف الليل وبين الثانية صباحاً.

سأل بوارو: متى شوهد السيد راتشيت حياً آخر مرة؟

قال السيد بوك: كان على قيد الحياة في نحو الواحدة إلاّ عشرين دقيقة عندما كلم مسؤول التذاكر.

قال بوارو: هذا صحيح تماماً، فقد سمعت الحديث. هل هذا آخر ما تعلم؟

- نعم.

التفت بوارو نحو الطبيب الذي تابع كلامه: لقد وُجدَتْ نافذة السيد راتشيت مفتوحة مما يدعو المرء إلى الاعتقاد بأن القاتل قد هرب من هناك، ولكن برأيي أن تلك النافذة المفتوحة كانت

للتضليل؛ فلو خرج شخص من تلك الطريق لكان قد ترك آثاراً واضحة في الثلج، ولم تكن هناك أية آثار.

سأل بوارو: متى اكتُشفت الجريمة؟

- ميشيل!

انتصب مسؤول التذاكر في مقعده. كان وجهه ما يزال شاحباً وخائفاً، وأمره السيد بوك قائلاً: أخبر هذا السيد ما الذي حدث بالضبط.

تكلم الرجل بشيء من التلعثم: طرق خادم السيد راتشيت الباب عدة مرات هذا الصباح، ولكنه لم يسمع جواباً. وقبل نحو نصف ساعة ذهب نادل عربة المطعم وأراد أن يعرف إن كان السيد يريد إفطاراً. كانت الساعة الحادية عشرة، وفتحتُ له الباب بمفتاحي، ولكن كانت السلسلة الحديدية مقفلة أيضاً. لم يكن هناك جوابٌ وكان كل شيء هادئاً جداً في الداخل، وبارداً... بارداً جداً. كانت النافذة مفتوحة والثلوج تدخل، وظننت أن الرجل ربما أصيب بنوبة فطلبت مسؤول القطار، ثم كسرنا السلسلة ودخلنا. كان... آه، كان ذلك فظيعاً!

أخفى وجهه بين يديه ثانية. وسأل بوارو متأملاً: كان الباب مقفلاً بالسلسلة من الداخل؟ ألم يكن انتحاراً؟

ضحك الطبيب اليوناني ضحكة ساخرة وقال: إذا أراد رجلٌ أن ينتحر فهل يطعن نفسه في عشرة مواضع... أو حتى في اثني عشر موضعاً، أو خمسة عشر؟

فتح بوارو عينيه وقال: تلك وحشية عظيمة!

قال مسؤول القطار في أول تعليق له: إنها امرأة. كن واثقاً من أنها امرأة؛ فلا يمكن أن يطعن بهذا الشكل سوى امرأة.

تجهم وجه الطبيب كونستانتين وهو يفكر وقال: لا بد من أنها كانت امرأة قوية جداً. لا أودّ أن أبحث في الأمور الفنية فذلك يزيد الأمور تعقيداً، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أن ضربة أو ضربتين سُدّدتا بقوة كبيرة اجتازتا حواجز قاسية من العضل والعظم.

قال بوارو: من الواضح أنها لم تكن جريمة علمية.

قال الطبيب كونستانتين: إنها أبعد ما تكون عن العلم؛ إذ يبدو أن الضربات قد وُجّهت بشكل عشوائي وغير مرتب، وبعضها ارتد دون أن يسبب أي ضرر. يبدو وكأن أحداً ما أغمض عينيه ثم راح يضرب مرات ومرات بوحشية عمياء.

قال مسؤول القطار ثانية: "تلك هي المرأة! إن النساء كذلك، وعندما يغضبن فإنهن يمتلكن قوة عظيمة". ثم هز رأسه بحكمة حتى ظن الجميع أنه مر بتلك التجربة شخصياً.

قال بوارو: قد يكون عندي شيء أضيفه إلى معلوماتكم. لقد تحدث إليّ السيد راتشيت يوم أمس وأخبرني -كما فهمت منه- أن حياته في خطر.

قال السيد بوك: "لقد تم تصريفه! هذا هو التعبير الأميركي، أليس كذلك؟". ثم أضاف: فهي إذن ليست امرأة، بل مجرم عاتٍ، أو قاتل محترف.

بدا مسؤول القطار متألماً لأن نظريته بدت فاشلة.

قال بوارو: إذا كان الأمر كذلك فيبدو لي أن الجريمة قد ارتُكبت بأسلوب هواة.

كانت نبرته توحي بالمعارضة التي تنطلق من خبرة وحرفية.

وقال السيد بوك متابعاً فكرته: على القطار رجل أميركي ضخم. شخص عادي المنظر ذو ثياب فظيعة ويمضغ اللبان، وهو أمر لا أظنه متبعاً في الطبقات المحترمة. أتعرف من أعني؟

أومأ مسؤول التذاكر برأسه، إذ كان السؤال موجهاً إليه: نعم يا سيدي، الرجل الذي يشغل المقصورة رقم ١٦. ولكن لا يمكن أن يكون هو لأنه كان بمقدوري أن أراه يدخل المقصورة أو يخرج منها.

- لعلك لم تره، لعلك لم تره. سنتحدث في ذلك لاحقاً. السؤال هو: ماذا نفعل الآن؟

ثم نظر نحو بوارو الذي نظر إليه بدوره، فقال السيد بوك: يا صديقي! أنت تعرف ما الذي سأطلبه منك. إنني أعرف قدراتك وأريدك أن تتولى التحقيق! لا، لا. لا ترفض؛ فالأمر -كما ترى- جاد ومهم بالنسبة لنا، وأنا هنا أتحدث بالنيابة عن شركة الخطوط العالمية. كم سيكون الأمر بسيطاً عندما يصل الشرطة اليوغسلافية لو استطعنا أن نقدم لهم الحل، وإلاّ فسوف نواجه تأخيراً وتعقيداً في الأمور ومليون قضية مزعجة، ولكن بدلاً من ذلك تحل أنت الغموض، فنقول: لقد حصلت جريمة قتل وها هو المجرم!

- ولكن افترض أنني لم أحلها؟

قال السيد بوك: آه، يا عزيزي!

ثم أضاف وفي صوته الكثير من الإطراء: إنني أعرف عن سمعتك وأعرف شيئاً عن طرقك، وهذه هي القضية المثلى بالنسبة لك. ألم أسمعك -مرة- تقول إنه إذا أراد الرجل أن يحل قضية ما فما عليه سوى أن يستلقي في مقعده ويفكر؟ افعل ذلك. قم بمقابلة الركاب على القطار وافحص الجثة وافحص الأدلة في أماكنها، فأنا متأكد من أن كلامك ذلك لم يكن مجرد عجرفة. استلق وفكر واستخدم -كما سمعتك تقول مراراً- الخلايا الرمادية الصغيرة في دماغك وسوف تعرف الحل!

مال إلى الأمام وهو ينظر إلى صديقه بمحبة، فقال بوارو بشيء من العاطفة: إن إيمانك هذا قد أثّر بي يا صديقي. وكما تقول فإن هذه لن تكون قضية صعبة؛ فليلة أمس كنتُ أنا نفسي... ولكن دعنا لا نتحدث عن ذلك الآن. في الحقيقة إن هذه المشكلة أثارت اهتمامي، إذ كنت أقول قبل أقل من نصف ساعة إن أمامنا عدة ساعات من الملل ونحن عالقون هنا، أما الآن فها هي ذي مشكلة تأتيني جاهزة.

قال السيد بوك بحماسة: أنت تقبل القضية إذن؟

- إنك تضع الأمر بين يدي.

- حسناً، نحن جميعاً في خدمتك.

- في البداية أريد مخططاً لعربة إسطنبول-كاليه مع ذِكر الأشخاص الذين يشغلون مقصوراتها، كما أود أن أرى جوازات سفرهم وتذاكرهم.

- سوف يحضرها لك ميشيل.

غادر مسؤول التذاكر المقصورة، فيما سأل بوارو: مَن هم المسافرون الآخرون على القطار؟

- لا يوجد في هذه العربة سوى الطبيب كونستانتين وأنا، أما في العربة القادمة من بوخارست فلا يوجد سوى رجل متقدم في السن برِجْلٍ مقطوعة، وهو معروف جيداً للمسؤول. وما عدا ذلك فهناك العربات العادية، إلاّ أنها لا تهمنا لأنها أُقفلت بعد تقديم العشاء ليلة أمس، ولا يوجد أمام عربة إسطنبول-كاليه إلاّ عربة المطعم.

قال بوارو ببطء: إذن يبدو وكأننا يجب أن نبحث عن قاتلنا في عربة إسطنبول-كاليه.

التفت نحو الطبيب وقال: هذا ما كنتَ ترمي إليه على ما أظن.

أومأ اليوناني موافقاً وقال: بعد منتصف الليل بنصف ساعة واجهنا الثلوج، ولا يمكن أن يكون أحدٌ قد غادر القطار منذ ذلك الوقت.

قال السيد بوك بتجهم: إن القاتل معنا . . . **على القطار الآن!**

* * *

الفصل السادس

امرأة؟

قال بوارو: أودّ -أولاً- أن أتحدث إلى الشاب ماكوين، فقد يكون قادراً على إعطائنا معلومات ثمينة.

قال السيد بوك: "بالتأكيد". ثم التفت إلى مسؤول القطار قائلاً: استدعِ ماكوين.

غادر مسؤول القطار المقصورة، وعاد مسؤول التذاكر ومعه عدد من جوازات السفر والتذاكر، فأخذها السيد بوك منه قائلاً: شكراً يا ميشيل. أظن أن من الأفضل أن تعود إلى عملك الآن، وسنأخذ إفادتك رسمياً في وقت لاحق.

- حسناً يا سيدي.

غادر ميشيل العربة، وقال بوارو: بعدما نرى الشاب ماكوين أرجو أن يأتي السيد الطبيب معي إلى مقصورة الرجل الميت.

- بالتأكيد.

- وعندما ننتهي من هناك...

في هذه اللحظة عاد مسؤول القطار ومعه هيكتور ماكوين.

نهض السيد بوك قائلاً بلطف: إن المكان ضيق هنا. اجلس في مقعدي يا سيد ماكوين، وسيجلس السيد بوارو مقابلك... هكذا.

ثم التفت نحو مسؤول القطار وقال: أخرج الجميع من عربة المطعم ولتكن فارغة تحت تصرف السيد بوارو، أتحبّ أن تجري مقابلاتك هناك يا عزيزي؟

وافقه بوارو: نعم؛ سيكون ذلك مريحاً جداً.

وقف ماكوين ينظر من رجل إلى آخر وهو غير قادر تماماً على تتبع دفق الكلمات الفرنسية بينهما، ثم بدأ كلامه بالفرنسية بصعوبة قائلاً: ما الأمر؟ ولماذا...؟

أومأ له بوارو بإشارة حازمة أن يجلس في المقعد في الزاوية، فجلس وتمالك نفسه وبدأ يتحدث بلغته هو: ما الذي يجري في القطار؟ هل حدث شيء؟

ثم نظر من رجل إلى آخر، فأومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: بالضبط، لقد حدث شيء، ويجب أن تكون جاهزاً للصدمة. لقد مات مستخدِمك السيد راتشيت!

زمّ ماكوين شفتيه وأطلق صفرة، وفيما عدا لمعان بسيط في عينيه فإنه لم يُظهر أية إشارة تدل على صدمة أو حزن. قال: إذن فقد نالوا منه أخيراً!

- ما الذي تعنيه بالضبط بعبارتك هذه يا سيد ماكوين؟

تردد ماكوين قليلاً، فقال بوارو: أتفترض أن السيد راتشيت قد قُتل؟

- ألم يُقتَل؟

هذه المرة بدا ماكوين مدهوشاً، ثم قال ببطء: نعم، هذا بالضبط ما ظننته. هل تعني أنه مات أثناء نومه؟ كيف وقد كان الرجل أقوى من...

ثم توقف إذ أعوزه التشبيه، فقال له بوارو: نعم، نعم. كان افتراضك صحيحاً جداً، لقد قُتل السيد راتشيت... طُعن، ولكنني أود أن أعرف لِمَ كنت متأكداً من أنها جريمة قتل بالفعل وليست موتاً عادياً.

تردد ماكوين ثم قال: أودّ أن تكون الأمور واضحة لي. مَن أنت بالضبط؟ وما هو مكانك في هذا الأمر؟

قال بوارو: "إنني أمثّل شركة الخطوط العالمية". وتوقف قليلاً ثم أضاف: أنا رجل تحرٍّ، واسمي هيركيول بوارو.

ولئن كان قد توقع أثراً لاسمه فإنه لم يحصل عليه، فكل ما قاله ماكوين هو: "آه، حقاً؟"، ثم انتظر أن يتابع بوارو حديثه.

- لعلك تعرف اسمي؟

- إنه يبدو مألوفاً نوعاً ما... إلاّ أنني كنت أظنه اسم خياط نسائي.

نظر بوارو نحوه باشمئزاز وقال: هذا غير معقول!

- ما هو غير المعقول؟

- لا شيء. دعنا نستمر في موضوعنا. أريدك أن تخبرني -يا سيد ماكوين- بكل ما تعرفه عن الرجل الميت. أكنتَ من أقربائه؟

- لا. أنا سكرتيره... أو بالأحرى كنت كذلك.

- كم مضى عليك في هذا العمل؟

- أكثر من سنة بقليل.

- أرجو أن تعطيني كل ما تستطيعه من معلومات.

- حسناً. قابلت السيد راتشيت قبل أكثر من سنة عندما كنت في إيران...

قاطعه بوارو: ماذا كنت تفعل هناك؟

- ذهبت إلى هناك من نيويورك للنظر في امتياز نفطي، ولا أظنك تود أن تسمع عن كل تلك القصة، فقد خدعوني وزملائي. وكان السيد راتشيت في نفس الفندق وكان قد تشاجر مع سكرتيره فعرض عليّ العمل معه وقبلت، وقد سرني أن وجدت عملاً جاهزاً براتب جيد.

- وماذا فعلت منذ ذلك الوقت؟

- سافرنا كثيراً؛ فقد أراد السيد راتشيت أن يرى العالم، وكان يعيقه عدم معرفته باللغات الأخرى. لقد عملت معه دليلاً سياحياً أكثر من عملي سكرتيراً، وكانت تلك حياة سارة.

- والآن أخبرني كل ما تستطيعه عن مُستخدِمك.

رفع الشاب كتفيه، وارتسمت على وجهه ملامح الحيرة، ثم قال: هذا ليس سهلاً.

- ما اسمه الكامل؟

- صاموئيل إدوارد راتشيت.

- أكان مواطناً أميركياً؟

- نعم.

- من أي جزء من أميركا؟

- لا أعلم.

- حسناً، أخبرني بما تعرفه.

- الحقيقة هي أنني لا أعلم شيئاً أبداً يا سيد بوارو! فالسيد راتشيت لم يتحدث عن نفسه أبداً، أو عن حياته في أميركا.

- ولِمَ لَمْ يفعل ذلك برأيك؟

- لا أعلم. خُيّل إليّ أنه ربما كان خَجِلاً من بداية حياته، فبعض الناس يشعرون بذلك.

- وهل هذا احتمال معقول برأيك؟

- بصراحة، لا.

- هل له أقارب؟

- لم يذكر أيّ أقارب له.

بقي بوارو مركزاً على هذه النقطة: لا بد وأن لديك رأياً ما يا سيد ماكوين.

- نعم، لديّ رأي، فمثلاً لا أحسب أن راتشيت هو اسمه الحقيقي، وأظنه ترك أميركا هارباً من شخص ما أو شيء ما، وأظن أنه نجح في ذلك... حتى عدة أسابيع ماضية.

- وبعد ذلك؟

- بدأ يستلم رسائل... رسائل تهديد.

- هل رأيتها؟

- نعم؛ فمن طبيعة عملي أن أتابع مراسلاته، وقد وصلت أول رسالة قبل أسبوعين.

- وهل تم تمزيق هذه الرسائل؟

- لا أظن. أنا ما أزال أحتفظ باثنتين في سجلاتي، وقد مزق راتشيت واحدة في ثورة غضب. أتريدني أن أحضر لك الرسالتين؟

- لو سمحت.

غادر ماكوين المقصورة وعاد بعد عدة دقائق ووضع ورقتين متسختين أمام بوارو.

كان نص الرسالة الأولى كالتالي:

اعتقدتَ أنك تستطيع أن تخدعنا وتنجو بعملك،

أليس كذلك؟ لقد خاب ظنك. لقد خرجنا للإيقاع بك يا راتشيت، وسوف نوقع بك.

لم يكن هناك أي توقيع، ولم يُبدِ بوارو أي تعليق سوى أنه رفع حاجبيه ثم تناول الرسالة الثانية:

سوف نأخذك في نزهة يا راتشيت. في وقت قريب، وسوف نصطادك، أتفهم؟

وضع بوارو الرسالة جانباً وقال: إن الأسلوب مكرور، على عكس الخط.

حدّق به ماكوين، فقال بوارو بابتهاج: لن تستطيع ملاحظة ذلك؛ فهذا الأمر يحتاج إلى عينٍ اعتادت هذه المسائل. إن هذه الرسالة لم تُكتب من قِبَل شخص واحد يا سيد ماكوين، بل لقد قام شخصان أو أكثر بكتابتها بحيث يكتب كل واحد منهم حرفاً واحداً من كل كلمة وبالتناوب، وعلاوة على ذلك فإن الحروف مكتوبة بشكل منفصل، مما يجعل مهمة التعرف على الخط صعبة للغاية.

توقف قليلاً ثم قال: هل تعلم أن السيد راتشيت لجأ إليّ طلباً للمساعدة؟

- إليك أنت؟

تأكد بوارو، من نبرة صوت ماكوين المستغربة، من أنه لم يكن يعلم بذلك، ثم أومأ برأسه وقال: نعم؛ لقد كان خائفاً. قل لي: ماذا كان رد فعله عندما استلم الرسالة الأولى؟

- من الصعب قول ذلك. لقد... لقد تجاهل الأمر ضاحكاً بهدوئه المعهود. ولكن لأمر ما...

ارتعش قليلاً ثم أضاف: شعرت بأن تحت ذلك الهدوء الكثير من الأشياء.

أومأ بوارو برأسه ثم سأل سؤالاً غير متوقع: سيد ماكوين، هلاّ أخبرتني -بكل صراحة- ماذا كان شعورك بالضبط تجاه مستخدمك؟ هل أحببته؟

صمت هيكتور ماكوين لدقيقة أو اثنتين ثم قال أخيراً: لا، لم أحبه.

- لماذا؟

- لا أستطيع الجزم بالضبط.

صمت قليلاً ثم قال: سأخبرك الحقيقة يا سيد بوارو. لقد كنتُ أكرهه ولا أثق به، وأنا واثق من أنه كان رجلاً قاسياً وخطيراً، ولكن عليّ أن أعترف بأني لا أملك تعليلاً لرأيي هذا.

- شكراً لك يا سيد ماكوين. سؤال آخر: متى رأيت السيد راتشيت حياً آخر مرة؟

- ليلة أمس في نحو...

فكر قليلاً ثم قال: أستطيع أن أقول في الساعة العاشرة، حيث ذهبت إلى مقصورته لتدوين بعض الملاحظات له.

- عن أي موضوع؟

- عن بعض البلاط والفخاريات الأثرية التي اشتراها من بلاد فارس، فالبضاعة التي وصلت لم تكن هي التي اشتراها، وقد جرت مراسلات طويلة وساخنة حول الموضوع.

- وهل هذا هو آخر وقت شوهد فيه السيد راتشيت على قيد الحياة؟

- نعم، أفترض ذلك.

- هل تعلم متى استلم السيد راتشيت آخر رسالة تهديد؟

- في صباح اليوم الذي غادرنا فيه إسطنبول.

- لديّ سؤال آخر أريد طرحه عليك يا سيد ماكوين: هل كنت على علاقة جيدة مع مستخدِمك؟

فجأة لمعت عينا الشاب وقال: هذا هو السؤال الذي يُفترض أن ترتعد له فرائصي. ولكن كما تقول الروايات البوليسية الناجحة: "ليس عندك ما يدينني". لقد كنت أنا وراتشيت على علاقة طيبة جداً.

- أرجو -يا سيد ماكوين- أن تكتب اسمك كاملاً وعنوانك في أميركا.

كتب ماكوين اسمه وعنوانه في نيويورك، فاتكأ بوارو إلى الخلف وقال: هذا كل ما لدينا الآن يا سيد ماكوين، وأرجو أن تحتفظ بخبر موت السيد راتشيت لنفسك في الوقت الحاضر.

- ولكن لا بد من أن يعرف خادمه ماسترمان.

قال بوارو بجفاء: لعله على علم الآن. وإذا كان الأمر كذلك فلا تَدَعْهُ يتكلم.

- لن يكون ذلك صعباً؛ فهو بريطاني ويعرف كيف يمسك لسانه كما يقول. إن احترامه للأميركان قليلاً وليس لديه احترام لأية جنسية أخرى.

- شكراً لك يا سيد ماكوين.

غادر الأميركي المقصورة، وقال السيد بوك: حسناً، ماذا؟ هل تصدق ما يقوله هذا الشاب؟

- يبدو صادقاً وصريحاً؛ إذ لم يتظاهر بأية مودة تجاه مستخدمه كما كان من شأنه أن يفعل لو كان متورطاً في هذا الأمر. ويبدو أن السيد راتشيت لم يخبره فعلاً بأنه حاول أن يوظف خدماتي وفشل في ذلك! ولكن لا أظن أن هذا الأمر يحيطه بالشكوك، وأظن أن السيد راتشيت كان رجلاً يحتفظ بأموره الخاصة لنفسه كلما أمكن ذلك.

قال السيد بوك بسرور: إذن فأنت تعلن براءة شخص واحد على الأقل من الجريمة؟

نظر إليه بوارو نظرة تأنيب وقال: "أنا أشك في كل شخص حتى اللحظة الأخيرة". ثم أضاف: ولكني -مع ذلك- أعترف بأنني لا أستطيع أن أتخيل ماكوين الواعي والذكي فاقداً عقله يطعن ضحيته اثنتي عشرة أو أربع عشرة مرة؛ فهذا لا يناسب نفسيته أبداً.

قال السيد بوك مفكراً: نعم؛ لقد كان ذلك عملَ رجل دُفع إلى درجة الجنون نتيجة حقد أعمى، وهذا يعكس مزاجاً أقرب للمزاج اللاتيني، أو أنه يوحي بأن القاتل امرأة، كما يشير صاحبنا مسؤول القطار.

* * *

الفصل السابع
الجثّة

شق بوارو طريقه إلى العربة التالية يتبعه الدكتور كونستانتين، ثم إلى المقصورة التي كان يشغلها الرجل المقتول، وجاء مسؤول التذاكر وفتح لهما الباب بمفتاحه.

دخل الرجلان والتفت بوارو نحو صديقه مستفسراً: هل تمّ تغيير شيء في هذه المقصورة؟

- لم يُلمَس شيء، وقد كنت حريصاً على ألاّ أحرك الجثة أثناء فحصي.

هز بوارو رأسه ونظر حوله. كان أول شيء يُحس به المرء هو البرد القارس، فقد كانت النافذة مفتوحة إلى آخرها والستائر مسحوبة. ارتجف بوارو من البرد، فابتسم الآخر متفهماً وقال: لم أشأ أن أغلقها.

تفحص بوارو النافذة بحرص ثم قال: أنت على حق. لم يغادر أحدٌ العربة من هذا الطريق. ربما أُريد من فتح النافذة أن يعتقد المرء

ذلك، ولكن، إن كان هذا صحيحاً، فقد أخفق القاتل في هدفه هذا بسبب الثلوج.

فحص إطار النافذة بحرص ثم أخرج علبة صغيرة من جيبه ونفخ بعض المسحوق عليها ثم قال: لا توجد بصمات أبداً، مما يعني أنها قد مُسحت. وحتى لو وُجدت بصمات فلن تخبرنا إلاّ بالقليل، فهي إما أن تكون بصمات السيد راتشيت أو خادمه أو مسؤول التذاكر، فالمجرمون لا يرتكبون مثل هذه الأخطاء في أيامنا هذه.

ثم أضاف مسروراً: وبما أن الأمر كذلك فمن الأفضل أن نغلق النافذة. إنه مخزن بارد هنا بالفعل.

ثم قام بإغلاق النافذة فعلاً وحوّل انتباهه، وللمرة الأولى، نحو الجسد الذي لا يتحرك على السرير.

كان راتشيت ممدداً على ظهره وعلى سترة نومه بقع حمراء، وكانت الأزرار مفككة وقد تكشفت السترة عن صدره.

أوضح له الطبيب قائلاً: كان عليّ أن أرى طبيعة الجراح كما تعلم.

أومأ بوارو برأسه موافقاً ومال فوق الجثة، ثم انتصب واقفاً وهو يعبس قليلاً وقال: ليس بالمنظر الجميل. لا بد وأن أحدهم وقف هنا وطعنه مرة بعد أخرى. كم عدد الجراح بالضبط؟

- اعتبرتها اثني عشر جرحاً، بالإضافة إلى جرح أو اثنين طفيفين لدرجة يمكن معها اعتبارهما خدشين بسيطين. وبالمقابل توجد ثلاثة جراح على الأقل يمكن لأي واحد منها أن يسبب الموت.

شيء ما في نبرة الطبيب لفت انتباه بوارو فنظر نحوه بحدة. كان اليوناني الضئيل واقفاً محدقاً إلى الأسفل نحو الجثة وقد بدت على وجهه نظرة حيرة، فسأله بوارو برقّة: شيءٌ ما يبدو لك غريباً، أليس كذلك؟ تكلم يا صديقي، أيوجد شيء يحيرك؟

اعترف الآخر قائلاً: أنت على حق.

- ما الأمر؟

أوضح قائلاً وهو يشير بيده: أترى هذين الجرحين، هذا وهذا؟ إنهما عميقان، ولا بد من أن كل واحد منهما قد قطع بعض الشرايين، ولكن -على الرغم من ذلك- فإنهما غير مفتوحين ولم ينزفا كما يتوقع المرء لهما.

- وعلى ماذا يدل هذا؟

- يدل على أن الرجل كان قد مات قبل مدة من توجيه هاتين الطعنتين إليه، ولكن هذا يبدو شاذاً جداً.

قال بوارو مفكراً: نعم، يبدو الأمر كذلك. إلاّ إذا فكر القاتل أنه لم ينجز مهمته على الوجه الأكمل فعاد ليتأكد من الأمر. ولكن هذا يبدو غير معقول أبداً. هل من شيء آخر؟

- أمر واحد.

- وهو؟

- أترى هذا الجرح هنا أسفل الذراع الأيمن قرب الكتف؟ خذ قلمي هذا. هل تستطيع أن توجه مثل هذه الطعنة؟

رفع بوارو يده وقال: لقد فهمت؛ إنها ضربة صعبة جداً باليد اليمنى وتكاد تكون مستحيلة، على المرء أن يضرب ويده ملوية للخلف. أما إذا وُجّهت الضربة باليد اليسرى...

- تماماً يا سيد بوارو. من المؤكد تقريباً أن هذه الضربة أنجزت باليد اليسرى.

- قاتلنا أعسر إذن؟ إلا أن الأمر أعقد من هذا، أليس كذلك؟

- كما قلت يا سيد بوارو: إن بعض الضربات الأخرى كانت يمينية بكل وضوح.

تمتم بوارو: "شخصان؟ لقد عدنا إلى نظرية الشخصين من جديد!". ثم سأل فجأة: هل كان النور مُضاءً؟

- يصعب الجزم بذلك؛ فمسؤول التذاكر يطفئ الأنوار عادة في العاشرة من كل صباح.

قال بوارو: ستخبرنا مفاتيح الإضاءة عن ذلك.

فحص مفتاح الضوء العلوي ومفتاح ضوء السرير فكانا مغلقين. قال مفكراً: لدينا هنا فرضية القاتل الأول والقاتل الثاني كما كان من شأن شكسبير العظيم أن يسميها. طعن القاتل الأول ضحيته وأطفأ النور وغادر المقصورة، ثم أتى القاتل الثاني في الظلام ولم يعلم (أو تعلم...) أن العمل قد أنجِز، فطَعَنَ على الأقل مرتين في جثة ميتة. هل يفسر هذا الأمر؟

قال الطبيب بشيء من الحماسة: عظيم.

لمعت عينا بوارو وقال: أتظن ذلك؟ أنا سعيد بهذا، ولكن يبدو لي أن هذا التحليل هراء.

- وهل يوجد تحليل آخر؟

- هذا ما أسأل عنه نفسي، هل لدينا هنا صدفة أم ماذا؟ وهل سنجد المزيد من المتناقضات التي تشير إلى تورط شخصين في الموضوع؟

- أظنني أستطيع الجواب بالإيجاب؛ فكما قلت لتوي: إن بعض هذه الضربات تشير إلى ضعف... إلى نقص إمّا في القوة أو في العزيمة، لقد كانت ضربات ضعيفة جداً. أما هذه هنا، وهذه أيضاً، فإن قوة كبيرة كانت وراءها، إذ أنها اخترقت العضلات.

- إذن هي ضربات رجل برأيك؟

- بالتأكيد.

- ألا يمكن أن تكون امرأة فعلت ذلك؟

- ربما، إذا كانت شابة رياضية قوية، وخاصة إذا كانت تحت تأثير فورة عاطفية جامحة. ولكن هذا في رأيي بعيد الاحتمال.

صمت بوارو لفترة، ثم قال الطبيب بقلق: هل تفهم قصدي؟

- تماماً، فالمسألة بدأت بإيضاح نفسها بشكل رائع! كان القاتل رجلاً يمتلك قوة كبيرة... وكان ضعيفاً... وكانت امرأة...

وكان شخصاً يستعمل يده اليمنى... وكان شخصاً أعسر...

ثم قال بغضب مفاجئ: والضحية... ماذا يفعل أثناء ذلك؟ هل يصرخ؟ هل يقاوم؟ هل يدافع عن نفسه؟

مدّ يده أسفل الوسادة وسحب المسدس الذي أراه إياه راتشيت في اليوم الماضي، ثم قال: أترى؟ إنه مليء تماماً بالرصاص.

نظرا حولهما. كانت ملابس راتشيت النهارية معلقة على الحائط، وعلى غطاء المغسلة (والذي يؤدي دور طاولة صغيرة) كانت عدة أشياء: طقم أسنان في كأس ماء، وكأس أخرى فارغة، وزجاجة مياه معدنية، ومنفضة تدخين تحتوي على عقب سيغار ورماد ورقة محترقة وعودَي ثقاب محترقين.

تناول الطبيب الكأس الفارغة وشمّها ثم قال بهدوء: هذا هو التفسير وراء كسل الضحية.

- هل خُدِّر؟

- نعم.

هز بوارو رأسه وتناول عودَي الثقاب وتمعن بهما بدقة، فقال الطبيب بشغف: ألديك دليل إذن؟

قال بوارو: هذان العودان ليسا من شكل واحد؛ أحدهما أرقُّ من الآخر. أترى؟

- إنه من النوع الذي يمكن الحصول عليه على القطار، ذو غطاء كرتوني.

بدأ بوارو يفتش جيوب ملابس راتشيت ثم أخرج من إحداها علبة ثقاب وقارن الاثنين بدقة ثم قال: العود الأغلظ استعمله راتشيت. دعنا نظر إن كان لديه ثقاب من النوعية الرقيقة أيضاً.

إلاّ أن المزيد من البحث لم يُسفر عن العثور على ذلك النوع.

كانت عينا بوارو تجولان عبر المقصورة، وكانتا لامعتين وحادتين كعيني طائر، ويشعر المرء أنه لا شيء سيفوت فحصهما. ثم انحنى وقد صدر عنه صوت ينم عن الدهشة والتقط شيئاً عن الأرض. كان منديلاً صغيراً مربعاً جميلاً.

قال الطبيب: لقد كان صديقنا مسؤول القطار على حق إذن، فامرأة على علاقة بهذا الأمر.

أجابه بوارو: وهي تترك منديلها خلفها بكل هذه البساطة؟ تماماً كما يحدث في الكتب والأفلام! وحتى تجعل الأمور أسهل علينا فإن المنديل مُعلَّم بأول حرف من اسم صاحبه.

قال الطبيب: يا لها من ضربة حظ لنا!

– أليس كذلك؟

شيء ما في نبرة بوارو أدهش الطبيب، ولكن قبل أن يطلب توضيحاً انحنى بوارو مرة أخرى على الأرض، وفي هذه المرة وقف وهو يحمل في كفه منظف غليون.

سأله الطبيب: أيمكن أن يكون هذا للسيد راتشيت؟

– لم يكن في جيوبه أي غليون ولا تبغ ولا محفظة للتبغ.

– أهو دليل إذن؟

– آه، بالتأكيد! ومرة أخرى سقط سهواً لتسهيل الأمر علينا. ولكنه -في هذه المرة- دليل على رجل كما تلاحظ. وبهذا لا يستطيع المرء أن يشكو من قلة الأدلة في هذه القضية؛ فالدلائل هنا متوفرة بكثرة. بالمناسبة، ماذا فعلت بسلاح الجريمة؟

– لم أجد هنا أي إشارة تدل على السلاح. لا بد وأن القاتل قد أخذه معه.

تساءل بوارو متأملاً: أتعجّب لماذا.

مضى الطبيب يستكشف جيوب ملابس نوم القتيل بحذر، ثم قال: آه! لم أنتبه إلى هذا حين حللت أزرار السترة وكشفتها عن الصدر.

ومن الجيب العلوي عند الصدر أخرج ساعة ذهبية. كانت محطمة بعنف وعقاربها تشير إلى الواحدة والربع. وصاح كونستانتين بلهفة: أترى؟ إنها تدلنا على وقت حدوث الجريمة، وهو مطابق لحساباتي؛ فقد قلتُ إنها وقعت بين منتصف الليل والثانية صباحاً، وربما نحو الواحدة، إلاّ أنه من الصعب أن يكون المرء دقيقاً في هذه الأمور. هذا هو الإثبات... الواحدة والربع هي ساعة وقوع الجريمة.

– نعم، هذا محتمل... إنه محتمل بالتأكيد.

نظر إليه الطبيب باستغراب وقال: أرجو أن تعذرني يا سيد بوارو، ولكنني لا أفهمك تماماً.

- إنني لا أفهم نفسي. إنني لا أفهم شيئاً أبداً. وكما تلاحظ فإن هذا يقلقني.

تنهد ثم انحنى فوق الطاولة الصغيرة يتفقد أجزاء الورقة المحترقة، ثم تمتم لنفسه: ما أريده في هذه اللحظة هو صندوق قبعة نسائية من الطراز القديم.

احتار الدكتور كونستانتين كيف يفسر هذه الملاحظة، وعلى أية حال فإن بوارو لم يمهله حتى يسأل أسئلته إذ فتح باب الممر ونادى مسؤول التذاكر.

وصل الرجل راكضاً فسأله بوارو: كم عدد النساء في هذه العربة؟

بدأ المسؤول يعد على أصابعه: واحدة، اثنتان، ثلاث... ستٌّ يا سيدي. المرأة الأميركية والسيدة السويدية والشابة الإنكليزية والكونتيسة أندريني والأميرة دراغوميروف وخادمتها.

فكّر بوارو للحظة ثم قال: لديهن جميعاً صناديق قبعات، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- إذن أحضر لي... دعني أفكر... نعم، صندوق السيدة السويدية وصندوق الخادمة. هاتان هما أملنا الوحيد. أخبرهما أن

التعليمات الجمركية تتطلب ذلك، أو أي شيء يخطر ببالك.

- لا بأس يا سيدي؛ فهما ليستا في مقصورتيهما الآن.

- أسرع إذن.

غادر مسؤول التذاكر، ثم عاد ومعه الصندوقان. فتح بوارو صندوق الخادمة ثم رماه جانباً، ثم فتح صندوق السيدة السويدية وتمتم عبارة تدل على الارتياح. أزاح القبعات بحرص وكشف عن هيكل قُبعة من الشبك المصنوع من الأسلاك.

- آه، هذا ما أريده! كانت صناديق القبعات تُصنع بهذا الشكل قبل خمس عشرة سنة، حيث تُخرَز القبعة وتثبت على قُبّة الأسلاك باستخدام مخرز القبعات.

وفيما كان يتحدث أزاح -بحرص- قبعتين مثبتتين في الصندوق، ثم أعاد ترتيب صندوق القبعات وطلب من مسؤول التذاكر أن يعيد الصندوقين إلى صاحبتيهما.

عندما أُغلق الباب التفت نحو رفيقه وقال: انظر إليّ يا عزيزي الطبيب، فإنني لست ممّن يعتمدون على إجراءات الخبراء في العادة. إن ما أبحث عنه هو الأمور النفسية، وليس البصمات وما يشبهها من أدلة مادية... أما في هذه القضية فإنني أرحب ببعض المعونة العلمية. إن هذه المقصورة مليئة بالأدلة، ولكن هل أستطيع أن أكون متأكداً من أنها أدلة حقيقية؟

- أنا لا أفهمك تماماً يا سيد بوارو.

– حسناً. سأعطيك مثالاً: لقد عثرنا على منديل نسائي، فهل سقط من امرأة؟ أم أن رجلاً ارتكب الجريمة وقال في نفسه: "سأجعل هذه تبدو وكأنها جريمة قامت بها امرأة، سأطعن ضحيتي عدداً غير ضروري من المرات وأجعل بعض الضربات واهنة وغير مؤثرة، وسأسقط هذا المنديل بحيث لا يستطيع أي إنسان إلاّ أن يراه"؟ هذا احتمال، ولكن يوجد احتمال آخر: هل قتلته امرأة وأسقطت عود تنظيف الغليون عامدة لتظهر الجريمة على أنها جريمة قام بها رجل؟ أم هل نستطيع أن نفترض -بكل جدية- أن شخصين... رجلاً وامرأة... متورطان في هذا الأمر، كلاً على حدة، وأن كل واحد منهما كان قليل الحرص لدرجة أنه أسقط دليلاً يدل على هويته؟ إن هذا أكثر من أن يكون مجرد صدفة!

سأل الطبيب متحيراً: ولكن ما علاقة صناديق القبعات بالأمر؟

– آه، سأصل إلى هذه النقطة. ولكن كما كنت أقول، هذه دلائل: الساعة التي توقفت في الواحدة والربع، والمنديل، ومنظف الغليون... قد تكون جميعاً أدلة حقيقية أو قد تكون مُختلَقة، ولا أستطيع أن أجزم الآن. إلاّ أنني أرى دليلاً واحداً أعتقد أنه ليس مختلَقاً (ومرة أخرى، قد أكون مخطئاً) وأعني بذلك عود الثقاب المسطح هذا يا سيدي الطبيب. أظن أن هذا الثقاب **لم يستعمله السيد راتشيت، بل القاتل هو الذي استعمله** لإحراق ورقةٍ قد تُدينه، وربما كانت ملاحظةً من نوع ما. فإن كان الأمر كذلك فقد كان في تلك الملاحظة شيءٌ ما... خطأٌ ما قد يعطي دليلاً ضد القاتل. وسأحاول أن أجد ما هو ذلك الشيء.

خرج من المقصورة ثم عاد بعد عدة دقائق وهو يحمل سخّاناً صغيراً يعمل بالكحول وملقطاً معقوفاً. قال متحدثاً عن الملقط: إنني أستعمله لشاربيّ.

راقبه الطبيب باهتمام شديد وهو يبسط قُبّتي السلك الشبكي. ثم، وبعناية فائقة، وضع قطعة الورقة المحترقة على إحداهما ووضع الأخرى فوقهما وأمسك الاثنتين معاً بالملقط ووضع المجموعة فوق نار السخان.

قال وهو يلتفت إلى صاحبه: إنها عملية بديلة مؤقتة، ولنأمل أنها ستَفي بالغرض.

راقب الطبيب سير العملية بانتباه. وقد بدأ المعدن يتوهج، وفجأة رأى حروفاً باهتة ثم بدأت الكلمات تتشكل ببطء... كلمات من نار. كان ذلك جزءاً صغيراً من ورقة محترقة ولم تظهر سوى ثلاث كلمات وجزء من كلمة أخرى: **"...ـذكّرْ ديزي آرمسترونغ الصغيرة"**.

صاح بوارو بحدة: آه!

سأل الطبيب: هل تخبرك بشيء؟

وضع بوارو الملقط جانباً بحذر وعيناه تلمعان، ثم قال: نعم. **إنني أعرف الاسم الحقيقي للرجل الميت، وأعرف لماذا اضطر إلى مغادرة أميركا.**

– وماذا كان اسمه؟

- كاسيتي.

قطب كونستانتين حاجبيه وقال: كاسيتي؟ إن هذا يذكرني بشيء حدث قبل عدة سنوات. لا أذكر... كانت قضية في أميركا، أليس كذلك؟

- بلى؛ قضية في أميركا.

ما عدا ذلك لم يكن بوارو مستعداً للخوض في الكلام. نظر حوله وهو يتابع كلامه: سنتحدث في ذلك لاحقاً. دعنا نتأكد أولاً من أننا رأينا كل ما يجب علينا أن نراه.

فتش جيوب ملابس الرجل الميت مرة أخرى بسرعة ورشاقة ولكنه لم يجد شيئاً ذا أهمية، وحاول فتح الباب الذي يصل إلى المقصورة التالية إلاّ أنه كان مقفلاً من الجهة المقابلة.

قال الدكتور كونستانتين: هنا شيء لا أفهمه. إذا لم يهرب القاتل من خلال النافذة، وإذا كان هذا الباب بين المقصورتين مقفلاً من الجهة الأخرى، وإذا كان باب الممر مقفلاً من الداخل (ليس هذا فحسب، بل ومغلقاً بالسلسلة)، فكيف غادر القاتل المقصورة إذن؟

- هذا ما يقوله جمهور المشاهدين عندما توثق يدا ورجلا رَجُل ويوضع في خزانة... ثم يختفي!

- أتعني...؟

أوضح بوارو قائلاً: أعني أنه إذا أراد لنا القاتل أن نعتقد أنه

قد هرب عن طريق النافذة فمن الطبيعي أن يجعل شكل الخروج من المخرجين الآخرين مستحيلاً. إنها خدعة، وعملنا هو أن نعرف كيف قام بهذه الخدعة.

أقفل الباب الذي يصل بين المقصورتين من جهته ثم قال: كيلا تفكر السيدة هوبارد الممتازة بالحصول على تفصيلات مباشرة عن الجريمة وتكتب لابنتها عنها.

نظر حوله مرة أخرى ثم قال: لا أحسب أن لدينا شيئاً آخر نفعله هنا. دعنا ننضم إلى السيد بوك.

* * *

الفصل الثامن

قضية اختطاف آرمسترونغ

وجدا السيد بوك ينهي طبقاً من البيض فبادرهما قائلاً: وجدت من الأفضل أن نقدّم الغداء فوراً في عربة المطعم، ثم نخليها بعد ذلك حتى يتسنى للسيد بوارو أن يُجري مقابلاته مع الركاب هناك. وقد أمرتُ -في الوقت الحاضر- أن يجلبوا لنا نحن الثلاثة طعامنا هنا.

قال بوارو: فكرة ممتازة.

لم يكن الاثنان جائعين فانتهت الوجبة بسرعة، ولم يذكر السيد بوك الموضوع الذي يشغل بالهم جميعاً إلاّ عندما بدؤوا يحتسون القهوة، إذ سأل: حسناً، ماذا حصل؟

قال بوارو: لقد اكتشفت هوية الضحية، وأعلم لماذا كان يجب عليه أن يغادر أمريكا.

- من هو؟

- هل تذكر أنك قرأت شيئاً عن الطفلة آرمسترونغ؟ هذا هو الرجل الذي قتل الطفلة ديزي آرمسترونغ... إنه كاسيتّي.

- أتذكّر الآن. لقد صُدِم الجميع بالنبأ... ولكنني لا أتذكر التفصيلات.

- كان العقيد آرمسترونغ ضابطاً إنكليزياً ويحمل وسام صليب فكتوريا، وكانت أمه أميركية وهي ابنة فان ديرهالت، المليونير الشهير في شارع وول ستريت. وقد تزوج ابنة ليندا آردن، وهي أشهر ممثلة تراجيديا أميركية في وقتها، ثم عاشا في أميركا ورزقا ابنة وحيدة أحبّاها حباً عظيماً، ثم اختُطفت الطفلة عندما كان عمرها ثلاث سنوات وطُلبت فدية كبيرة جداً لقاء إعادتها. لن أشغلك بكل التعقيدات التي تبعت ذلك، بل سأذكر لك أنه بعد دفع مبلغ كبير (وهو مئتا ألف دولار) اكتُشفت جثة الطفلة المقتولة قبل أسبوعين من ذلك على الأقل. وقد استشاط الجمهور غضباً لذلك، إلاّ أن الأمور ازدادت سوءاً، فعندما سمعت الأم بالنبأ صُدمتْ ووضعت قبل أوانها طفلاً ميتاً، ثم ماتت هي الأخرى بعد ذلك، فأطلق الزوج المحزون النار على نفسه.

قال السيد بوك: يا لها من مأساة! إنني أتذكر الآن، وقد مات شخص آخر إذا لم تخنّي الذاكرة.

- نعم؛ مربية فرنسية أو سويسرية تعسة الحظ، إذ كان الشرطة مقتنعين بأنها كانت تعرف شيئاً عن الجريمة، وقد رفضوا تصديق إنكارها الهستيري. وأخيراً، وبينما كانت في حالة يأس، رمت المسكينة بنفسها من النافذة وماتت. ثم ثبت أخيراً أنها كانت بريئة

تماماً من أية علاقة بالجريمة.

قال السيد بوك: لا يُستحسن أن يفكر المرء في تلك القضية.

- بعد نحو ستة شهور أُلقي القبض على كاسيتي هذا على أنه زعيم العصابة التي اختطفت الطفلة. وكانوا قد استعملوا نفس الأسلوب في جرائم سابقة، حيث يقتلون رهينتهم إذا وجدوا أن الشرطة على وشك اقتفاء أثرهم ويخفون الجثة ويستمرون في المطالبة بأكبر فدية ممكنة قبل أن تُكْتَشَف الجريمة. والآن سأوضح لك شيئاً يا صديقي، لقد كان كاسيتي هو ذلك المجرم بالفعل، إلاّ أنه (وبسبب وفرة نقوده التي جمعها وبسبب تحكّمه الخفي في بعض ذوي السلطة) فقد أطلق سراحه استناداً إلى خطأ فني ما. ومع ذلك، كان من شأن الجمهور أن يشنقه لولا أنه كان من الذكاء بحيث اختفى عن الأنظار. لقد أصبح واضحاً لي الآن ما الذي حدث: لقد غير اسمه وغادر أميركا، ومنذ ذلك الوقت صار رجلاً مترفاً يتنقل في الخارج ويعيش على ما سبق له جمعه.

قال السيد بوك بنبرة تمتلئ اشمئزازاً صادقاً: آه، يا له من وحش! لا أستطيع التأسف لموته... أبداً.

- أتفق معك.

- ومع ذلك، لم يكن من الضروري أن يُقتل على متن قطار الشرق السريع، إذ توجد أماكن أخرى!

ابتسم بوارو قليلاً وقد أدرك أن السيد بوك متحيز في هذه القضية وقال: إن السؤال الذي يجب علينا أن نطرحه على أنفسنا هو:

هل هذه الجريمة هي من فعل عصابة أخرى معادية خدعها كاسيتي في الماضي، أم أنها انتقام شخصي؟

ثم شرح لصديقه اكتشافه للكلمات القليلة على قطعة الورق المحترقة وقال: إن كنت مُحقاً في افتراضاتي، فإن القاتل هو الذي أحرق تلك الورقة. لماذا؟ لأن بها ذكر كلمة آرمسترونغ، وهي دليل على هذه الجريمة الغامضة.

- أما يزال في عائلة آرمسترونغ من هو على قيد الحياة؟

- للأسف، لا أعرف ذلك، ولكن أظنني أذكر أنني قرأت مرة عن أخت صغرى للسيدة آرمسترونغ.

استمر بوارو يشرح له استنتاجاته المشتركة مع الطبيب كونستانتين، وقد سُرّ السيد بوك لذكر الساعة المحطمة وقال: يبدو أن هذا يعطينا وقت حدوث الجريمة بالضبط.

قال بوارو: نعم؛ إن هذا مريح للغاية.

كان في نبرته شيء جعل الآخرَيْن ينظران إليه بفضول. وسأله السيد بوك: ألم تقل إنك سمعت بنفسك راتشيت يتحدث إلى مسؤول التذاكر في الواحدة إلاّ عشرين دقيقة؟

قَصّ عليهما بوارو ما حدث وقتها، فقال السيد بوك: إذن فهذا يثبت على الأقل أن كاسيتي (أو راتشيت كما سأستمر في تسميته) قد كان حياً بالتأكيد في الواحدة إلاّ عشرين دقيقة.

- وحتى أكون دقيقاً: في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة.

- فإذا ما استعملنا الصيغة الرسمية إذن لقلنا إن السيد راتشيت كان حياً في الثانية عشرة وسبع وثلاثين دقيقة. لدينا حقيقة واحدة على الأقل.

لم يُجب بوارو بل جلس ينظر أمامه مفكراً. ثم طُرق الباب ودخل مسؤول المطعم قائلاً: عربة المطعم فارغة الآن يا سيدي.

قال السيد بوك وهو ينهض: سنذهب إلى هناك.

سأل كونستانتين: أيمكن أن أرافقكما؟

- بالتأكيد أيها الطبيب العزيز، إلاّ إذا كان لدى السيد بوارو أي اعتراض.

قال بوارو: أبداً، أبداً.

ثم غادروا المقصورة بعد تبادل عبارات السلوك المهذب في مسألة أسبقية الخروج منها.

* * *

الجزء الثاني

الدليل

الفصل الأول

إفادة مسؤول التذاكر

كان كل شيء جاهزاً في عربة المطعم.

جلس بوارو والسيد بوك على جانب واحد من إحدى الطاولات وجلس الطبيب على طاولة أخرى عبر الممر، وكان مخطط لعربة إسطنبول-كاليه على الطاولة أمام بوارو وقد كُتبت عليه أسماء المسافرين بالحبر الأحمر، وكانت جوازات السفر والتذاكر موضوعة في جانب وعلى الجانب الآخر ورق للكتابة وقلم وحبر وأقلام رصاص.

قال بوارو: ممتاز؛ نستطيع أن نفتتح محكمة تحقيقنا دون أي تأخير. أظن أن علينا -أولاً- أن نأخذ شهادة مسؤول التذاكر، ولعلك تعرف شيئاً عن الرجل، فما هي شخصيته؟ وهل هو من النوع الذي تثق بكلامه؟

أجاب بوك: أستطيع أن أقول: "نعم" بكل تأكيد. إن بيير ميشيل موظف لدى الشركة منذ خمس عشرة سنة، وهو فرنسي يعيش قرب

كاليه وهو صادق ومُحترَم جداً، على الرغم من أنه ليس مشهوراً بذكائه.

هز بوارو رأسه مستوعباً وقال: جيد، هل يمكن أن أراه.

كان بيير ميشيل قد استعاد بعضاً من رباطة جأشه إلاّ أنه كان ما يزال متوتراً. قال بقلق وعيناه تتنقلان بين بوارو والسيد بوك: أتمنّى ألاّ يعتقد سيدي أن أي تقصير قد وقع مني... إن ما حصل أمر فظيع بالفعل.

هدّأ بوارو من روع الرجل ثم بدأ أسئلته. في البداية سأله عن اسمه وعنوانه والمدة التي أمضاها في الخدمة والمدة التي أمضاها منذ بدأ عمله على هذا الخط بالذات. كان يعرف هذه المعلومات مسبقاً إلاّ أن الأسئلة الروتينية ساعدت على تهدئة الرجل، وبعد ذلك تابع بوارو حديثه قائلاً: والآن دعنا نبحث أحداث الليلة الماضية. متى ذهب السيد راتشيت إلى فراشه؟

- بعد العشاء مباشرة يا سيدي، قبل أن نغادر بلغراد. وقد فعل كما فعل في الليلة قبل الماضية حيث طلب إليّ أن أُعِدّ سريره بينما كان يتناول عشاءه، وقد فعلت ذلك.

- هل دخل أحد إلى مقصورته بعد ذلك؟

- خادمه يا سيدي، وسكرتيره الشاب الأمريكي.

- هل من أحد غيرهما؟

- لا يا سيدي، ليس على حد علمي.

- جيد، وهل هذا آخر ما رأيته وسمعت منه؟

- لا يا سيدي. لعلك نسيت أنه قرع جرسه في نحو الواحدة إلاّ عشرين دقيقة، بعد أن توقفنا بقليل.

- وماذا حدث بالضبط؟

- طرقتُ الباب، إلاّ أنه نادى من الداخل قائلاً إنه قد أخطأ في قرع الجرس.

- هل تحدث بالإنكليزية أم بالفرنسية؟

- بل بالفرنسية.

- ماذا كانت كلماته بالضبط؟

- قال بالفرنسية: "لا يوجد شيء؛ كان ذلك خطأ مني".

قال بوارو: صحيح تماماً؛ هذا ما سمعته أنا. ثم ذهبتَ بعد ذلك؟

- نعم يا سيدي.

- هل عدت إلى مقعدك؟

- لا يا سيدي، بل ذهبت لأرُدّ على جرس آخر كان قد قُرع لتوه.

- والآن يا ميشيل، أود أن أسألك سؤالاً مهماً: أين كنتَ في الواحدة والربع؟

- أنا يا سيدي؟ كنت في مقعدي الصغير في نهاية الممر.

- أأنت متأكد؟

- نعم، أو أنني على الأقل...

- نعم؟

- ذهبت إلى العربة التالية، عربة أثينا، لأتكلم مع زميلي هناك. تحدثنا عن الثلوج، وكان ذلك بعد الساعة الواحدة بقليل، لا أستطيع أن أحدِّد بالضبط.

- متى عدت؟

- قُرع جرس في عربتي يا سيدي، وأذكر أنني أخبرتك. كانت السيدة الأميركية، وقد قرعت الجرس عدة مرات.

قال بوارو: أذكر هذا. وبعد ذلك؟

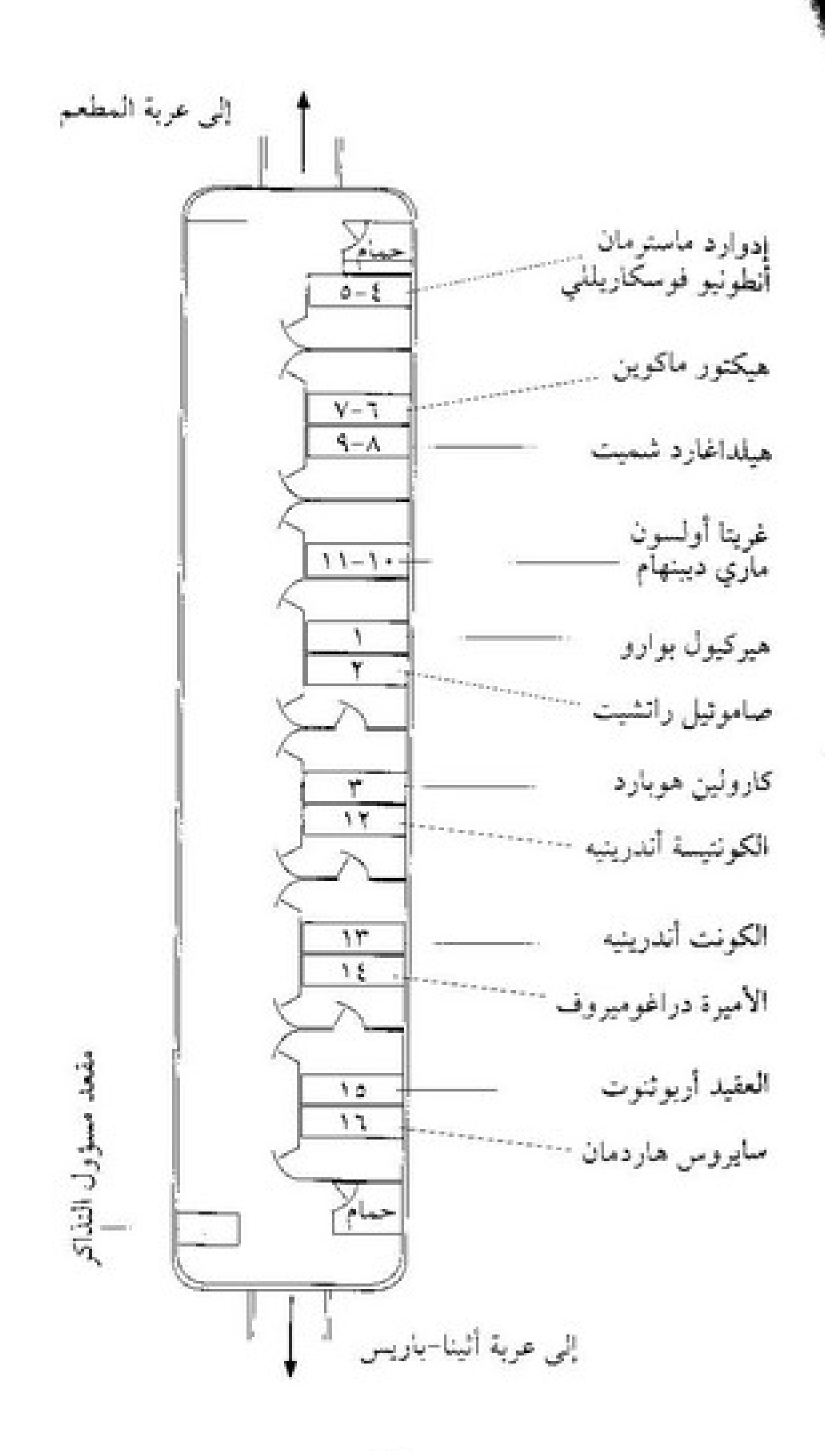
- بعد ذلك يا سيدي؟ أجبت على جرسك وأحضرت لك بعض المياه المعدنية، ثم بعد نحو نصف ساعة أعددت سرير إحدى المقصورات؛ مقصورة الشاب الأميركي، سكرتير السيد راتشيت.

- هل كان السيد ماكوين وحده في مقصورته عندما ذهبت لإعداد سريره؟

- كان معه العقيد الإنكليزي من المقصورة ١٥، وكانا يتحادثان.

- ماذا فعل العقيد عندما ترك السيد ماكوين؟

- عاد إلى مقصورته.



- رقم ١٥. إنها قريبة جداً من مقعدك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ إنها المقصورة الثانية من ذلك الطرف من الممر.

- هل كان سريره معَدّاً؟

- نعم يا سيدي؛ كنتُ قد أعددته وهو يتناول عشاءه.

- متى حدث كل ذلك؟

- لا أستطيع أن أخبرك بالضبط يا سيدي، ولكن ليس بعد الثانية بكل تأكيد.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك يا سيدي جلست في مقعدي حتى الصباح.

- هل ذهبت إلى عربة أثينا مرة أخرى؟

- لا يا سيدي.

- ربما غفوت؟

- لا أظن ذلك يا سيدي؛ فكون القطار واقفاً منعني من الإغفاء كما يحصل معي عادة.

- هل رأيت أياً من الركاب يتحرك عبر الممر؟

فكر الرجل قليلاً ثم قال: أظن أن إحدى السيدات قد ذهبت إلى الحمام في الجانب الأبعد من الممر.

- أي سيدة؟

- لا أعلم يا سيدي. كانت في نهاية الممر وكان ظهرها لي، وكانت تلبس عباءة قرمزية وعليها رسوم التنين.

أومأ بوارو برأسه وقال: وبعد ذلك؟

- لم يحدث شيء حتى الصباح يا سيدي.

- أأنت متأكد؟

- آه، عفواً يا سيدي. فتحتَ أنت باب مقصورتك ونظرت خارجاً لبضع ثوان.

قال بوارو: جيد يا صديقي. كنتُ أتساءل إن كنت ستتذكر ذلك. بالمناسبة، لقد استيقظتُ على صوتٍ وكأن شيئاً ثقيلاً وقع على باب غرفتي. هل لديك أي فكرة ماذا يمكن أن يكون السبب؟

حدّق الرجل إليه وقال: لم يكن شيء من ذلك يا سيدي، لا شيء. أنا متأكد من ذلك.

قال بوارو متفلسفاً: إذن أظنني قد توهمت.

قال السيد بوك: إلاّ إذا كان ما سمعتَه آتياً من المقصورة التي بجانبك.

لم يُعِر بوارو أي اهتمام لهذا الاقتراح، ولعله لم يرغب في فعل ذلك بحضور مسؤول التذاكر. قال: دعنا نتحول إلى نقطة أخرى. لنفترض أن قاتلاً صعد على القطار ليلة أمس، فهل من المؤكد أنه لم يكن قادراً على أن يغادر بعد ارتكابه الجريمة؟

هز بيير ميشيل رأسه مؤكداً، فسأله بوارو مرة أخرى: ألا يمكن

أن يكون مختبئاً في مكان ما في القطار؟

قال السيد بوك: لقد فُتش القطار جيداً، فاستبعد هذه الفكرة يا صديقي.

قال ميشيل: وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن لأحد أن يصل إلى عربة النوم دون أن أراه.

- متى توقفنا آخر مرة؟

- في فينكوفشي.

- متى كان ذلك؟

- كان يجب أن نغادرها في الحادية عشرة وثمان وخمسين دقيقة، لكننا تأخرنا عشرين دقيقة بسبب الطقس.

- ألا يمكن لأحد أن يأتي من عربات القطار العادية إلى عربة النوم؟

- لا يمكن هذا يا سيدي؛ فبعد تقديم العشاء يُقفَل الباب بين العربات العادية وعربة النوم.

- هل نزلت أنت من القطار في فينكوفشي؟

- نعم؛ نزلتُ على الرصيف كالعادة ووقفت قرب الدرجات المؤدية إلى العربة، وفعل مسؤولو التذاكر الآخرون الشيء ذاته.

- وماذا عن الباب الأمامي؛ الباب القريب من عربة المطعم؟

- يكون مقفلاً من الداخل دائماً.

- إنه ليس مقفلاً الآن.

بدت المفاجأة على الرجل، ثم انفرد وجهه وقال: لا بد من أن أحد الركاب فتحه للنظر إلى الثلوج.

قال بوارو: "ربما". ثم نقر بأصابعه على الطاولة مفكراً لدقيقة أو اثنتين، فقال الرجل خائفاً: آمل ألا يلومني سيدي؟

ابتسم له بوارو بلطف وقال: إنني أمنحك الفرصة يا صديقي. آه! سأسألك عن نقطة أخرى قبل أن أنساها، لقد قلتَ إن جرساً آخر قد قُرع وأنت تطرق باب السيد راتشيت، وفي الواقع أنا سمعت الجرس بنفسي. جرس مَنْ كان ذلك؟

- لقد كان جرس الأميرة دراغوميروف، وقد طلبت مني أن أنادي خادمتها.

- وفعلتَ ذلك؟

- نعم يا سيدي.

تمعن بوارو في المخطط الذي أمامه مفكراً، ثم ردّ رأسه إلى الخلف قائلاً: هذا كل ما لديّ في الوقت الحاضر.

- شكراً لك يا سيدي.

نهض الرجل ونظر نحو السيد بوك الذي قال بلطف: لا تزعج نفسك؛ إنني لا أرى أي تقصير منك.

غادر بيير ميشيل العربة مسروراً.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

إفادة السكرتير

غرق بوارو في أفكاره لدقيقة أو اثنتين، وأخيراً قال: أظن أن من الأفضل أن نتكلم مرة أخرى مع السيد ماكوين على ضوء ما نعرفه الآن.

ظهر الأميركي في الحال وقال: حسناً، كيف تسير الأمور؟

- لا بأس، فقد علمت بعد محادثتنا الأولى شيئاً... هوية السيد راتشيت.

مال هيكتور ماكوين إلى الأمام باهتمام وقال: نعم؟

- كما توقعت فإن اسمَ راتشيت مستعار. إن راتشيت هو كاسيتي، الرجل الذي قام بعمليات الاختطاف المشهورة، ومن ضمنها قضية اختطاف الطفلة ديزي آرمسترونغ.

بدا على وجه ماكوين تعبير اندهاش شديد، ثم تلونّ وجهه وعلّق قائلاً: المقرف التعِس!

- ألم تعرف هذا يا سيد ماكوين؟

قال الأميركي الشاب بتأكيد واضح: أبداً يا سيدي، ولو كنت أعلم ذلك لكنت قطعت يدي اليمنى قبل أن أكتب له حرفاً!

- إن شعورك قوي تجاه هذا الأمر يا سيد ماكوين.

- لديّ سبب لأن أكون كذلك؛ فقد كان والدي هو المدعي العام الذي تولى تلك القضية يا سيد بوارو، ولقد رأيت السيدة آرمسترونغ غير مرة، وقد كانت امرأة جميلة ولطيفة وذات قلب مُحطَّم.

تجهم وجهه ثم أضاف: إن كان أي رجل يستحق ما حصل له فإن راتشيت أو كاسيتي هو ذلك الرجل. إنني سعيد لنهايته؛ فمثل ذلك الرجل لم يكن أهلاً لأن يعيش!

- تكاد تشعر وكأنك كنتَ مستعداً للقيام بذلك العمل بنفسك، أليس كذلك؟

- بلى، إنني...

توقف وقد تورّد خداه بشيء من الشعور بالذنب، ثم قال: يبدو وكأنني أضع نفسي في موضع الاتهام.

- كان من شأني أن أميل للشك بك أكثر -يا سيد ماكوين- لو أنك أبديت حزناً مبالغاً به تجاه وفاة مستخدمِك.

قال ماكوين متجهماً: "لا أحسبني أقدر على ذلك، ولا حتى

لأنقذ نفسي من الكرسي الكهربائي". ثم أضاف: إن لم يكن ذلك فضولاً شديداً مني، كيف اكتشفت ذلك؟ أعني هوية كاسيتي؟

- بواسطة جزء من رسالة وجدتها في مقصورته.

- ولكن... ألم يكن ذلك إهمالاً من العجوز؟

قال بوارو: هذا يعتمد على وجهة النظر.

بدا هذا الجواب محيراً للشاب فحدق إلى بوارو محاولاً أن يفهم ما قاله. قال بوارو: إن مهمتي هي أن أتأكد من تحركات كل شخص على القطار، ولا داعي لأن يشعر أحد بأنه مستهدف، أتفهم ذلك؟ إنه أمر روتيني فقط.

- بالتأكيد. قُم أنت بعملك ودعني أُظهر براءتي إن استطعت.

قال بوارو مبتسماً: لا داعي لأن أسألك عن رقم مقصورتك؛ فقد شاركتك فيها لليلة. إنها المقصورة الثانية، ذات السريرين ٦ و٧. هل أصبحت لك وحدك بعد مغادرتي؟

- هذا صحيح.

- والآن يا سيد ماكوين، أريد أن تصف لي تحركاتك ليلة أمس منذ غادرت عربة المطعم.

- هذا سهل. عدت إلى مقصورتي حيث قرأت لبعض الوقت، ثم خرجت إلى رصيف المحطة في بلغراد، إلاّ أنني وجدت أن الجو بارد جداً فعدت إلى القطار. تحدثت لبعض الوقت مع شابة إنكليزية تشغل المقصورة التي بجانبي، ثم تحدثت مع ذلك الإنكليزي،

العقيد آربوثنوت. في الواقع أظن أنك مررت بنا ونحن نتحدث، ثم ذهبت إلى السيد راتشيت -كما أخبرتك- وأخذت بعض الملاحظات لرسائل يريد مني كتابتها، وبعد ذلك تمنيت له ليلة سعيدة ثم تركتُه. وكان العقيد آربوثنوت ما يزال واقفاً في الممر حيث كانت مقصورته تُعَدُّ للنوم، فاقترحت عليه أن يأتي إلى مقصورتي، ثم بدأنا حديثنا فناقشنا السياسة العالمية وحكومة الهند ووضعنا المالي وأزمة بورصة وول ستريت. إنني لا أنجذب إلى البريطانيين في العادة؛ فهم متعجرفون، إلا أنني أحببت هذا البريطاني.

- هل تعرف متى خرج من عندك؟

- خرج متأخراً جداً. أظن الساعة كانت تقترب من الثانية.

- هل لاحظتما أن القطار قد توقف؟

- نعم. وتعجبنا للحظة، فنظرنا خارجاً ورأينا الثلوج تتجمع بكثافة، ولكننا لم نظن أن في الأمر خطورة.

- ماذا حدث عندما ودّعك العقيد آربوثنوت أخيراً؟

- ذهب إلى مقصورته وناديت المسؤول ليُعد سريري.

- وأين كنت بينما كان يفعل ذلك؟

- كنت أقف في الممر خارج الباب أدخّن لفافة من التبغ.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك ذهبت إلى فراشي ونمت حتى الصباح.

- هل غادرت القطار قط في المساء؟

- فكرت أنا والعقيد آربوثنوت في أن نخرج في... ما اسم ذلك المكان؟ آه، فينكوفشي... لتمرين أرجلنا بعض الوقت، إلاّ أن الجو كان بارداً جداً لوجود عاصفة ثلجية، وسرعان ما عدنا إلى الداخل.

- من أي باب غادرتما القطار؟

- من الباب الأقرب لمقصورتنا.

- الباب الذي يلي عربة المطعم؟

- نعم.

- هل تذكر فيما إذا كان مقفلاً؟

فكر ماكوين قليلاً، ثم قال: نعم، أذكر أنه كان مقفلاً. على الأقل كان مزلاجٌ من نوعٍ ما مثبتاً على المقبض. هل هذا ما تعنيه؟

- نعم. وعندما عدتما إلى القطار هل أعدتما إغلاق المزلاج؟

- لا، لا أظنني فعلت ذلك. لقد دخلت آخراً ولا أذكر أنني أغلقته.

أضاف فجأة: أهذه نقطة مهمة؟

- ربما. حسناً، سأفترض أن باب مقصورتك المفضي إلى الممر كان مفتوحاً وأنتما جالسان تتحدثان في الداخل، أليس كذلك؟

أومأ هيكتور ماكوين برأسه بالإيجاب، فقال بوارو: أريد منك أن تخبرني -إن استطعت- إن كان أي شخص قد عبر الممر بعد أن غادر القطار فينكوفشي إلى أن افترقتما في الليل.

قطب ماكوين حاجبيه مفكراً ثم قال: أظن أن مسؤول التذاكر مرّ مرة واحدة قادماً من اتجاه عربة المطعم، ومرّتْ امرأة متجهة نحو عربة المطعم.

- أي امرأة؟

- لا أستطيع الجزم بذلك؛ فلم ألاحظها حقاً. كنت أناقش نقطة معينة مع آربوثنوت وأذكر أنني لاحظت شيئاً من الحرير القرمزي يمر أمام الباب، إلاّ أنني لم أنظر فعلاً. كذلك لم يكن باستطاعتي أن أرى وجه تلك المرأة على أية حال؛ فمقصورتي -كما تعرف- تواجه نهاية العربة قرب عربة المطعم، لهذا إذا مرّتْ امرأة عبر الممر في ذلك الاتجاه فسيكون ظهرها باتجاهي حالما تمر أمام الباب.

أومأ بوارو برأسه موافقاً ثم قال: ربما كانت ذاهبة إلى الحمّام؟

- أظن ذلك.

- هل رأيتها تعود؟

- أما وقد ذكرتَ ذلك الآن فإنني لم ألاحظها تعود، ولكن لا بد من أنها قد عادت.

- سؤال آخر. هل تدخن الغليون يا سيد ماكوين؟

- لا يا سيدي؛ لا أدخنه.

صمت بوارو للحظة، ثم قال: أظن أن هذا كل ما أحتاجه منك في الوقت الحاضر، وأود الآن أن أرى خادم السيد راتشيت. بالمناسبة، هل تسافران دائماً في الدرجة الثانية؟

- هو يسافر فيها، إلا أنني أسافر عادة في الدرجة الأولى، وإذا كان ذلك ممكناً فإنني أحجز المقصورة التي بجانب السيد راتشيت، ثم يضع معظم حقائبه عندي بحيث يستطيع أن يصل إليها أو إليّ بسهولة كلما أراد ذلك. إلاّ أن كل مقصورات الدرجة الأولى كانت محجوزة هذه المرة، ما عدا المقصورة التي أخذها هو.

- فهمت. شكراً لك يا سيد ماكوين.

* * *

الفصل الثالث

إفادة الخادم

بعد الرجل الأميركي دخل الرجل الإنكليزي الباهت ذو الوجه الذي يخلو من المشاعر، والذي رآه بوارو في اليوم السابق. وقف منتصباً بشدة فأشار له بوارو بأن يجلس.

- أنت خادم السيد راتشيت فيما أظن؟

- نعم يا سيدي.

- ما اسمك؟

- إدوارد هنري ماسترمان.

- كم عمرك؟

- تسعة وثلاثون عاماً.

- هل سمعت بأن سيدك قد قُتِل؟

- نعم يا سيدي. إنه أمر يدعو إلى الصدمة.

- هلاّ أخبرتني الآن لو سمحت: متى رأيت السيد راتشيت آخر مرة؟

فكر الخادم ثم قال: لا بد من أن ذلك كان في نحو الساعة التاسعة ليلة أمس يا سيدي، أو بعد ذلك بقليل.

- أخبرني ما الذي حدث بالضبط؟

- ذهبت إلى السيد راتشيت كالعادة يا سيدي، ولبّيتُ احتياجاته.

- ماذا كانت وظيفتك بالضبط؟

- أن أطوي ملابسه أو أعلقها يا سيدي، وأن أضع طقم أسنانه في الماء وأتأكد من أن لديه كل ما يحتاجه أثناء الليل.

- أكان مزاجه وسلوكه كشأنه دائماً؟

فكر الخادم للحظة ثم قال: أظن أنه كان مُستاء يا سيدي.

- كيف كان مستاء؟

- بسبب رسالة كان يقرؤها. وسألني فيما إذا كنت أنا الذي وضعتها في مقصورته، فأخبرته -بالطبع- أنني لم أفعل شيئاً كهذا، إلاّ أنه سبّني ورأى عيوباً في كل ما أفعله.

- أكان ذلك غير طبيعي؟

- لا يا سيدي؛ فهو يفقد صوابه بسهولة. وكما قلت، فإن الأمر يعتمد على الشيء الذي يسوؤه.

- هل كان سيدك يتناول المنومات؟

مال الطبيب كونستانتين إلى الأمام قليلاً، فيما أجاب الخادم: كان يتناولها دائماً عندما يسافر بالقطار يا سيدي، وكان يقول إنه لا يستطيع النوم من غيرها.

- هل تعلم ما هو نوع المنوم الذي اعتاد أن يتناوله؟

- لا أستطيع الجزم بذلك يا سيدي؛ فلم يكن على الزجاجة اسم، بل كان مكتوباً عليها فقط: «المنوم الذي يجب أن يؤخَذ وقت النوم».

- هل تناوله ليلة أمس؟

- نعم يا سيدي؛ فقد أعددته في كأس ووضعته على الطاولة ليكون جاهزاً له.

- هل رأيته يتناوله فعلاً؟

- لا يا سيدي.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- سألته إن كان بحاجة إلى أي شيء آخر، وسألته متى يود أن أوقظه في الصباح، فقال إنه لا يريد أن يزعجه أحد حتى يقرع هو الجرس.

- أكان ذلك عادياً منه؟

- عادياً جداً يا سيدي؛ فقد اعتاد أن يقرع الجرس للمسؤول ثم يرسله إليّ عندما يكون جاهزاً للنهوض.

- أكان من عادته أن يستيقظ مبكراً أم متأخراً؟

- ذلك يعتمد على مزاجه يا سيدي. كان يستيقظ أحياناً للفطور وأحياناً أخرى لا يستيقظ حتى يحين وقت الغداء.

- إذن فأنت لم تقلق عندما مضى الصباح ولم يرسل إليك أحد؟

- نعم يا سيدي.

- أكنت تعلم أن لسيدك أعداء؟

- نعم يا سيدي.

تكلم الرجل بلا أي عاطفة، فمضى بوارو بالسؤال: كيف عرفت؟

- سمعته يتحدث مرة عن بعض الرسائل مع السيد ماكوين يا سيدي.

- هل كانت لديك أي عواطف تجاه مُستخدمِك يا ماسترمان؟

صار وجه الرجل أقلّ تعبيراً عن أية أحاسيس حتى مما كان يبدو أصلاً، ثم قال: لا أكاد أستطيع قول ذلك يا سيدي، إلاّ أنه كان ربّ عملٍ سخياً.

- ولكنك لم تحبه؟

- فلنقل إنني لا أهتم كثيراً بالأميركيين يا سيدي.

- هل سبق لك أن زرت أميركا؟

- لا يا سيدي.

- أتذكر أنك قرأت في الصحف عن قضية اختطاف آرمسترونغ؟

تلوّن وجه الرجل بعض الشيء وقال: نعم، بالتأكيد يا سيدي. كانت طفلة صغيرة، أليس كذلك؟ كان أمراً يثير الصدمة.

- هل تعلم أن مستخدمِك، السيد راتشيت، كان هو العقل المدبر في تلك القضية؟

- لا يا سيدي.

ولأول مرة ظهر في نبرة الخادم نوع من الدفء والشعور المؤكدين، ثم قال: لا أكاد أصدق ذلك يا سيدي.

- ولكنها الحقيقة. والآن دعنا ننتقل إلى تحركاتك أنت ليلة أمس، إنها مسألة روتينية فقط. ماذا فعلت بعد أن تركت سيدك؟

- أخبرت السيد ماكوين أن سيدي يريده ثم ذهبت إلى مقصورتي وقرأت لبعض الوقت.

- ومقصورتك هي الرقم...؟

- آخر مقصورة في الدرجة الثانية يا سيدي، بجوار عربة المطعم.

كان بوارو ينظر إلى المخطط أمامه: آه، وما هو رقم سريرك؟

- الأسفل يا سيدي.

- إنه رقم ٤ إذن؟

- نعم يا سيدي.

- هل معك أحدٌ في المقصورة؟

- نعم يا سيدي، رجل إيطالي ضخم.

- هل يتكلم الإنكليزية؟

- إنه يتكلم إنكليزية ما يا سيدي.

كان في نبرته شيء من الازدراء، ثم أضاف: لقد زار أميركا... شيكاغو... كما فهمت.

- هل تحادثتما كثيراً؟

- لا يا سيدي؛ فأنا أفضّل أن أقرأ.

ابتسم بوارو إذ كان بوسعه تخيل المنظر: الرجل الإيطالي الضخم المهذار، وعجرفة من يرى نفسه خادم الأسياد.

سأل بوارو: وهل لي أن أسأل ماذا تقرأ؟

- في الوقت الحاضر أقرأ رواية «أسير الحب» للسيدة أرابيلا ريتشاردسون.

- أهي رواية جيدة؟

- أراها ممتعة للغاية يا سيدي.

- حسناً. دعنا نكمل، عدت إلى مقصورتك وقرأت. حتى متى بقيت تقرأ؟

- في نحو العاشرة والنصف أراد ذلك الإيطالي أن ينام، فجاء المسؤول وأعدّ السريرين.

- وبعدها أويت إلى فراشك ونمت؟

- أويت إلى فراشي -يا سيدي- ولكنني لم أنم.

- لِمَ لَمْ تنم؟

- بسبب وجع الأسنان يا سيدي.

- آه! إنه مؤلم.

- مؤلم جداً يا سيدي.

- هل فعلت شيئاً حيال ذلك؟

- وضعت شيئاً من زيت القرنفل مما خفف الألم بعض الشيء. ولكنني لم أستطع النوم رغم ذلك، فأضأت النور فوق رأسي وتابعت القراءة كي أشغَل نفسي عن الألم.

- ألم تنم أبداً؟

- بلى يا سيدي؛ لقد غفوت في نحو الرابعة صباحاً.

- ورفيقك؟

- الرجل الإيطالي؟ آه، لقد كان يشخر.

- ألم يغادر المقصورة أبداً أثناء الليل؟

- لم يحصل يا سيدي.

- وهل غادرتها أنت؟

- لا يا سيدي.

- هل سمعت شيئاً أثناء الليل؟

- لا أظن ذلك يا سيدي. أعني أنني لم أسمع شيئاً غير طبيعي، فكون القطار واقفاً جعل المكان هادئاً جداً.

صمت بوارو لدقيقة أو اثنتين، ثم قال: حسناً، لم يبقَ لديَّ أي سؤال. ألا تستطيع أن تلقي أي ضوء على المأساة؟

- لا أظن ذلك، أنا آسف يا سيدي.

- هل وقعت بين سيدك وبين السيد ماكوين أي مُشاحنات أو سوء تفاهم على حد علمك؟

- لا يا سيدي؛ فالسيد ماكوين رجل لطيف جداً.

- مع من كنت تخدم قبل أن تأتي إلى السيد راتشيت؟

- مع السير هنري توملينسون يا سيدي، في غروزفينر سكوير.

- ولماذا تركته؟

- بسبب سفره إلى شرق أفريقيا حيث لم يعد بحاجة إلى خدماتي، ولكنني متأكد من أنه سيزكيني يا سيدي؛ فقد أمضيت معه عدة سنوات.

- وكم بقيت مع السيد راتشيت؟

- ما يزيد قليلاً على تسعة أشهر يا سيدي.

- شكراً لك يا ماسترمان. بالمناسبة هل تدخن الغليون؟

- لا يا سيدي؛ أدخن لفائف التبغ فقط.

- شكراً لك؛ هذا كل ما في الأمر.

تردد الخادم بعض الشيء ثم قال: اعذرني يا سيدي، ولكن المرأة الأميركية في حالة هستيرية، وهي تقول إنها تعرف كل شيء عن القاتل. إنها منفعلة جداً يا سيدي.

قال بوارو مبتسماً: في هذه الحالة من الأفضل أن تراها الآن.

- هل أخبرها يا سيدي؟ إنها تطلب أن ترى أحد المسؤولين منذ وقت طويل ويحاول مسؤول التذاكر أن يُهدّئ من روعها.

قال بوارو: أرسلها إلينا يا صديقي، سوف نستمع إلى قصتها الآن.

* * *

الفصل الرابع

إفادة السيدة الأمريكية

وصلت السيدة هوبارد إلى عربة المطعم بنَفَس مقطوع لدرجة أنه كان من الصعب أن تلفظ كلماتها بوضوح: أريد أن أعرف شيئاً واحداً فقط؛ من هو المسؤول هنا؟ لديّ معلومات مهمة جداً... مهمة جداً بالفعل، وأودّ أن أدلي بها لأحد المسؤولين بالسرعة الممكنة. لو أنكم يا سادة...

ترددت نظراتها بين الرجال الثلاثة، فمال بوارو إلى الأمام وقال: أخبريني أنا يا سيدتي، ولكن أرجوك اجلسي أولاً.

ارتمت السيدة هوبارد بقوة على الكرسي الذي يقابله وقالت: ما يجب عليّ أن أخبرك به هو ما يلي: لقد وقعت جريمة قتل على القطار ليلة أمس، وقد كان القاتل في مقصورتي!

صمتت لتأخذ كلماتها طابعاً دراميّاً، فسألها بوارو: هل أنت متأكدة من هذا يا سيدتي؟

- طبعاً متأكدة. إنني أعلم عن أي شيء أتحدث، وسوف

أخبرك بكل ما أستطيع أن أخبرك به. كنتُ قد أويت إلى سريري ونمت، ثم صحوت فجأة، وكان كل شيء مظلماً وعلمت أن في مقصورتي رجلاً. كنت خائفة جداً لدرجة أنني لم أتمكن من الصراخ (إن كنت تعرف ما أعنيه). فقط بقيت مستلقية وفكرت: "رحماك يا رب! سوف أُقتل". لا أستطيع أن أصف لك شعوري. فكرت في هذه القطارات وكل الأشياء الفظيعة التي سمعتها عنها، وفكرت قائلة لنفسي: "حسناً، على أنه لن يحصل على جواهري على أية حال". ذلك أنني وضعتها في جورب وخبأتها أسفل وسادتي، وهذا شيء غير مريح أبداً -بالمناسبة- بسبب النتوء الذي تسببه الصرّة. ولكن هذا لا يعنينا الآن. أين كنت؟

- أدركتِ أن في مقصورتك رجلاً يا سيدتي.

- نعم. وقد بقيت مستلقية هناك وقد أغمضت عينيّ وفكرت فيما يمكن أن أفعله، ثم قلت في نفسي: "حسناً، أنا شاكرة لأن ابنتي لا تعلم بالورطة التي أنا فيها". ثم عادت إليّ رباطة جأشي بطريقة ما وتحسست الجرس وقرعته، وظللت أقرع وأقرع ولكن شيئاً لم يحدث. وتأكد من أنني ظننت أن قلبي سيتوقف عن الخفقان وقلت في نفسي: "رحماك يا رب، وربما قتلوا كل من في القطار". لقد كان القطار واقفاً وكان إحساس كئيب بالهدوء يسود المكان، إلاّ أنني ظللت أقرع الجرس، ثم تنفست الصعداء عندما سمعت وقع أقدام تركض في الممر وصوت طَرْق على الباب، فصحت: "ادخل"، وفي نفس الوقت أشعلت الضوء، ولكن هل تصدق بأن أحداً لم يكن في المكان؟

بدا ذلك للسيدة هوبارد قمة تصاعد الأحداث، وليس انحدارها السخيف!

- ماذا حدث بعد ذلك يا سيدتي؟

- أخبرت الرجل بما حدث ولكن لم يَبْدُ أنه يصدقني، وبدا أنه يفكر بأنني اخترعت كل ذلك. طلبت منه أن ينظر أسفل المقعد. ولكنه قال إن المكان لا يسمح لرجل بأن يحشر نفسه هناك. من الواضح أن الرجل كان قد ذهب، ولكنني متأكدة من أن رجلاً كان في المقصورة، وقد جننت من الطريقة التي كان يحاول بها المسؤول أن يهدئ من روعي! أنا لستُ ممن يتخيلون الأشياء يا سيد... لا أظن أنني أعرف اسمك؟

- بوارو يا سيدتي وهذا هو السيد بوك مدير الشركة، والطبيب كونستانتين.

تمتمت السيدة هوبارد: أنا سعيدة بلقائكم.

وجهت كلامها إلى الرجال الثلاثة بشرود، ثم انطلقت مرة أخرى في سردها: والآن لن أدعي بأنني كنت ذكية كما ينبغي، فقد ظننتُ أنه الرجل الذي كان يشغل المقصورة التي بجانبي... المسكين الذي قُتل؛ فطلبت من المسؤول أن ينظر إلى الباب الذي يصل بين المقصورتين فوجده غير مقفل، فطلبت منه أن يقفله في الحال. وبعد أن خرج نهضت ووضعت حقيبة ملابسي خلف الباب كي أكون مطمئنة.

- في أي وقت حدث ذلك يا سيدة هوبارد؟

- لا أستطيع أن أخبرك؛ إذ أنني لم أنظر إلى الساعة لأنني كنت متضايقة جداً.

- وما هي نظريتك؟

- إنها واضحة جداً. كان ذلك الرجل هو القاتل، مَن غيره؟

- وتظنين أنه عاد إلى المقصورة التالية؟

- وكيف أعرف أين ذهب؟ كنت أغمض عينيّ بشدة.

- لا بد وأنه قد انسلّ عبر الباب إلى الممر.

تنهدت السيدة هوبارد بقوة: رحماك يا رب. كنت خائفة! لو أن ابنتي عرفت...

- ألا تظنين -يا سيدتي- أن ما سمعتِه هو صوت الرجل في المقصورة التي بجانبك يتحرك في مقصورته؟

- لا أظن ذلك يا سيد... ما هو اسمك؟ بوارو. لقد كان الرجل في مقصورتي ولديّ الدليل على ذلك.

رفعت حقيبة يد كبيرة على الطاولة بانتصار وبدأت تنبش في محتوياتها. أخرجت منديلين كبيرين نظيفين ونظارات وزجاجة أسبرين وبعض حلوى النعنع ومجموعة من المفاتيح ومقصاً ودفتر شيكات وصورة طفل شديد البشاعة وبعض الرسائل وخمس سبحات من الخرز الشرقي وشيئاً معدنياً صغيراً... كان عبارة عن زر.

- أترى هذا الزر؟ إنه ليس لي ولا لأي من ملابسي. لقد وجدته عندما نهضت صباح اليوم.

وفيما كانت تضعه على الطاولة مال السيد بوك إلى الأمام وعلّق قائلاً: ولكن هذا زر البدلة الرسمية لموظفي القطار.

التفت نحو السيدة بلطف قائلاً: ربما كان هذا الزر قد وقع عن زي المسؤول يا سيدتي، إمّا عندما فتش مقصورتك أو عندما أعدّ سريرك ليلة أمس.

– لا أعرف ماذا دهاكم جميعاً أيها الناس! يبدو أنكم لا تفعلون شيئاً سوى الاعتراض. والآن أصغوا إلي: كنت أقرأ مجلة ليلة أمس قبل أن أنام، ثم قبل أن أطفئ النور وضعت تلك المجلة على حقيبة كانت موضوعة على الأرض قرب النافذة. أتفهمون ذلك؟

أكدوا لها أنهم يفهمون.

– حسناً إذن، وقد بحث المسؤول أسفل الكرسي وهو يقف قرب الباب ثم دخل وأقفل الباب الذي يصل بين مقصورتي وتلك التي بجانبي، ولكنه لم يقترب أبداً من النافذة، وفي هذا الصباح كان ذلك الزر على المجلة. والآن أود أن أعرف: ماذا تسمّون ذلك؟

قال بوارو: هذا ما أسميه دليلاً يا سيدتي.

يبدو أن هذا الجواب قد أرضى السيدة، إذ قالت: يطير صوابي عندما لا يصدقني أحد.

قال بوارو مهدِّئاً: لقد قدمتِ لنا دليلاً مثيراً ومهماً. والآن، هل أستطيع أن أسألك بضعة أسئلة؟

– بكل سرور.

– بما أنك كنت خائفة من هذا الرجل، راتشيت، فكيف حصل أنك لم تقفلي الباب بين مقصورتيكما؟

أجابت السيدة هوبارد فوراً: لقد فعلت.

– آه، لقد فعلت؟

– حسناً، في الواقع سألت تلك السيدة السويدية (ويا لها من امرأة لطيفة!) عمّا إذا كان الباب مقفلاً، فقالت إنه كذلك.

– وكيف لم تتأكدي من ذلك بنفسك؟

– لأنني كنت في السرير وكان كيس أدوات الحمام معلقاً على مقبض الباب.

– متى كان الوقت عندما طلبت منها ذلك؟

– دعني أفكر... لا بد وأن ذلك كان في نحو العاشرة والنصف أو الحادية عشرة إلاّ ربعاً، إذ جاءتني لتسأل إن كان عندي بعض الأسبرين، فأخبرتها أين تجده وأخرجَتْه من حقيبة سفري.

– وكنت أنت في السرير؟

– نعم.

ضحكت فجأة وقالت: يا للمسكينة! لقد وقعت في حرج بالغ، إذ كانت قد فتحت باب المقصورة التي بجانبي خطأً.

- باب مقصورة السيد راتشيت؟

- نعم، فأنت تعرف كم هو صعب عندما تأتي عبر القطار وتكون جميع الأبواب مغلقة. فتحتُ باب مقصورته خطأً، وكانت متضايقة جداً لذلك، إذ يبدو أنه ضحك، ويخيل إليّ أنه ربما تفوه بعبارة غير لطيفة. يا للمسكينة! كانت مرتبكة جداً وقالت: آه! لقد أخطأت، وأنا خجلة من خطئي.

ضحك الدكتور كونستانتين ضحكة مكبوتة فرمقته السيدة هوبارد فوراً بنظرة جمدته، ثم قالت: ليس مناسباً الضحك من مثل هذه الأمور.

اعتذر الطبيب بسرعة، وسأل بوارو: هل سمعت أية جلبة من مقصورة السيد راتشيت بعد ذلك؟

- حسناً، ليس تماماً.

- ماذا تعنين بهذا يا سيدتي؟

- حسناً...

صمتت قليلاً، ثم قالت: لقد كان يشخر.

- آه، كان يشخر... حقاً؟

- كثيراً، ولم أتمكن من النوم بسبب ذلك في الليلة السابقة.

- هل سمعتِه يشخر بعد أن روّعك وجود رجل في مقصورتك؟

- ولكن كيف لي أن أسمعه يا سيد بوارو؟ لقد كان ميتاً.

قال: آه، نعم حقاً!

لكنه بدا متحيراً، ثم سألها: هل تذكرين قضية اختطاف آرمسترونغ يا سيدة هوبارد؟

- نعم، أذكر ذلك. ولكن كيف هرب ذلك الوغد ونجا! أودّ لو أنني أضع يدي عليه.

- هو لم يهرب. إنه ميت... لقد مات ليلة أمس.

- هل تعني...؟

كادت السيدة هوبارد أن تنهض من كرسيها انفعالاً.

- نعم، أعني ذلك. كان راتشيت هو ذلك الرجل.

- حسناً، حسناً. يجب أن أكتب لابنتي وأخبرها بذلك. ألم أخبرك ليلة أمس أن لذلك الرجل وجهاً شريراً؟ لقد كنت مُحِقّة. إن ابنتي تقول دائماً: "عندما تحدس أمي بشيء فبوسعك أن تراهن على صحته".

- هل كنتِ على معرفة بأي من عائلة آرمسترونغ يا سيدة هوبارد؟

- لا؛ فقد كانت لهم دائرتهم الاجتماعية الخاصة الضيقة. ولكنني سمعت دوماً أن السيدة آرمسترونغ كانت جميلة ولطيفة وأن زوجها كان يهيم حباً بها.

- حسناً يا سيدة هوبارد، لقد ساعدتِنا... ساعدتِنا كثيراً حقاً. هلا أعطيتني اسمك كاملاً؟

- بالتأكيد؛ كارولين مارثا هوبارد.

- هلا كتبتِ عنوانك هنا؟

فعلت السيدة هوبارد ذلك دون أن تتوقف عن الكلام: لا أستطيع أن أصدق ذلك... كاسيتي على هذا القطار! لقد كان لديّ حدس بخصوص ذلك الرجل، أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- بلى، بالفعل يا سيدتي. بالمناسبة، هل لديك قميص نوم قرمزي؟

- يا إلهي، يا له من سؤال غريب! ولكن لا؛ لدي قميصان للنوم أحدهما وردي والآخر قدمته لي ابنتي هدية، وهو صناعة محلية من الحرير البنفسجي. ولكن ما الذي يدفعك إلى أن تسأل عن قمصان نومي؟

- لقد دخلت امرأة ترتدي قميص نوم قرمزياً إما إلى مقصورتك أو إلى مقصورة السيد راتشيت ليلة أمس، فكما قلت قبل قليل: من الصعب تمييز المقصورات عندما تكون الأبواب مغلقة.

- لم تدخل غرفتي أنا أي امرأة ترتدي قميص نوم قرمزياً.

- إذن لا بد من أنها دخلت مقصورة السيد راتشيت؟

زمّت السيدة هوبارد شفتيها وقالت بتجهم: إن ذلك لا يدهشني.

مال بوارو إلى الأمام وقال: إذن فقد سمعتِ صوت امرأة في المقصورة التي بجانبك؟

- لا أدري كيف عرفتَ ذلك يا سيد بوارو، إنني لا... ولكن، حسناً، في الواقع لقد سمعت.

- ولكن عندما سألت لتوي إن كنتِ قد سمعت شيئاً في المقصورة التي بجانبك قلت إنك لم تسمعي سوى شخير السيد راتشيت.

- كان ذلك صحيحاً؛ فقد شخر لبعض الوقت. أما بالنسبة للأمر الآخر...

تورّد وجه السيدة هوبارد، ثم تابعت: ليس لطيفاً أن يتحدث المرء عن أمور كهذه.

- كم كان الوقت عندما سمعت صوت المرأة؟

- لا أستطيع أن أخبرك. صحوت لدقيقة فقط وسمعت صوت امرأة تتحدث، وكان واضحاً من أين يأتي الصوت، ففكرت في نفسي: "أنا لا أستغرب؛ فهو من هذا النوع من الرجال"، ثم عدت إلى النوم ثانية. وما كنت لأذكر شيئاً مثل هذا أمام ثلاثة رجال غرباء لولا أنك سحبت مني الكلام سحباً.

- هل وقع هذا قبل أن تخافي من وجود الرجل في مقصورتك أم بعد ذلك؟

- ولكن هذا مثل سؤالك قبل قليل! ما كان ليستقبل امرأة

تتحدث معه إذا كان ميتاً، أليس كذلك؟

- عفواً! لا بد وأنك تظنينني غبياً يا سيدتي.

- أظن أن الأمور تختلط أحياناً حتى عليك أنت. ما زلت لا أكاد أصدق أنه ذلك المتوحش كاسيتي. ماذا ستقول ابنتي...

استطاع بوارو -ببراعة- أن يساعد السيدة في إعادة محتويات حقيبتها ثم رافقها إلى الباب، وفي آخر لحظة قال لها: لقد أسقطتِ منديلك يا سيدتي.

نظرت السيدة هوبارد إلى المنديل الذي كان يمسك به وقالت: إنه ليس لي يا سيد بوارو، إن منديلي معي.

- عفواً، ظننته منديلك بسبب حرف الهاء المطرز عليه.

- هذا عجيب حقاً، ولكنه ليس لي. إن مناديلي تحمل العلامة «ك.م.هـ» وهي من النوع المعقول وليس من القماش الباريسي الثمين. ما فائدة منديل كهذا لأنف المرء؟

لم يبدُ أن لدى أي من الرجال الثلاثة جواباً لهذا السؤال، فغادرت السيدة هوبارد بانتصار.

* * *

الفصل السادس

إفادة السيدة السويدية

كان السيد بوك يفحص الزر الذي تركته السيدة هوبارد خلفها، ثم قال: لا أفهم معنى وجود هذا الزر. أيعني هذا أن بيير ميشيل متورط بطريقة ما؟

صمت قليلاً، ولما لم يجبه بوارو على سؤاله قال: ماذا تقول يا صديقي؟

ردّ بوارو مفكراً: إن لهذا الزر احتمالات عديدة، ولكن دعنا نقابل السيدة السويدية قبل أن نناقش الإفادات التي سمعناها.

فتش في كومة جوازات السفر أمامه ثم قال: آه، ها هو. غريتا أولسون، العمر تسعة وأربعون عاماً.

أعطى السيد بوك تعليماته لنادل المطعم، وفي الحال جاءت السيدة ذات كعكة الشعر الرمادية المصفرّة والوجه الطويل الهادئ الخانع كوجه نعجة، ونظرت من خلال نظاراتها إلى بوارو وقد بدت هادئة جداً.

سألها بوارو في البداية الأسئلة التي كان يعرف إجاباتها: اسمها، وعمرها، وعنوانها، ثم سألها عن مهنتها. فأخبرته أنها كانت تعمل في مدرسة قرب إسطنبول وأنها كانت ممرضة مؤهلة.

- تعلمين بالطبع ما الذي حدث ليلة أمس يا آنسة؟

- بالطبع. إنه أمر فظيع، وقد أخبرتني المرأة الأميركية أن القاتل كان في مقصورتها.

- سمعت أنك آخر من رأى الرجل الميت على قيد الحياة؟

- لا أعلم. قد يكون الأمر كذلك، فقد فتحت باب مقصورته خطأً وأحسست بالخجل البالغ من ذلك. لقد ارتكبت خطأً محرجاً.

- هل رأيتِه فعلاً؟

- نعم. وكان يقرأ كتاباً، فاعتذرت بسرعة وانسحبت.

- هل قال لك شيئاً؟

تورّد خدا السيدة الفاضلة قليلاً وقالت: ضحك وقال عدة كلمات، ولكنني لم أسمعها تماماً.

سأل بوارو مبتعداً عن الموضوع بلباقة: وماذا فعلت بعد ذلك يا آنسة؟

- ذهبت إلى السيدة الأمريكية، السيدة هوبارد، وطلبت منها بعض الأسبرين، فأعطتني.

- هل سألتك إن كان الباب الذي يفصل مقصورتها عن مقصورة السيد راتشيت مغلقاً؟

- نعم.

- وهل كان مقفلاً؟

- نعم.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك عدت إلى مقصورتي وأخذت بعض الأسبرين واستلقيت.

- متى حدث كل ذلك؟

- عندما ذهبت إلى السرير كانت الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق لأنني أنظر -عادة- إلى ساعتي قبل النوم.

- هل غفوت بسرعة؟

- ليس بسرعة، فعلى الرغم من أن ألم رأسي تحسّن إلاّ أنني بقيتُ مستيقظة لبعض الوقت.

- هل وقف القطار قبل أن تنامي؟

- لا أظن ذلك. أظن أننا وقفنا في محطة ما في اللحظة التي بدأت أغفو فيها.

- لا بد وأنها كانت فينكوفشي. والآن، مقصورتك هي هذه؟

وأشار بيده إلى مخطط العربة فقالت: نعم؛ هذه هي.

- هل تشغلين السرير العلوي أم السفلي؟

- السرير السفلي رقم ١.

- ولديك رفيقة؟

- نعم؛ شابة إنكليزية لطيفة جداً وودودة جداً، وهي تسافر من بغداد.

- هل غادَرَتْ رفيقتك المقصورة بعد أن غادر القطار فينكوفشي؟

- لا، أنا متأكدة من أنها لم تفعل.

- لماذا أنت متأكدة طالما كنتِ نائمة.

- إن نومي خفيف جداً وأصحو لأي صوت، وأنا متأكدة لو أنها نزلت من السرير العلوي لكنت صحوت.

- هل غادرتِ أنت المقصورة؟

- لم أغادرها حتى هذا الصباح.

- هل لديك قميص نوم قرمزي من الحرير يا آنسة؟

- لا. الحقيقة أن لديَّ قميصَ نومٍ مريحاً مصنوعاً من القماش. إنها عباءة بنفسجية كتلك التي تباع في الشرق.

هز بوارو رأسه، ثم سأل بصوت ودود: لِمَ تسافرين في هذه الرحلة؟ هل أنت في إجازة؟

- نعم؛ أنا ذاهبة إلى بلدي في إجازة، ولكنني سأذهب أولاً إلى لوزان وأمضي أسبوعاً عند أختي.

- هلاّ تلطفت وكتبت اسم أختك وعنوانها؟

- بكل سرور.

أخذَتْ منه القلم والورقة وكتبت الاسم والعنوان كما طلب منها.

- هل ذهبت إلى أمريكا قط يا آنسة؟

- لا. كدت أذهب إلى هناك مرة مع امرأة معوَّقة، ولكن أُلغِيَتْ الرحلة في اللحظات الأخيرة. وقد أحزنني ذلك؛ فالأميركيون جيدون في الدفع وعمليون جداً.

- هل تذكرين أنك سمعت عن قضية اختطاف طفلة اسمها آرمسترونغ؟

- لا. وماذا كانت تلك القضية؟

شرح لها بوارو القضية فسخطت غريتا أولسون وارتعدت كعكة شعرها من فرط تأثرها وقالت: ما أعجب أن يكون في هذا العالم رجال شريرون كهذا! يا للأمِ المسكينة! إن قلبي يتألم لها.

غادرت السويدية الودودة وقد احمرّ وجهها اللطيف وامتلأت عيناها بالدموع.

وكان بوارو يكتب شيئاً بسرعة على ورقة، فسأله السيد بوك: ما الذي تكتبه يا صديقي؟

- يا عزيزي، إنها عادتي أن أكون منظماً ومرتباً، وأنا أكتب هنا قائمة بالأحداث مرتبة ترتيباً زمنياً.

أنهى كتابته ومرر الورقة للسيد بوك الذي قرأ فيها:

٩,١٥	غادر القطار بلغراد.
نحو ٩,٤٠	الخادم ترك راتشيت وبجانبه المنوم.
نحو العاشرة	ماكوين يغادر راتشيت.
نحو ١٠,٤٠	غريتا أولسون ترى راتشيت (وهي آخر مرة يُرى فيها على قيد الحياة. ملاحظة: كان مستيقظاً يقرأ كتاباً).
١٢,١٠	القطار يغادر فينكوفشي (متأخراً).
١٢,٣٠	القطار يواجه عواصف ثلجية.
١٢,٣٧	قُرع جرس راتشيت وأجابه المسؤول، فردّ راتشيت: "لا يوجد شيء، كان ذلك خطأً مني".
١,١٧	تعتقد السيدة هوبارد أن في مقصورتها رجلاً وتقرع الجرس لاستدعاء المسؤول.

هز السيد بوك رأسه برضا وقال: هذا واضح جداً.

- ألا شيء هنا يبدو لك غريباً؟

- بل كل شيء يبدو واضحاً. من الواضح أن الجريمة وقعت في الساعة الواحدة والربع؛ إذ أن الساعة المحطمة تدلنا على ذلك، وهذا مطابق لقصة السيدة هوبارد. بالنسبة لي سأحاول أن أخمّن هوية القاتل، وأنا أقول -يا صديقي- إنه الإيطالي الضخم؛ فهو قادم من أميركا (ومن شيكاغو بالتحديد، وتذكّر أن سلاح الإيطالي هو السكين) وهو لم يُطعَن مرة واحدة بل عدة طعنات.

- هذا صحيح.

- ما من شك في أن هذا هو حل المشكلة الغامضة، ولا أشك في أنه والسيد راتشيت كانا يعملان في الاختطاف معاً. إن كاسيتي اسم إيطالي، وبطريقة ما قام راتشيت بخداعه فتتبعه الإيطالي وأرسل إليه في البداية رسائل تهديد، وأخيراً ثأر لنفسه بطريقة وحشية. هذا ما حدث بمنتهى البساطة.

هز بوارو رأسه مشكّكاً وتمتم قائلاً: أخشى أن الأمر ليس بهذه البساطة.

قال السيد بوك وقد افتتن بنظريته أكثر فأكثر: أما أنا فإنني مقتنع بأن هذه هي الحقيقة.

- وماذا عن الخادم المصاب بوجع الأسنان الذي أقسم أن الإيطالي لم يغادر المقصورة؟

- هنا تقع الصعوبة.

لمعت عينا بوارو وقال: نعم، إن هذا مثير للغيظ؛ فمن سوء حظ نظريتك وحسن حظ الرجل الإيطالي أن يعاني خادم السيد راتشيت ألماً في أسنانه.

قال السيد بوك مؤكداً بشدة: سيتم تفسير ذلك.

هز بوارو رأسه ثانية، وتمتم مرة أخرى: كلا... ليس الأمر بهذه السهولة!

* * *

الفصل السادس

إفادة الأميرة الروسية

قال بوارو: لنسمع ماذا يقول بيير ميشيل عن الزر.

استدعي مسؤول التذاكر ثانية. وحين جاء نظر إليهم مستفسراً، فتنحنح السيد بوك وقال: ميشيل، هذا زر من سترتك وقد عُثر عليه في مقصورة السيدة الأمريكية، فماذا تقول في ذلك؟

تحركت يد المسؤول آلياً نحو سترته وقال: أنا لم أفقد أي زر يا سيدي، لعل في الأمر خطأ ما.

- هذا غريب جداً.

- لا أستطيع تفسير هذا الأمر يا سيدي.

بدا الرجل مدهوشاً ولكن لم يبد عليه أنه مذنب أو مرتبك.

قال السيد بوك: وفقاً للظروف التي عُثر بها عليه يبدو من المؤكد أن هذا الزر أسقطه الرجل الذي كان في مقصورة السيدة هوبارد عندما قرعت الجرس.

- ولكن لم يكن هناك أحد يا سيدي، لا بد من أن السيدة تخيلت ذلك.

- إنها لم تتخيله يا ميشيل. لقد مرّ قاتل السيد راتشيت من هناك وأسقط هذا الزر.

ما أن وعى بيير ميشيل كلمات السيد بوك حتى انتابته حالة من الهيجان العصبي الشديد وصاح قائلاً: هذا ليس صحيحاً يا سيدي. ليس صحيحاً! إنكم تتهمونني بالجريمة. أنا؟ إنني بريء... إنني بريء تماماً. ولماذا أريد أن أقتل رجلاً لم أره أبداً من قبل؟

- أين كنت عندما قرعت السيدة هوبارد الجرس؟

- أخبرتك يا سيدي؛ كنت في العربة التالية أتحدث مع زميلي.

- سوف نرسل في طلبه.

- افعل ذلك... أرجوك يا سيدي افعل ذلك.

استُدعي مسؤول العربة التالية وأكّد فوراً مقالة بيير ميشيل، وأضاف أن مسؤول عربة بوخارست كان عنده أيضاً حيث كان الثلاثة يناقشون الوضع الذي نجم عن الثلوج. وقد تحدثوا لنحو عشر دقائق حتى ظن ميشيل أنه سمع جرساً، ولما فَتح الباب الذي يصل بين العربتين سمعوه جميعاً بوضوح. كان جرسٌ يقرع باستمرار فركض ميشيل مسرعاً ليجيب عليه.

صاح ميشيل بلهفة: أترى يا سيدي؟ أنا لست مذنباً.

- وكيف تفسر هذا الزر من الزي الرسمي لسترة الشركة؟

- لا أستطيع تفسيره يا سيدي. إن الأمر غامض بالنسبة لي فجميع أزراري سليمة.

أعلن المسؤولان الآخران أنهما لم يفقدا أزراراً، وأن أياً منهما لم يدخل مقصورة السيدة هوبارد في أي وقت.

قال السيد بوك: اهدأ يا ميشيل، وعُدْ بذاكرتك إلى اللحظة التي ركضت فيها لتردّ على جرس السيدة هوبارد. هل قابلت أحداً في الممر؟

- لا يا سيدي.

- هل رأيت أحداً يمشي مبتعداً عنك في الاتجاه المعاكس؟

- مرة أخرى: لا يا سيدي.

قال السيد بوك: غريب.

قال بوارو: ليس غريباً أبداً؛ فالقضية قضية وقت. لقد أفاقت السيدة هوبارد لتجد أن في مقصورتها شخصاً. بقيت مشلولة الإرادة لدقيقة أو اثنتين وقد أغلقت عينيها، وربما تسلل الرجل إلى الممر في تلك اللحظة، ثم بدأت تقرع الجرس، إلاّ أن المسؤول لم يأتِ في الحال لأنه لم يسمع الجرس سوى في المرة الثالثة أو الرابعة. إنني أقول إن ما يكفي من الوقت قد توفر...

- وقت لماذا؟ لماذا يا عزيزي؟ تذكّر أن القطار كان محاطاً بغطاء سميك من الثلوج.

قال بوارو ببطء: يوجد طريقان مفتوحان للقاتل الغامض. يستطيع أن يتراجع إلى أي من الحمّامَيْن أو أن يختفي في إحدى المقصورات.

- ولكنها كانت جميعاً مشغولة.

- نعم.

- أتعني أنه تراجع إلى مقصورته هو؟

هز بوارو رأسه موافقاً، فيما تمتم السيد بوك: هذا تفسير مناسب... نعم، مناسب. فخلال غياب مسؤول التذاكر في تلك الدقائق العشر يأتي القاتل من مقصورته ويدخل إلى مقصورة راتشيت فيقتله ثم يقفل الباب ويغلقه بالمزلاج من الداخل ويخرج من خلال مقصورة السيدة هوبارد ويعود بأمان إلى مقصورته قبل وصول مسؤول التذاكر.

تمتم بوارو: إن الأمر ليس بهذه البساطة يا صديقي، كما يستطيع أن يخبرك بذلك صديقنا الطبيب.

أشار السيد بوك إلى أن باستطاعة المسؤولين الثلاثة أن يغادروا. وقال بوارو: ما زال لدينا ثمانية ركاب لنراهم، خمسة من الدرجة الأولى: الأميرة دراغوميروف والكونت والكونتيسة أندرينيه والعقيد آربوثنوت والسيد هاردمان، وثلاثة ركاب من الدرجة الثانية: الآنسة دبنهام وأنطونيو فوسكاريلّي وخادمة السيدات الآنسة شميدت.

- من الذي ستراه أولاً، الرجل الإيطالي؟

أراك لن تترك الإيطالي لحاله! لا، سنبدأ من أعلى الشجرة. قد تتلطف الأميرة وتوفر لنا بضع دقائق من وقتها. انقل لها هذه الرسالة يا ميشيل.

قال المسؤول الذي كان يهم بمغادرة العربة: نعم يا سيدي.

ناداه السيد بوك: أخبرها بأننا نستطيع أن نذهب إلى مقصورتها إذا لم تكن تريد أن تتعب نفسها وتأتي إلى هنا.

ولكن الأميرة دراغوميروف رفضت هذا العرض وظهرت في عربة المطعم وجلست مقابل بوارو. بدا وجهها الصغير الذي يشبه وجه الضفدع أكثر اصفراراً مما بدا بالأمس، وكانت بشعة حقاً. ولكنها (مثل الضفدع أيضاً...) كانت تمتلك عينين كأنهما جوهرتان سوداوين آمرتين، تنمّان عن طاقة كامنة وذكاء وقاد يمكن الإحساس بهما فوراً.

كان صوتها عميقاً ومميزاً وبه شيء من البحة، وقد قاطعت السيد بوك الذي كان يعتذر بعبارات منمقة: لا داعي للاعتذار يا سادة. أفهم أن جريمة قتل قد وقعت ومن الطبيعي أن تقابلوا جميع الركاب، وسوف أكون مسرورة بتقديم ما أستطيعه من مساعدة.

قال بوارو: أنت لطيفة جداً يا سيدتي.

- أبداً، إنه واجب. ماذا تريد أن تعرف؟

- اسمك الكامل وعنوانك يا سيدتي، ربما تفضلين أن تكتبي ذلك بنفسك؟

عرض عليها بوارو ورقة وقلماً ولكن الأميرة أبعدتهما جانباً وقالت: تستطيع أن تكتب ذلك بنفسك، إنه ليس صعباً: اسمي نتاليا دراغوميروف، وعنواني ١٧ شارع كليبر، باريس.

- أمسافرة أنت من القسطنطينية إلى بلدك يا سيدتي؟

- نعم، وقد كنت أقيم في السفارة النمساوية ومعي خادمتي.

- هلاّ تلطفت وذكرت لي بإيجاز كيف كانت تحركاتك ليلة أمس بعد العشاء؟

- بكل سرور. طلبت من المسؤول أن يُعدّ سريري بينما كنت في عربة المطعم، ثم مضيت إلى فراشي بعد العشاء مباشرة فقرأت حتى الساعة الحادية عشرة، وعندما أطفأتُ النور لم أتمكن من النوم بسبب بعض آلام الروماتيزم التي أعاني منها، وفي نحو الواحدة إلاّ ربعاً قرعت الجرس لخادمتي فدلّكتني ثم قَرَأَتْ لي بصوت مرتفع حتى شعرت بالنعاس. لا أستطيع أن أقول متى تركتني بالضبط، ربما بعد ذلك بنصف ساعة أو أكثر.

- أكان القطار قد توقف حينها؟

- كان قد توقف.

- هل سمعتِ أي شيء... أي شيء غير عادي خلال هذا الوقت يا سيدتي؟

- لم أسمع شيئاً غير عادي.

- ما اسم خادمتك؟

- هيلداغارد شميدت.

- هل تعمل لديك منذ مدة طويلة؟

- خمس عشرة سنة.

- هل تعتبرينها أهلاً للثقة؟

- تماماً، وأهلها كانوا في عزبة زوجي المتوفى، في ألمانيا.

- أظنك ذهبت إلى أميركا يا سيدتي؟

أدى التغيير المفاجئ في الموضوع إلى أن ترفع السيدة المُسنّة حاجبيها قبل أن تقول: عدة مرات.

- هل عرفت هناك عائلة باسم آرمسترونغ... عائلة حدثت لها مأساة؟

قالت العجوز بشيء من العاطفة في صوتها: إنك تتحدث عن أصدقاء لي يا سيد.

- إذن تعرفين العقيد آرمسترونغ جيداً؟

- عرفته قليلاً، ولكني عرفت أكثر زوجته سونيا آرمسترونغ؛ فقد كنت على علاقة صداقة مع أمها الممثلة ليندا آردن. لقد كانت ليندا آردن عبقرية فذة وواحدة من أعظم ممثلات التراجيديا في العالم، ولم يكن أحد ليقترب من عظمة أدائها. ولم أكن معجبة بفنها فحسب، ولكني كنت صديقة شخصية لها.

- أهي ميتة؟

- لا، لا. إنها على قيد الحياة، ولكنها تعيش في عزلة تامة. إن صحتها بالغة الرقة ويجب أن تستلقي معظم الوقت.

- أظن أن هناك ابنة أخرى؟

- نعم، أصغر بكثير من السيدة آرمسترونغ.

- هل هي على قيد الحياة؟

- بالتأكيد.

- أين هي؟

رمقته العجوز بنظرة حادة وقالت: يجب أن أسألك عن السبب وراء هذه الأسئلة وعن علاقتها بالقضية الحالية... بجريمة القتل على هذا القطار؟

- القضيتان مرتبطتان كالتالي يا سيدتي: إن الرجل الذي قُتِل مسؤولٌ عن اختطاف وقتل طفلة السيدة آرمسترونغ.

تقطب حاجباها المستقيمان واستندت في جلستها وقالت: برأيي -إذن- أن هذه الجريمة حدث يثير كل الإعجاب! واعذرني لوجهة نظري المتحيزة قليلاً.

- هذا طبيعي جداً يا سيدتي. ولنعد الآن إلى السؤال الذي لم تجيبي عنه: أين هي الابنة الصغرى لليندا آردن، أي شقيقة السيدة آرمسترونغ؟

- صدقاً لا أستطيع أن أخبرك يا سيد؛ فقد فقدتُ الاتصال مع الجيل الصغير. ولكن أظن أنها تزوجت قبل بضع سنوات رجلاً

إنكليزياً وذهبت إلى إنكلترا، ولا أستطيع أن أتذكر الاسم في هذه اللحظة.

توقفت للحظة، ثم قالت: هل من أسئلة أخرى أيها السادة؟

- شيء واحد يا سيدتي، وهو سؤال شخصي: ما هو لون قميص نومك؟

رفعت حاجبيها قليلاً وقالت: أظن أن وراء هذا السؤال سبباً. إن قميص نومي من الساتان الأزرق.

- لا يوجد شيء آخر يا سيدتي. إنني شاكر لك جداً لإجابتك عن أسئلتي.

أشارت إشارة خفيفة بيدها المليئة بالخواتم، وفيما كانت تنهض وينهض معها الآخرون قالت: اعذرني يا سيدي، ولكن هل أستطيع أن أسأل عن اسمك؟ فوجهك مألوف نوعاً ما.

- اسمي هو هيركيول بوارو يا سيدتي، وأنا في خدمتك.

بقيت صامتة لحظة ثم قالت: هيركيول بوارو... نعم، أتذكر الآن. إن هذا لَقَدَر.

مشت مبتعدة وهي منتصبة وحركاتها مشدودة بعض الشيء، فقال السيد بوك: هذه سيدة عظيمة. ما رأيك بها يا صديقي؟

ولكن هيركيول بوارو اكتفى بأن هز رأسه وقال: أتساءل ماذا كانت تعني بقولها إنه قدر؟

* * *

الفصل السابع

إفادة الكونت والكونتيسة أندرينيه

استُدعي -بعد ذلك- الكونت والكونتيسة أندرينيه، إلاّ أن الكونت دخل عربة المطعم وحده.

ما من شك في أنه كان رجلاً وسيماً عندما يُرى وجهاً لوجه. كان طوله لا يقل عن مئة وثمانين سنتمتراً وذا كتفين عريضين وورك نحيل، وقد لبس ملابس خيطت بعناية من الصوف الإنكليزي. وكان من السهل أن يخطئ المرء ويحسبه إنكليزياً لولا طول شاربيه وانسياب خط وجنتيه.

قال: حسناً أيها السادة، بماذا أستطيع مساعدتكم؟

قال بوارو: إنك تفهم -يا سيدي- أنه على ضوء ما حدث فإنني مضطر لتوجيه بعض الأسئلة لجميع الركاب.

قال الكونت بيسر: تماماً، تماماً؛ إنني أفهم وضعكم تماماً، إلاّ أنني أخشى أنني وزوجتي لا نستطيع أن نفعل شيئاً لمساعدتكم، فقد كنّا نائمين ولم نسمع شيئاً أبداً.

- هل تعرف هوية الرجل الميت يا سيدي؟

- لقد فهمتُ أنه الأميركي الضخم ذو الوجه الكريه... كان يجلس على تلك الطاولة أثناء الوجبات.

أومأ برأسه نحو الطاولة التي كان يجلس عليها راتشيت وماكوين فقال بوارو: نعم، نعم يا سيدي؛ أنت مصيب تماماً. ولكنني عنيت: هل تعرف اسمه؟

- لا.

بدا الكونت محتاراً من أسئلة بوارو، ثم قال: إذا أردت أن تعرف اسمه فمن المؤكد أنه في جواز سفره.

قال بوارو: الاسم الذي في جواز سفره هو راتشيت، ولكن هذا ليس اسمه الحقيقي. إنه كاسيتي الذي كان مسؤولاً عن قضية اختطاف مشهورة أغضبت أميركا.

راقب الكونت بعناية وهو يتحدث إلاّ أنه بدا غير متأثر لهذه المعلومات. كل ما فعله هو أن فتح عينيه قليلاً ثم قال: آه! لا بد وأن ذلك يُضفي بعض الضوء على القضية. إن أميركا بلد غريب جداً.

- هل ذهبت إلى أميركا يا سيدي الكونت؟

- مكثت في واشنطن لسنة.

- هل تعرّفت على عائلة باسم آرمسترونغ؟

- آرمسترونغ... آرمسترونغ... من الصعب أن أتذكر، فالمرء يقابل الكثير من الناس.

ابتسم ورفع كتفيه حيرة ثم قال: ولكن لنعد إلى موضوع الساعة أيها السادة. ماذا أستطيع أن أعمل لمساعدتكم؟

- متى ذهبت إلى النوم يا سيدي الكونت؟

استرق هيركيول بوارو نظرة إلى مخططه. كان الكونت والكونتيسة يشغلان المقصورتين المتجاورتين ١٢ و ١٣.

- طلبنا إعداد إحدى المقصورتين بينما كنا في عربة المطعم، وعندما عدنا جلسنا في الأخرى لبعض الوقت...

- في أية واحدة؟

- رقم ١٣. لعبنا الورق، وفي نحو الحادية عشرة أوت زوجتي إلى فراشها، فقام المسؤول بإعداد مقصورتي وذهبت أنا الآخر إلى السرير ونمت بعمق حتى الصباح.

- هل لاحظت توقف القطار؟

- لم ألحظ ذلك حتى هذا الصباح.

- وزوجتك؟

- تأخذ زوجتي المنوم دائماً عندما تسافر بالقطار، وقد تناولت جرعتها المعتادة أمس من منوّم تريونال.

صمت للحظة ثم قال: أنا آسف لأنني لم أساعدكم بأية طريقة.

مرّر له بوارو ورقة وقلماً: شكراً يا سيدي الكونت. هلاّ كتبت لي اسمك وعنوانك. إنه أمر روتيني.

كتب الكونت ببطء وعناية، ثم قال بسرور: جيد أنني أكتب ذلك بنفسي؛ فتهجئة اسم عزبتي في بلدي صعب بعض الشيء بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون اللغة.

أعاد الورقة والقلم إلى بوارو ونهض قائلاً: لا داعي أبداً لأن تأتي زوجتي إلى هنا، فهي لا تستطيع أن تزيد على ما قلته لكم.

لمعت عينا بوارو قليلاً وقال: بلا شك، بلا شك. ولكن على الرغم من ذلك فإنني أودّ أن أتحدث قليلاً إلى السيدة الكونتيسة.

- أؤكد لك أن هذا غير ضروري أبداً.

بدت في صوته نبرة المسؤول الآمر، فنظر بوارو إليه وهو يرف برمشيه بلطف وقال: سيكون ذلك مجرد إجراء شكلي. أنت تفهم أن ذلك ضروري لتقريري.

- كما تحب.

أذعن الكونت متبرماً، وانحنى انحناءة أجنبية قصيرة ثم غادر عربة المطعم.

مد بوارو يده إلى أحد جوازات السفر. كان يحتوي على اسم الكونت وألقابه، ثم المعلومات الأخرى: تصحبه زوجته. اسمها الأول إيلينا، واسمها قبل الزواج: غولدنبيرغ، العمر عشرون عاماً. وكانت هناك بقعة من الدهن يبدو أن موظفاً مهملاً قد أسقطها في وقت ما.

قال السيد بوك: جواز سفر دبلوماسي! يجب أن نكون حريصين على ألاّ نسيء إليهما يا صديقي. لا يمكن أن تكون لهؤلاء الناس علاقة بالجريمة.

- اهدأ يا صديقي العزيز. سأكون لبقاً جداً، إنه مجرد إجراء شكلي.

انخفض صوته حينما دخلت الكونتيسة أندرينيه عربة المطعم. بدت خانعة وفاتنة جداً وهي تسأل: أتودون أن تروني أيها السادة؟

قال بوارو: إنه مجرد إجراء شكلي يا سيدتي الكونتيسة.

نهض وانحنى لها مشيراً إلى المقعد الذي يقابله، ثم أضاف: أود فقط أن أسألك إن كنتِ قد رأيت أو سمعت شيئاً ليلة أمس مما قد يلقي بعض الضوء على الأمر.

- لا شيء أبداً يا سيد؛ لقد كنت نائمة.

- ألم تسمعي -مثلاً- ضجة في المقصورة التي بجانبك؟ فالسيدة الأميركية التي تشغلها أصيبت بحالة عصبية وقرعت الجرس للمسؤول.

- لم أسمع شيئاً يا سيد؛ فقد تناولت عقّاراً منوماً.

- آه! فهمت. حسناً، لا حاجة لأن أؤخرك هنا أكثر من ذلك.

وفيما كانت تقف مسرعة قال: دقيقة واحدة فقط. هذه

المعلومات هنا: اسمك قبل الزواج وعمرك وما إلى ذلك... هل هي صحيحة؟

- صحيحة تماماً يا سيد.

- ربما تودّين -إذن- أن توقعي هنا على صحة المعلومات.

وقّعت بسرعة وبخط مائل مهيب: «إلينا أندرينيه».

- هل رافقتِ زوجك إلى أميركا يا سيدتي؟

ابتسمت وتورّد خدّاها قليلاً وهي تقول: لا يا سيد؛ فلم نكن متزوجين حينئذ. لقد مضى على زواجنا سنة فقط.

- آه، نعم. شكراً يا سيدتي. بالمناسبة، هل يدخّن زوجك؟

حدقت إليه وهي تقف استعداداً للمغادرة وقالت: نعم.

- الغليون؟

- لا؛ بل لفائف التبغ.

- آه، شكراً لك.

تريثت وهي تراقبه بفضول، ثم سألته: لِمَ سألتني ذلك؟

لوح بوارو بيده قائلاً: إن المحققين يسألون كل أنواع الأسئلة يا سيدتي. هلا أخبرتني -مثلاً- ما هو لون قميص نومك؟

حدقت إليه ثم ضحكت قائلة: إنه بلون الذرة. أهذا مهم حقاً؟

- مهم جداً يا سيدتي.

سألت بفضول: هل أنت محقق فعلاً، إذن؟

- في خدمتك يا سيدتي.

- لم أظن أنه يوجد محققون على القطار خلال عبورنا في يوغسلافيا.

- أنا لست محققاً يوغسلافياً يا سيدتي... إنني محقق دولي.

- أنت تنتمي إلى عصبة الأمم؟

قال بوارو بصورة درامية: إنني أنتمي إلى العالم يا سيدتي، ولكني أعمل غالباً في لندن. هل تتحدثين الإنكليزية؟

سألها ذلك السؤال بالإنكليزية (وقد كانت محادثتهما -حتى ذلك الحين- بالفرنسية) فقالت: نعم، قليلاً.

كانت لكنتها محببة، وانحنى بوارو مرة أخرى قائلاً: لن نؤخرك أكثر من ذلك يا سيدتي. أترين؟ لم يكن الأمر بتلك الفظاعة.

ابتسمت وأحنت رأسها ثم غادرت.

قال السيد بوك مُقدِّراً: "يا لها من امرأة جميلة". ثم تنهد وقال: حسناً، ولكن ذلك لم يجعلنا نتقدم كثيراً.

قال بوارو: نعم؛ شخصان لم يريا شيئاً ولم يسمعا شيئاً.

- هلاّ رأينا الرجل الإيطالي الآن؟

لم يجبه بوارو للحظات، حيث كان يتفحص بقعة دهن على جواز سفر ديبلوماسي هنغاري.

* * *

الفصل الثامن

إفادة العقيد آربوثنوت

تَنبّه بوارو من تأملاته ببعض الجفلة، ولمعت عيناه قليلاً عندما قابلتا عيني السيد بوك المتلهفتين وقال: آه يا صديقي القديم والعزيز! لقد أصبحتُ ممن يتملقون المنزلة الاجتماعية، إذ أشعر أن علينا أن نولي اهتمامنا للدرجة الأولى قبل الدرجة الثانية. ستقابل الآن العقيد الوسيم آربوثنوت.

لما وجد بوارو أن فرنسية العقيد محدودة للغاية أجرى المقابلة باللغة الإنكليزية.

تم التأكد من اسم آربوثنوت وعمره وعنوانه وحياته العسكرية، ثم تابع بوارو: أنتَ ذاهب إلى الوطن من الهند فيما يسمى بالإجازة... ما ندعوه نحن الإذن؟

لم يعبأ العقيد آربوثنوت بما تطلقه زمرة من الأجانب من الأسماء على أي شيء وأجاب بإيجاز بريطاني تقليدي: نعم.

- ولكنك لم تسافر على متن سفينة نقل البريد والعسكريين؟

- نعم.

- لِمَ لم تفعل؟

- اخترت السفر بطريق البر لأسباب خاصة بي.

بدت طريقته في الكلام وكأنه يقول في نفسه: وهذه صفعة لك أيها المتطفل الوقح.

- هل قدمت من الهند مباشرة؟

أجاب العقيد بجفاء: توقفت ليلة واحدة لأرى «أور» مدينة الكلدانيين، وثلاثة أيام في بغداد عند المندوب السامي الذي اتفق أنه كان صديقاً قديماً لي.

- توقفت ثلاثة أيام في بغداد، وقد فهمتُ أن الشابة الإنكليزية الآنسة ديبنهام قَدِمتْ أيضاً من بغداد. هل قابلتَها هناك؟

- لا، لم أقابلها. كانت أول مرة أقابل بها الآنسة ديبنهام عندما ركبنا معاً عربة القطار من كركوك إلى نصيبين.

مال بوارو إلى الأمام، وبدا أجنبياً أكثر مما يتطلب الأمر وهو يقول: إنني سوف أتوسل إليك يا سيدي؛ فأنت والآنسة ديبنهام الإنكليزيان الوحيدان على القطار، ومن الضروري أن أعرف رأي كل منكما بالآخر.

قال العقيد آربوثنوت ببرود: هذا غير طبيعي أبداً.

- ليس كذلك، فالغالب أن امرأة هي التي ارتكبت هذه

الجريمة؛ إذ طُعن الرجل ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة، حتى إن مسؤول القطار قال من فوره: "إنها امرأة!". فما هو أول ما ينبغي لي القيام به إذن؟ يجب عليّ أن أقوم بتقصٍّ سريع لكل النساء المسافرات في عربة إسطنبول-كاليه، ولكن من الصعب أن يحكم المرء على النساء الإنكليزيات؛ فهن شديدات التحفظ. لذلك فإنني أتوسل إليك -يا سيدي- خدمةً للعدالة: أي نوع من النساء هي الآنسة ديبنهام؟ وماذا تعرف عنها؟

قال العقيد بشيء من الحرارة: إن الآنسة ديبنهام سيدة محترمة.

قال بوارو وقد أظهر كامل امتنانه: آه، إذن أنت لا تعتقد أنها يمكن أن تكون معنية بهذه الجريمة؟

قال آربوثنوت: هذه الفكرة سخيفة، فالرجل كان غريباً تماماً عنها وهي لم تره من قبل قط.

- هل أخبرَتْك بهذا؟

- نعم، كما أنها علّقتْ فوراً على مظهره الكريه. لو أن امرأة هي المتورطة بهذا الأمر (كما يبدو أنك تظن... بلا أي دليل برأيي، ولكنها افتراضات فقط) فإنني أؤكد لك أن الآنسة ديبنهام لا يمكن أن تكون متورطة.

قال بوارو مبتسماً: إنك متحمس قليلاً لهذا الأمر.

رمقه العقيد آربوثنوت بنظرة باردة وقال: لا أعرف ماذا تعني؟

بدا أن هذه النظرة قد أحرجت بوارو فأسقط نظره وبدأ يعبث بالأوراق أمامه، ثم قال: كل هذا لا يعنينا... فلنكن عمليين ونَعُدْ إلى الحقائق. لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذه الجريمة وقعت في الواحدة والربع من ليلة أمس، وكجزء من الروتين الضروري يجب علينا أن نسأل كل واحد على القطار ماذا كان يفعل في ذلك الوقت.

- تماماً. حسب ما أذكر فقد كنتُ في الواحدة والربع أتحدث مع الشاب الأميركي، سكرتير الرجل الميت.

- هل كنت في مقصورته، أم كان هو في مقصورتك؟

- بل كنت أنا في مقصورته.

- أهو الشاب الذي يُدعى ماكوين؟

- نعم.

- أكان صديقاً لك أم كانت مجرد معرفة عابرة؟

- لم أره قبل هذه الرحلة، وقد بدأنا حديثاً عابراً أمس ثم تنامى اهتمامنا. ليس من عادتي أن أحب الأميركيين وليست لي أية حاجة بهم...

ابتسم بوارو وهو يتذكر انتقاد ماكوين للبريطانيين.

- ... ولكنني أُعجبت بهذا الشاب. لقد كانت لديه بعض الأفكار الخرقاء عن الوضع في الهند (وهذا أسوأ ما في الأميركيين؛

فهم مثاليون ذوو عواطف ساذجة)، ولكنه كان مهتماً بما أقوله، فلديّ خبرة ثلاثين عاماً في تلك البلاد. وقد كنتُ مهتماً بما يقوله عن الوضع المالي في أميركا، ثم بدأنا نتحدث عن السياسة العالمية عموماً. وقد دُهشت عندما نظرتُ إلى ساعتي ووجدتُها تشير إلى الثانية إلاّ ربعاً.

- أهذا هو الوقت الذي توقفت فيه محادثتكما؟

- نعم.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- مشيت إلى مقصورتي ودخلت.

- هل كان سريرك مُعدّاً.

- نعم.

- إنها المقصورة رقم... دعني أنظر... ١٥، المقصورة قبل الأخيرة من جهة عربة المطعم؟

- نعم.

- أين كان مسؤول التذاكر عندما ذهبتَ إلى مقصورتك؟

- كان يجلس خلف طاولة صغيرة في نهاية العربة. والحقيقة أن ماكوين ناداه في نفس الوقت الذي كنت أدخل فيه إلى مقصورتي.

- لماذا ناداه؟

- لِيُعِدّ له سريره على ما أظن، فهو لم يكن معَداً بعد.

- والآن أريدك أن تفكِّر بكل تركيز أيها العقيد أربوثنوت. أثناء حديثك مع ماكوين، هل مر أحد عبر الممر خارج المقصورة؟

- مر كثير من الناس كما أظن، فلم أُعِر الأمر انتباهاً.

- آه، ولكنني أقصد أثناء الساعة والنصف الأخيرة من الحديث، لقد خرجتما في فينكوفشي، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن لدقيقة فقط، حيث كانت هناك عاصفة ثلجية وكان البرد قارساً مما جعل المرء يتوق للعودة إلى الجو العفن. وبرأيي أن تدفئة هذه القطارات إلى هذا الحد أمر مُخزٍ!

تنهد السيد بوك وقال: يصعب إرضاء الجميع، فالإنكليز يفتحون كل شيء ثم يأتي الآخرون ويغلقون كل شيء. الأمر صعب للغاية!

لم يُعِره كل من بوارو والعقيد أربوثنوت انتباهاً، وقال بوارو مشجعاً: حسناً يا سيدي، عُدْ بذاكرتك إلى الوراء. كان الطقس بارداً جداً في الخارج فعدتما إلى القطار ثم جلست ثانية ودَخّنتَ لفافة تبغ أو ربما الغليون...؟

صمت لجزء من الثانية، ثم قال: أنا أُدخّن الغليون، وماكوين يدخن التبغ.

- بدأ القطار سيره ثانية، فدخّنتَ الغليون ثم ناقشتما الوضع في أوروبا وفي العالم، والوقت متأخر الآن وقد أوى معظم الناس

إلى أسِرّتهم. فهل مرّ أحدٌ من أمام الباب... تذكّر؟

قطب أربوثنوت جبينه في محاولة للتذكر ثم قال: يصعب عليّ الجزم، فلم أكن منتبهاً لهذا الأمر.

- ولكنك تمتلك قدرة الجندي على ملاحظة التفصيلات. إنكم تنتبهون دون أن تنتبهوا لذلك إذا صح التعبير.

فكّر العقيد ثانية ولكنه هز رأسه نافياً وقال: لا أستطيع القول، فلا أذكر أن أحداً مرّ سوى مسؤول التذاكر. انتظر لحظة... كانت هناك امرأة أيضاً على ما أظن.

- هل رأيتها؟ أكانت شابة أم متقدمة في السن؟

- لم أرَها، إذ لم أكن أنظر في ذلك الاتجاه، بل سمعتُ حفيفاً فقط وشممتُ رائحة.

- رائحة؟ أكانت رائحة طيبة؟

- كانت فاكهيّة، إن كنت تعرف ما أعنيه. من النوع الذي تستطيع أن تشمه عن بعد مئة متر.

ولكن الكولونيل استدرك بسرعة: ولكن دعني أذكّرك بأن ذلك ربما كان في وقت مبكر من المساء. فكما قلتَ قبل قليل، لقد كان أحد الأمور التي تلاحظها دون أن تتعمد ذلك. في وقت ما من ذلك المساء قلت في نفسي: عطر نسائي... إن إحداهن قد وضعت الكثير منه. ولكن لا أستطيع أن أحدّد متى كان ذلك. ولكن نعم، لا بد وأن ذلك حدث بعد فينكوفشي.

- لماذا؟

- لأنني أتذكر أنني شممت الرائحة عندما كنت أتحدث عن الفشل الذريع لخطة ستالين الخمسية، فقد جعلتني فكرة النساء أفكر في نساء روسيا. وأعلم أننا لم نتحدث في موضوع روسيا إلا قرب نهاية محادثتنا.

- ألا تستطيع أن تحدد الوقت أكثر من ذلك؟

- لـ.. لا أستطيع، ولكن لا بد من أن ذلك حدث عموماً في نصف الساعة الأخيرة.

- أكان ذلك بعد أن توقف القطار؟

أومأ الآخر برأسه موافقاً وقال: نعم. أكاد أكون متأكداً من ذلك.

- حسناً، فلنتطرق إلى موضوع آخر. هل ذهبت يوماً إلى أميركا أيها العقيد آربوثنوت؟

- أبداً، ولا أريد أن أذهب.

- هل عرفت يوماً ضابطاً باسم آرمسترونغ؟

- آرمسترونغ... آرمسترونغ؟ عرفت اثنين أو ثلاثة، تومي آرمسترونغ من الكتيبة الستين، أتعنيه؟ وسيلبي آرمسترونغ الذي قُتل في معركة سوم.

- أعني العقيد آرمسترونغ الذي تزوج أميركية والذي اختُطفت ابنته الوحيدة وقُتلت.

- آه، نعم. أذكر أنني قرأت عن ذلك... كانت قضية فظيعة. لا أظن أنني التقيت بالرجل، إلاّ أنني أعرف عنه بالطبع. أما تومي آرمسترونغ فقد كان رجلاً لطيفاً، أحبه الجميع وكانت له خدمة مميزة ونال وسام صليب فيكتوريا.

- إن الرجل الذي قُتل ليلة أمس كان مسؤولاً عن مقتل طفلة العقيد آرمسترونغ.

تجهم وجه آربوثنوت وقال: إذن فقد استحق الخنزير ما ناله برأيي، إلاّ أنني كنت أفضّل أن أراه يُشنق أو يصعق بالكرسي الكهربائي حسب الأصول هناك.

- إذن فأنت تُفضّل القانون والنظام -يا عقيد آربوثنوت- على الثأر الشخصي؟

قال العقيد: لا يمكننا الدخول في منازعات دموية فيطعن بعضنا بعضاً على أسلوب الكورسيكيين أو المافيا. لك أن ترى ما تشاء، ولكن المحاكمة بواسطة هيئة محلفين تبقى نظاماً صالحاً.

نظر بوارو نحوه مفكراً لبرهة ثم قال: نعم، أنا متأكد من أن هذه هي وجهة نظرك. حسناً يا عقيد آربوثنوت، لا أظن أن عندي المزيد من الأسئلة. ألا يوجد أمر تتذكره ليلة أمس ورأيت فيه ما يثير الشكوك، أو ترى فيه الآن ما يثير الشكوك وأنت تستعيده؟

فكّر آربوثنوت لبرهة ثم قال: "لا، أبداً. إلاّ إذا..."، ثم توقف متردداً.

- نعم؟ أكمل، أرجوك.

قال آربوثنوت ببطء: إنه غير مهم حقاً، ولكنك قلتَ: أي شيء.

- نعم، نعم. تابع كلامك.

- إنه لا شيء... نقطة بسيطة، ولكن عندما عدت إلى مقصورتي لاحظت أن باب المقصورة التي تلي مقصورتي (المقصورة الأخيرة) كما تعلم...

-نعم، رقم ١٦.

- لم يكن بابها مغلقاً تماماً، وكان الرجل الذي بداخلها يُطلّ إلى الخارج بصورة ماكرة، ثم أغلق الباب بسرعة. أعلم -بالطبع- أنه لا ضير في ذلك، إلاّ أنني رأيتُه غريباً بعض الشيء. أعني أن من الطبيعي جداً أن تفتح باب مقصورتك وتطل برأسك إذا أردت أن ترى شيئاً ما، إلاّ أن الطريقة الماكرة التي فعل بها ذلك هي التي لفتت انتباهي.

قال بوارو بشيء من الشك: نعم.

قال آربوثنوت معتذراً: أخبرتك أنه لم يكن أمراً مهماً، ولكنك تتفهم الوضع. الساعات الأولى من الصباح... وكل شيء هادئ جداً. بدا في الأمر شيء من الشر... مثل القصص البوليسية. ولكنه غير مهم في الواقع.

ثم نهض قائلاً: حسناً، إذا لم تبقَ حاجة لي...

- شكراً أيها العقيد آربوثنوت، لا يوجد شيء آخر.

تردد الجندي للحظة وقد تبخّر ما انتابه بداية من كره طبيعي لمسألة استجوابه من قبل مجموعة من الأجانب، وقال بشيء من الحرج: بالنسبة للآنسة ديبنهام، يمكنك أن تعتمد عليّ في أنها امرأة جيدة.

وحين انصرف بعيداً شرد بوارو بذهنه قليلاً وهو ينقر لحناً على الطاولة ثم نظر إلى الأعلى وقال: إن العقيد آربوثنوت يدخن الغليون، وقد عثرتُ على منظف غليون في مقصورة السيد راتشيت الذي كان يدخن السيغار فقط.

- هل تظن...؟

- إنه الرجل الوحيد الذي اعترف بأنه يدخن الغليون وقد عَرَف عن العقيد آرمسترونغ وربما كان يعرفه شخصياً لكنه لم يعترف بهذا.

- إذن فأنت ترى أن من الممكن...

هز بوارو رأسه نافياً بعنف وقال: ولكن هذه هي المشكلة، إنه مستحيل... مستحيل أن يعمد إنكليزي مستقيم لا يخلو من بلاهة إلى طعن عدوه اثنتي عشرة مرة بسكين! ألا تشعر بمدى استحالة هذا التصرف يا صديقي؟

قال السيد بوك: هذا هو الجانب السيكولوجي.

- يجب على المرء أن يحترم الجانب السيكولوجي. إن هذه

الجريمة تحمل توقيعاً، ولكنه بالتأكيد ليس توقيع العقيد آربوثنوت. والآن إلى مقابلتنا التالية.

في هذه المرة لم يذكُر السيد بوك الرجل الإيطالي، ولكنه فكر فيه.

* * *

الفصل التاسع

إفادة السيد هاردمان

كان آخر مسافر من الدرجة الأولى تتم مقابلته هو السيد هاردمان، وهو الأميركي الضخم المحب للظهور، الذي شارك الرجل الإيطالي والخادم على طاولة الطعام.

كان يلبس بدلة ذات نقش مربع وألوان صارخة بعض الشيء وقميصاً وردياً ودبوساً لامعاً يمسك بربطة عنقه، وكان وجهه ضخماً ممتلئاً ذا ملامح خشنة وسمته يوحي بطبيعة مرحة.

قال: صباح الخير أيها السادة، بماذا أستطيع أن أفيدكم؟

- هل سمعت بجريمة القتل هذه يا سيد... هاردمان؟

- بالتأكيد.

- إننا نقابل جميع الركاب على القطار من باب الضرورة.

- لا بأس بذلك بالنسبة إليّ، وأظن أن هذه هي الطريقة الوحيدة للقيام بهذا العمل.

نظر بوارو إلى جواز السفر الموضوع أمامه وقال: أنت سايروس هاردمان، مواطن أميركي، وعمرك ٤١ عاماً، وأنت مندوب مبيعات متنقل لشرائط الآلات الطابعة؟

- نعم؛ هذا أنا.

- وهل أنت مسافر من إسطنبول إلى باريس؟

- هذا صحيح.

- والسبب؟

- عمل.

- هل تسافر دوماً بالدرجة الأولى يا سيد هاردمان؟

- نعم؛ فالشركة تدفع لي مصاريف السفر.

- والآن يا سيد هاردمان، نأتي إلى أحداث الليلة الماضية.

أومأ الأمريكي برأسه موافقاً، فسأله بوارو: ماذا تستطيع أن تخبرنا عن الموضوع؟

- لا شيء أبداً.

- آه، يا للأسف! ربما تستطيع -يا سيد هاردمان- أن تخبرنا ماذا فعلت بالضبط ليلة أمس بعد العشاء؟

لأول مرة لم يبدُ الأمريكي جاهزاً بإجابته، وأخيراً قال: اعذروني أيها السادة، ولكن من أنتم بالضبط؟ أعلموني بذلك.

- هذا هو السيد بوك مدير شركة الخطوط العالمية، وهذا السيد هو الطبيب الذي فحص الجثة.

- وأنت؟

- أنا هيركيول بوارو، وقد طلبتْ مني الشركة أن أحقق في الأمر.

قال السيد هاردمان: "لقد سمعت عنك". وفكّر لدقيقة أو اثنتين ثم قال: من الأفضل أن أفضي بما لدي.

قال بوارو: إنه لمن الحصافة بالتأكيد أن تخبرنا بكل ما تعرف.

- لقد كنتَ محقاً تماماً لو أنني أعرف شيئاً بالفعل، ولكني لا أعرف. لا أعرف شيئاً كما قلت، ولكن كان من المفروض أن أعرف، وهذا ما يؤلمني... كان يجب أن أعرف.

- أرجو تفسير ذلك يا سيد هاردمان.

تنهد السيد هاردمان ثم مدّ يده إلى جيبه، وفي نفس الوقت بدا أن شخصيته كلها قد تغيرت وأصبح رجلاً حقيقياً أكثر منه ممثلاً، وتغيرت قليلاً نبرة صوته التي كانت تصدر من الأنف. قال: جواز السفر ذلك زائف بعض الشيء، وهذه هي شخصيتي الحقيقية.

تمعن بوارو بالبطاقة التي ناوله إياها، ونظر السيد بوك من فوق كتفه فقرأ: "السيد سايروس ب. هاردمان، وكالة مكنيل للتحريات، نيويورك".

عرف بوارو اسم الوكالة، فقد كانت واحدة من أكثر وكالات التحريات الخاصة شهرة واحتراماً في نيويورك. قال: حسناً يا سيد هاردمان، فلنسمع منك معنى هذا.

- بالتأكيد، فقد حصلت الأمور كالتالي: أتيتُ إلى أوروبا أتتبع أثر مُجرمين اثنين، وليس لذلك أية علاقة بهذه القضية. وانتهت المطاردة في إسطنبول وأبرقت إلى الرئيس فأعطاني تعليماته بالرجوع، وكنت سأذهب في طريق عودتي إلى نيويورك لولا أنني استلمت هذه.

دفع برسالة عبر المائدة، وكانت مكتوبة على الورق الرسمي لفندق توكاتليان، وقد جاء فيها:

سيدي العزيز،

لقد تم إعلامي بأنك أحد موظفي وكالة مكنيل للتحريات، أرجو أن تأتي إلى الجناح الذي أقيم فيه، في الساعة الرابعة من هذا المساء.

س. راتشيت

قال بوارو: حسناً، وبعد؟

- ذهبت إلى السيد راتشيت في الوقت المذكور فأعلمني بالوضع، حيث أطلعني على رسالتين وصلتاه.

- أكان خائفاً؟

- تظاهر بأنه غير خائف، إلا أنه كان خائفاً فعلاً. وقد قدم

لي عرضاً بأن أسافر معه على نفس القطار حتى باريس وأتأكد ألاّ يصل إليه أحد. حسناً أيها السادة، لقد سافرت معه ولكن -رغم ذلك- وصل أحدهم إليه. وإنني متألم لذلك حقاً، إذ لا يبدو هذا جيداً في حقي.

- هل أرشدك إلى ما يجب عليك أن تقوم به؟

- بالتأكيد؛ لقد كانت لديه خطة معينة، وكان من رأيه أن أشغل المقصورة التي بجانب مقصورته، إلاّ أن ذلك لم يتحقق، والمكان الوحيد الذي استطعتُ الحصول عليه هو المقصورة رقم ١٦ ولكن بصعوبة بالغة، وأظن أن مسؤول التذاكر يحب أن يتركها للطوارئ. ولكن هذا لا يعنينا... عندما نظرت إلى الوضع بأكمله وجدتُ أن موقع المقصورة رقم ١٦ استراتيجي جداً؛ فلم يكن أمام عربة إسطنبول سوى عربة المطعم، وكان باب العربة الأمامي الذي يؤدي إلى الرصيف يُغلَق أثناء الليل، فالمكان الوحيد -إذن- الذي يمكن أن يدخل منه المجرم هو إما عن طريق باب العربة الخلفي أو من العربات الخلفية للقطار. وفي أي من هاتين الحالتين لا بد من أن يمر أمام مقصورتي.

- لا أظنك كنتَ تعلم شيئاً عن هوية القاتل المحتمل؟

- أعرف كيف يبدو، فقد وصفه لي السيد راتشيت.

- ماذا؟

مال ثلاثتهم إلى الأمام بشغف، ومضى هاردمان في حديثه: رجل صغير أسمر ذو صوت نسائي. هذا ما قاله لي العجوز، وقال

لي أيضاً إنه لا يظن بأن شيئاً سيحدث في الليلة الأولى ولكن على الأغلب في الثانية أو في الثالثة.

قال السيد بوك: لقد كان يعرف شيئاً.

قال بوارو مفكراً: كان يعرف أكثر مما قاله لسكرتيره بالتأكيد. هل أخبرك شيئاً عن عدوه هذا؟ هل قال لماذا كانت حياته مهددة مثلاً؟

- لا. كان متكتماً نوعاً ما حول هذا الجزء، وكل ما قاله هو أن الرجل يسعى لقتله وهو مصمم على ذلك.

قال بوارو مفكراً: رجل صغير أسمر ذو صوت نسائي!

ثم صوب نظرة حادة نحو هاردمان وقال: لقد كنت تعرف بالطبع من هو حقاً؟

- مَن؟

- راتشيت. لقد عرفتَه أليس كذلك؟

- لا أفهمك.

- لقد كان راتشيت هو كاسيتي؛ القاتل في قضية آرمسترونغ.

أطلق السيد هاردمان صَفْرة طويلة وقال: هذه حقاً مفاجأة كبيرة! لا، لم أعرفه؛ فقد كنت بعيداً في الغرب عندما حدثت تلك القضية. أظنني رأيت صوراً له في الصحف ولكنني لا أستطيع أن أعرف حتى أمي عندما يتولى مصور الصحف تصويرها. لا أشك أن

بعض الناس كانوا يتربصون بكاسيتي.

- هل تعرف أحداً على صلة بقضية آرمسترونغ ممن تنطبق عليه تلك الأوصاف: صغير أسمر ذو صوت نسائي؟

فكر هاردمان لدقيقة أو اثنتين ثم قال: يصعب الجزم بذلك، فجميع من لهم علاقة بتلك القضية تقريباً قد ماتوا.

- كانت هناك الفتاة التي ألقت بنفسها من النافذة، أتذكر ذلك؟

- بالتأكيد، وهذه نقطة جيدة. لقد كانت أجنبية، وربما كان لها أقارب إيطاليون. ولكن يجب أن تتذكر أن كاسيتي كان متورطاً بقضايا أخرى غير قضية آرمسترونغ، فقد استمر كاسيتي في الاختطاف لبعض الوقت ولا تستطيع أن تركّز على هذه القضية فقط.

- نعم، ولكن لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه الجريمة مرتبطة بقضية آرمسترونغ.

صوب السيد هاردمان نظرة مستفسرة نحوه، إلا أن بوارو لم يفصح عن كلامه. فهز الأميركي رأسه وقال ببطء: لا أستطيع أن أتذكّر أي شخص تنطبق عليه هذه الأوصاف في قضية آرمسترونغ، ولكنني لم أكن معنياً بتلك القضية ولا أعرف الكثير عنها على أية حال.

- حسناً يا سيد هاردمان، أكمل سردك.

- لا يوجد الكثير لأقوله، فقد كنت أنام في النهار وأظل مستيقظاً في الليل لأراقب. ولم يحدث شيء خلال الليلة الأولى

ولا في الليلة الماضية على حد علمي. فقد تركت باب مقصورتي مفتوحاً قليلاً وبقيت أراقب، إلاّ أن أحداً غريباً لم يمر.

- هل أنت متأكد من ذلك يا سيد هاردمان؟

- أنا متأكد تماماً؛ فلم يصعد أحد إلى القطار من الخارج، ولم يأتِ أحد من العربات الأخرى إلى تلك العربة. وإنني أستطيع أن أقسم على ذلك.

- هل كنت تستطيع رؤية مسؤول التذاكر من موقعك؟

- بالتأكيد؛ فهو يجلس على ذلك الكرسي الصغير على مستوى باب مقصورتي.

- هل غادر ذلك الكرسي أبداً بعدما توقف القطار في فينكوفشي؟

- أكانت تلك المحطة الأخيرة؟ نعم، لقد ردّ على جرسين بعد أن توقف القطار تماماً، ثم بعد ذلك مرّ أمامي إلى العربة الخلفية، وبقي هناك نحو ربع ساعة، ثم بدأ جرسٌ يقرع بجنون فعاد يركض. وقد وقفتُ في الممر لأرى ما الأمر، إذ توترت أعصابي بعض الشيء، ولم تكن سوى تلك المرأة الأميركية التي أحدثت ضجة كبرى لسببٍ ما مما جعلني أضحك. ثم ذهب إلى مقصورة أخرى وعاد وأخذ زجاجة من المياه المعدنية لشخص ما، وبعد ذلك جلس في كرسيه إلى أن ذهب إلى الطرف الآخر من العربة ليُعِدّ سرير شخص ما، ولا أظنه تحرك من مكانه بعد ذلك حتى الخامسة من هذا الصباح.

- هل رأيته يغفو قط؟

- هذا ما لا أستطيع الجزم به. ربما فعل.

هز بوارو رأسه، وبحركة آلية رتب الأوراق أمامه على الطاولة، ثم حمل البطاقة الرسمية مرة أخرى وقال: هلاً تلطفت ووضعت توقيعك على هذه.

استجاب هاردمان لطلبه، فسأله: هل يوجد أحد يستطيع أن يؤكد ما قلته عن هويتك يا سيد هاردمان؟

- على هذا القطار؟ لا أظن. إلاّ إذا كان الشاب ماكوين، فأنا أعرفه جيداً حيث رأيته في مكتب أبيه في نيويورك، ولكن هذا لا يعني أنه يستطيع التعرف إليّ من بين حشد من موظفي الوكالة. لا يا سيد بوارو، يجب أن تنتظر حتى تخفّ الثلوج وتبرق إلى نيويورك. ولكن لا عليك، فلم أختلق لك قصة. مع السلامة إذن يا سادة، وقد سررت بلقائك يا سيد بوارو.

سأله بوارو وهو يغادر: هل تدخّن الغليون؟

- لستُ من مستخدميه.

تبادل الرجال الثلاثة النظرات، ثم سأل الدكتور كونستانتين: أتظنه صادقاً؟

- نعم، نعم. أعرف هذا النوع من الرجال، وبالإضافة إلى ذلك فهذه قصة يسهل فحصها.

قال السيد بوك: لقد أعطانا دليلاً مثيراً جداً.

- نعم حقاً.

قال السيد بوك متأملاً: رجل صغير أسمر ذو صوت نسائي.

قال بوارو: إنه وصف لا ينطبق على أحد في هذا القطار.

* * *

الفصل العاشر

إفادة الإيطالي

قال بوارو وعيناه تلمعان: والآن سوف نسعد قلب السيد بوك ونرى الرجل الإيطالي.

دخل أنطونيو فوسكاريللي عربة المطعم بخطوة سريعة كخطوة القط. كان وجهه مشرقاً ومثالاً للوجه الإيطالي وأسمر من أثر الشمس، وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ولكن بلكنة بسيطة جداً.

- هل اسمك هو أنطونيو فوسكاريللي؟

- نعم يا سيدي.

- أرى أنك مُتجنس بالجنسية الأميركية؟

ابتسم وقال: نعم؛ فهذا أفضل لأعمالي.

- أنت وكيل لسيارات فورد؟

- نعم، فالأمر كما ترى...

تبع ذلك شرح مهذار، وفي نهايته عرف الرجال الثلاثة كل شيء عن أعمال فوسكاريللي وطرقه ورحلاته ودخله ورأيه في الولايات المتحدة وفي الدول الأوروبية، ولم يغب عنهم من تلك المعلومات إلاّ ما لا يؤبَه له. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين تضطر لسحب المعلومات منهم، فقد كانت تتدفق منه اندفاعاً.

أشرق وجهه الطفولي الطيب بالرضا عندما توقف أخيراً كتعبير بلاغي أخير، ومسح جبهته بمنديل قائلاً: لذلك فإنني أقوم بصفقات كبرى كما ترون، وأنا متابع لآخر المستجدات وأفهم فنون البيع!

- إذن فقد بقيت في الولايات المتحدة خلال السنوات العشر الماضية، بما في ذلك رحلاتك خارجها؟

- نعم يا سيدي. آه! ما زلت أذكر اليوم الأول الذي ركبت فيه السفينة إلى أميركا. كانت بعيدة جداً، وأمي وأختي الصغيرة...

أوقف بوارو طوفان الذكريات هذا قائلاً: هل صدف أن التقيت بالقتيل أثناء تنقلك في الولايات المتحدة؟

- أبداً، إلاّ أنني أعرف من أي نوع هو. آه، نعم! إنه يبدو محترماً جداً ويلبس ملابس جيدة جداً، ولكنه فاسد من الداخل. وأستطيع أن أقول -من خبرتي- إنه محتال كبير، وهذا هو رأيي الخاص.

قال بوارو: إن رأيك صحيح تماماً؛ فراتشيت كان كاسيتي المختطف.

- بماذا أخبرتكم؟ لقد تعلمت أن أكون حاذقاً في قراءة الوجوه، وهذا ضروري. في أميركا فقط يعلّمون الناس كيف يبيعون بالطريقة الصحيحة.

- هل تذكر قضية آرمسترونغ؟

- لا أذكر تماماً. أتعني اسم آرمسترونغ؟ أظنها كانت طفلة صغيرة، أليس كذلك؟

- بلى، وكانت مأساة كبيرة.

يبدو أن الإيطالي هو أول شخص يعترض على هذا الرأي، فقد قال متفلسفاً: آه، تحدث مثل هذه الأمور في حضارة عظيمة كأميركا...

قاطعه بوارو قائلاً: هل صدف أن التقيت قط بأحد أفراد عائلة آرمسترونغ؟

- لا؛ لا أظن ذلك. ولكن يصعب علي الجزم. سأعطيك بعض الأرقام: في العام الماضي وحده بعت...

- سيدي، أرجوك أن تلتزم بموضوع السؤال.

رفع الإيطالي يديه بإشارة اعتذار وقال: ألف معذرة.

- أخبرني، إذا سمحت: كيف كانت تحركاتك بعد العشاء ليلة أمس.

- بكل سرور. مكثت على العشاء أطول فترة ممكنة، فهذا

أدعى إلى المتعة. وتحدثت إلى الرجل الأميركي الذي كان يجلس إلى طاولتي (الذي يبيع شرائط آلات الطباعة)، ثم عدت إلى مقصورتي ووجدتها فارغة، حيث كان الرجل التعس الذي يشاركني فيها عند سيده ينفذ له طلباته. وأخيراً عاد بوجهٍ جامد كالعادة، ولم يتحدث كثيراً؛ فكل ما يقوله هو "نعم" و"لا". إنهم عرق غريب، هؤلاء الإنكليز... ليس فيهم ذلك التعاطف. وقد جلس مشدوداً في الركن يقرأ كتاباً، ثم أتى مسؤول التذاكر فأعدّ سريرَيْنا.

تمتم بوارو: رقمي ٤ و٥.

- بالضبط، في المقصورة الأخيرة، وسريري هو العلوي منهما. صعدت هناك فدخّنتُ وقرأت، وكان الإنكليزي الصغير يعاني من ألم في أسنانه على ما أظن فأخرج زجاجة صغيرة تحتوي على مادة ذات رائحة نفّاذة، ثم استلقى في سريره وبدأ يتأوه. أما أنا فقد نمت، وكلما صحوت كنت أسمعه يتأوه.

- هل غادر المقصورة أثناء الليل؟

- لا أظن ذلك، ولو فعل لكنتُ سمعته، كما أن الضوء الذي يدخل المقصورة من الممر عندما يُفتح الباب يوقظني آلياً؛ إذ يظن المرء أنه وصل إلى نقطة جمارك الحدود.

- هل تكلم قط عن سيده؟ هل أبدى أية عداوة تجاهه؟

- أخبرتك أنه لم يتكلم كثيراً ولم يكن عاطفياً. كان كالسمكة؛ بلا عواطف.

- قلتَ إنك تدخن... ماذا؟ الغليون؟

- بل لفائف التبغ فقط.

عرض عليه بوارو واحدة فقبلها، وسأله السيد بوك: هل ذهبت إلى شيكاغو قط؟

- نعم، ولكن المدن التي أعرفها أكثر هي نيويورك وواشنطن وديترويت. هل ذهبتَ أنت إلى أميركا؟ لا؟ يجب أن تذهب. إنها...

دفع بوارو بورقة أمامه وقال: هلاّ وقّعتَ هذه وكتبت عنوانك عليها إذا سمحت؟

كتب الإيطالي بكل أريحية، ثم نهض وهو يبتسم ابتسامته الآسرة كعهدها دوماً وقال: أهذا كل ما لديكم؟ طاب يومكم أيها السادة، وأتمنى لو نستطيع أن نخرج من هذه الثلوج، فلديّ موعد في ميلانو...

هز رأسه بأسى ثم قال: "سوف أخسر الصفقة"، ثم غادر العربة.

نظر بوارو نحو صديقه، فقال بوك: لقد أمضى فترة طويلة في أميركا، وهو إيطالي، والإيطاليون يستخدمون السكاكين، وهم كثيرو الكذب! إنني لا أحب الإيطاليين.

قال بوارو مبتسماً: حسناً. قد تكون على حق، ولكنني أود أن أوضح لك -يا صديقي- بأنه لا يوجد دليل أبداً ضد الرجل.

- وماذا عن الأمور السيكولوجية؟ ألا يطعن الإيطاليون؟

قال بوارو: بالتأكيد، وخصوصاً في حمأة مشاجرة ساخنة. ولكن هذه... هذه جريمة من نوع مختلف، ولديّ فكرة صغيرة - يا صديقي - بأنه قد تم التخطيط لهذه الجريمة وارتكابها بعناية فائقة. إنها جريمة تنمّ عن بعد في النظر وتركيز في التخطيط، إنها ليست جريمة لاتينية تتم في فورة غضب، بل جريمة تُظهر آثاراً لعقل بارد متطور وواسع الحيلة، وأظنه عقلاً أنكلوسكسونياً.

ثم تناول آخر جوازين وقال: دعونا الآن نقابل الآنسة ماري ديبنهام.

* * *

الفصل الحادي عشر

إفادة الآنسة ديبنهام

عندما دخلت ماري ديبنهام عربة المطعم تأكّد بوارو من رأيه السابق فيها. كانت متأنقة جداً بملابسها، إذ كانت تلبس بدلة سوداء وقميصاً فرنسياً رمادي اللون. وكانت تموجات شعرها الأسود مرتبة هادئة، كما كان سلوكها هادئاً مستقراً كشعرها.

جلست مقابل بوارو والسيد بوك ونظرت نحوهما مستفسرة، فبدأ بوارو قائلاً: اسمك ماري هيرميون ديبنهام، وعمرك ستة وعشرون عاماً؟

- نعم.

- وأنت إنكليزية؟

- نعم.

- هلاّ تلطفتِ -يا آنسة- وكتبت عنوانك على هذه الورقة؟

استجابت لطلبه، وكانت كتابتها واضحة ومقروءة.

- والآن يا آنستي، ماذا لديك لتخبرينا به عن ليلة أمس؟

- أخشى من أنه لا يوجد لديّ ما أقوله؛ فقد أويتُ إلى سريري ونمت.

- هل حزنتِ كثيراً لأن جريمة قد ارتُكبت على هذا القطار يا آنسة؟

من الواضح أن السؤال لم يكن متوقعاً؛ فقد اتسعت عيناها الرماديتان قليلاً وقالت: أنا لا أفهمك تماماً.

- لقد طرحتُ سؤالاً بسيطاً جداً يا آنسة، وسوف أعيده: هل حزنتِ كثيراً لأن جريمة قتل قد ارتُكبت على هذا القطار؟

- لم أفكر بالأمر من هذه الزاوية حقاً. لا، لا يمكنني القول إنني حزنتُ أبداً.

- هل الجرائم أمر طبيعي في حياتك اليومية؟

قالت ماري دبنهام بهدوء: من الطبيعي أن حدوث هذا أمر كريه.

- أنت أنكلوسكسونية صرفة يا آنسة؛ لا مكان لديك للعواطف.

ابتسمت قليلاً وقالت: أخشى أنني لستُ مضطرة للصراخ لأثبت عقلانيتي؛ فالناس يموتون يومياً.

- نعم يموتون، ولكن جرائم القتل أكثر ندرة بعض الشيء.

- آه، بالتأكيد.

- ألم تكوني على معرفة بالرجل الميت؟

- رأيته لأول مرة عندما تناولنا الغداء هنا يوم أمس.

- ماذا كان شعورك نحوه؟

- لم أكد ألاحظه.

- ألم تشعري بأنه شخصية شريرة؟

رفعت كتفيها قليلاً وقالت: لا أستطيع أن أقول إنني فكرت في ذلك حقاً.

نظر بوارو نحوها بحدّة، ثم قال وهو يرمش بعينيه: أظن أنك تزدرين قليلاً الطريقة التي أجري بها تحقيقي وتظنين أنها ليست الطريقة التي يتم بها التحقيق في إنكلترا؛ فكل شيء هناك واضح ومباشر، والأمر يقتصر على الحقائق، ويكون التحقيق عملية مرتبة منظمة. أما أنا -يا آنسة- فإن لي شيئاً من التفرد؛ فأنا أنظر -أول ما أنظر- إلى الشاهد وأحلّل شخصيته وأُوجّه أسئلتي وفقاً لذلك. قبل دقائق قليلة كنت أسأل شخصاً يرغب في قول كل ما لديه من أفكار حول كل موضوع. في هذه الحالة أُبقي أسئلتي متعلقة بصلب الموضوع وأريده أن يجيبني بنعم أو بلا، هذا أو ذاك. ثم أتيتِ أنت، ورأيت فوراً أنك ستكونين مُنظّمة ومنهجية وأنك سوف تلتزمين بالنقطة التي أُثيرت وستكون إجابتك مختصرة وتقتصر على صلب الموضوع. ولأن الطبيعة البشرية شاذة بعض الشيء يا آنسة، فإنني

أسألك أسئلة مختلفة... أسألك عن شعورك وعن رأيك. ألا تعجبك هذه الطريقة؟

- أرجو أن تعذرني في قولي هذا، ولكن يبدو أن في هذا مضيعة للوقت نوعاً ما. إذ لا يبدو مرجحاً أن يساعد ارتياحي أو عدم ارتياحي لوجه السيد راتشيت على العثور على من قتله.

- هل تعرفين هوية راتشيت الحقيقية يا آنسة؟

أومأت برأسها بالإيجاب قائلة: لقد تولت السيدة هوبارد إبلاغ الجميع بذلك.

- وما هو رأيك بقضية آرمسترونغ؟

قالت الفتاة باقتضاب وسرعة: كانت بغيضة جداً.

نظر إليها بوارو مفكراً ثم قال: أظنك مسافرة من بغداد يا آنسة ديبنهام؟

- نعم.

- إلى لندن؟

- نعم.

- ماذا كنتِ تفعلين في بغداد؟

- كنت مربية لطفلين.

- هل ستعودين إلى عملك بعد الإجازة؟

- لست متأكدة.

- لماذا؟

- إن بغداد معزولة بعض الشيء، وأظنني أفضل عملاً في لندن إذا سمعتُ عن عمل مناسب.

- فهمت. ظننتُ أنك ربما ستتزوجين.

لم تُجِبْ الآنسة ديبنهام، بل رفعت عينيها وحدقت إلى وجهه مباشرة وكأن نظرتها تقول له: "أنت وقح".

- ما هو رأيك في السيدة التي تشاركك المقصورة، الآنسة أولسون؟

- تبدو شخصية لطيفة وبسيطة.

- ما هو لون قميص نومها؟

حدّقت إليه الآنسة ديبنهام وقالت: يميل إلى اللون البني... من الصوف الطبيعي.

- وأنت يا آنسة، هل لديك قميص نوم قرمزي مثلاً؟

- لا، هذا ليس لي.

مال بوارو إلى الأمام وكأنه قط يقفز على فأر وقال: لمن هو إذن؟

تراجعت الفتاة قليلاً وقد جفلت، ثم قالت: لا أعلم. ماذا تعني؟

- أنت لم تقولي: "لا، ليس عندي شيء كهذا". بل قلت: "هذا ليس لي"، مما يعني أنه يخُصّ شخصاً آخر.

أومأت برأسها موافقة، فقال بوارو: شخصاً آخر على هذا القطار؟

- نعم.

- لمن هو؟

- أخبرتك قبل قليل أنني لا أعلم. لقد نهضتُ في الخامسة من صباح اليوم وقد شعرت أن القطار قد توقف لفترة طويلة، وفتحت الباب ونظرت إلى الممر معتقدة بأننا ربما كنا في محطة ما، فرأيت امرأة في قميص نوم قرمزي في نهاية الممر.

- ألا تعلمين من هي؟ أكانت بيضاء أم سمراء أم رمادية الشعر؟

- لا أستطيع الجزم تماماً؛ فقد كانت تضع غطاء الرأس المثبت في أعلى قميص النوم ولم يكن باستطاعتي أن أرى سوى رأسها المغطى من الخلف.

- وكيف كانت بنيتها؟

- طويلة نوعاً ما ونحيلة على ما أعتقد، ولكن يصعب الحكم بذلك. وكان قميص النوم مطرزاً بأشكال التنين.

- نعم، نعم؛ هذا صحيح. أشكال التنين.

صمت لدقيقة ثم تمتم مع نفسه: لا أستطيع أن أفهم... لا أستطيع أن أفهم، لا معنى لكل هذه الأمور.

ثم قال وهو يرفع نظره إليها: لا حاجة لإبقائك هنا لفترة أطول يا آنسة.

- آه!

بدا أنها قد فوجئت بعض الشيء، ولكنها نهضت بسرعة. وعندما وصلت إلى الباب ترددت قليلاً ثم عادت قائلة: إن السيدة السويدية... الآنسة أولسون، تبدو قلقة وتقول إنك أخبرتها بأنها كانت آخر شخص يرى هذا الرجل حياً، وأحسبها تظن أنك تشُكّ فيها لهذا السبب. هل أستطيع أن أخبرها بأنها مخطئة في ذلك؟ إنها من النوع الذي لا يؤذي ذبابة.

ابتسمت قليلاً وهي تتكلم، فسألها بوارو: متى ذهبتِ لتحضر الأسبرين من السيدة هوبارد؟

- بعد العاشرة والنصف بقليل.

- وكم هي المدة التي غابتها؟

- نحو خمس دقائق.

- هل غادرت المقصورة ثانية أثناء الليل؟

- لا.

التفت بوارو إلى الطبيب وقال: هل يمكن أن يكون راتشيت

قد قُتل في ذلك الوقت المبكر؟

هز الطبيب رأسه نافياً، فقال لها بوارو: إذن أعتقد أنك تستطيعين أن تُطمئني صديقتك يا آنسة.

- شكراً لك.

ابتسمت له فجأة ابتسامة تدعو إلى العطف وقالت: "إنها خنوعة كنعجة، وهي كثيرة القلق والشكوى". ثم استدارت وخرجت.

* * *

الفصل الثاني عشر

إفادة الخادمة الألمانية

نظر بوك نحو صديقه بفضول وقال: إنني لا أفهمك أبداً يا صديقي العزيز، ما الذي تحاول أن تفعله؟

- كنت أبحث عن ثغرة ما يا صديقي.

- ثغرة؟

- نعم؛ ثغرة في درع رباطة جأش سيدة شابة... أحببتُ أن أهز هدوءها. هل نجحت؟ لا أعلم، ولكنني أعلم أنها لم تتوقع مني معالجة الأمر بهذه الطريقة.

قال السيد بوك ببطء: أنت تشك فيها، ولكن لماذا؟ إنها تبدو شابة بريئة تماماً، وكأنها آخر شخص في العالم يمكن أن يتورط في جريمة من هذا النوع.

قال كونستانتين: أوافقك على ذلك؛ فهي هادئة وخالية من العواطف ولا يمكن أن تطعن رجلاً، بل من شأنها أن تقاضيه في المحاكم.

تنهد بوارو وقال: يجب عليكما أن تتخليا عن تعلقكما بفكرتكما القائلة إن هذه جريمة حدثت فجأة من دون سابق تدبير. أما عن السبب في أنني أشك في الآنسة دبنهام فلدي سببان لا واحد؛ الأول هو أنني سمعت حديثاً لا تعلمون عنه شيئاً بعد.

ثم أعاد عليهما العبارات المتبادلة التي سمعها خلال الرحلة في حلب، وعندما انتهى قال السيد بوك: هذا غريب بالتأكيد، وهو بحاجة إلى إيضاح، فإذا كان ذلك يعني ما تظن أنه يعنيه، فإنه يدل على أنهما متورطان معاً، هي والرجل الإنكليزي المتصلب.

هز بوارو رأسه موافقاً وقال: وهذا تماماً ما لا تثبته الحقائق، فلو كانا متورطين معاً فماذا نتوقع أن نجد: سنجد أن كلاً منهما سيشهد للآخر بشهادة دفع بالغيبة، أي شهادة تؤكد عدم وجود أحدهما في مكان الجريمة وقت وقوعها، أليس كذلك؟ ولكن هذا ما لم يحدث، فشهادة غياب الآنسة دبنهام جاءت من امرأة سويدية لم ترها أبداً من قبل، وشهادة غياب العقيد آربوثنوت جاءت من السيد ماكوين، سكرتير الرجل الميت. لا، إن هذا الحل للغز أسهل من أن يكون صحيحاً.

ذكّره السيد بوك قائلاً: قُلتَ إن لديك سبباً آخر لارتيابك فيها.

ابتسم بوارو وقال: آه، إنه سبب سيكولوجي فقط؛ إذ سألتُ نفسي: هل من الممكن أن تكون الآنسة دبنهام قد خططت لهذه الجريمة؟ أنا مقتنع بأن هذه الجريمة تمت عن عقل هادئ ذكي واسع الحيلة، وهذه الأوصاف تنطبق على الآنسة دبنهام.

هز السيد بوك رأسه نافياً وقال: أظن أنك مخطئ يا صديقي، فلا أتخيل تلك الفتاة الإنكليزية مجرمة.

قال بوارو وهو يتناول جواز السفر الأخير: آه، حسناً. والآن إلى آخر اسم على قائمتنا: هيلداغارد شميدت، الخادمة الألمانية.

استُدعيت هيلداغارد شميدت بواسطة المسؤول ودخلت إلى عربة المطعم ووقفت تنتظر باحترام، فأشار إليها بوارو بالجلوس.

فعلت ذلك وقد ضمّت يديها معاً وانتظرت بهدوء حتى بدأ يسألها. بدا أنها واثقة جداً ومحترمة جداً، ولعلها لم تكن شديدة الذكاء.

كانت طريقة بوارو مع هيلداغارد شميدت بعكس الطريقة التي عامل بها ماري دبنهام تماماً. كان في ألطف حالاته وأكثرها وداً، مما جعل المرأة ترتاح من ارتباكها، وبعد أن طلب منها كتابة اسمها وعنوانها انتقل بلباقة لطرح أسئلته.

قال: نريد أن نعرف أكبر قدر من المعلومات مما حدث ليلة أمس، ونحن نعلم أنك لا تستطيعين أن تعطينا الكثير من المعلومات عن الجريمة نفسها، ولكن ربما رأيتِ أو سمعتِ شيئاً مما ليس له وزن لديك ولكنه قد يكون ثميناً بالنسبة لنا. أتفهمين ذلك؟

لم يبدُ عليها أنها فهمت، وبقي وجهها العريض اللطيف في هدوئه الذي يميل إلى الغباء عندما أجابت: لا أعرف شيئاً يا سيدي.

- حسناً، ألا تعلمين -مثلاً- أن سيدتك أرسلت تطلبك ليلة أمس؟

- بلى، أعرف ذلك.

- هل تذكرين الوقت؟

- لا يا سيدي؛ فقد كنت نائمة عندما جاء المسؤول وأخبرني.

- نعم، نعم. هل تستدعيك بهذه الطريقة عادة؟

- نعم. لم يكن هذا غير عادي يا سيدي؛ فغالباً ما تحتاج السيدة الفاضلة إلى العناية أثناء الليل، فهي لم تكن تستطيع النوم جيداً.

- حسناً. وصلكِ الطلب ونهضت، هل لبست قميص نوم؟

- لا يا سيدي، بل لبست بعض الملابس؛ فلا أحب أن أذهب إلى سعادتها بقميص النوم.

- ولكنه قميص نومٍ رائع جداً، إنه قرمزي، أليس كذلك؟

حدقت إليه وقالت: إنه قميص قطني، ولونه أزرق غامق يا سيدي.

- آه! أكملي، كنت أمازحك قليلاً فقط. ثم ذهبتِ إلى الأميرة. فماذا فعلتِ عندما وصلت إلى هناك؟

- قمت بتدليكها يا سيدي، ثم قرأت لها بصوت مرتفع. وأنا لا أقرأ بشكل جيد، ولكن سعادتها تقول إن هذا أحسن، فهذا يجعلها تنام بصورة أسرع. وعندما نعستْ -يا سيدي- أخبرَتني أن أذهب فأغلقتُ الكتاب وعدتُ إلى مقصورتي.

- هل تعرفين متى كان الوقت حينئذ؟

- لا يا سيدي.

- حسناً، كم مكثت عند الأميرة؟

- نحو نصف ساعة يا سيدي.

- حسناً، أكملي.

- بعد ذلك أحضرت غطاءً إضافياً من مقصورتي؛ فقد كان الجو بارداً على الرغم من التدفئة، ووضعت الغطاء عليها فتمنَّتْ لي ليلة سعيدة. وسكبتُ لها كأساً من المياه المعدنية ثم أطفأت النور وغادرتُ المقصورة.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء يا سيدي. عدتُ إلى مقصورتي ونمت.

- ألم تقابلي أحداً في الممر؟

- لم أقابل أحداً يا سيدي.

- ألم تقابلي -مثلاً- سيدة تلبس قميص نوم قرمزياً مطرزاً بأشكال التنين؟

جحظت عيناها الهادئتان نحوه وقالت: أبداً يا سيدي. لم يكن هناك أحد سوى المسؤول، وكان الكل نياماً.

- هل رأيت مسؤول التذاكر؟

- نعم يا سيدي.

- ماذا كان يفعل؟

- خرج من إحدى المقصورات يا سيدي.

مال السيد بوك إلى الأمام وقال: ماذا؟ من أية مقصورة؟

بدت هيلداغارد شميدت خائفة، ومرة أخرى وجه بوارو نظرة توبيخ نحو صديقه وقال: هذا طبيعي، فغالباً ما يجيب المسؤول على أجراس الركاب في الليل. ألا تذكرين أية مقصورة كانت؟

- في منتصف العربة يا سيدي، وتبعد عن الأميرة ببابين أو ثلاثة.

- آه! أخبرينا -إذا سمحت- أين كان ذلك بالضبط وماذا حدث؟

- كاد أن يصطدم بي يا سيدي. حدث ذلك عندما كنت عائدة بالغطاء من مقصورتي إلى مقصورة الأميرة.

- خرج من المقصورة وكاد أن يصطدم بك؟ في أي اتجاه ذهب؟

- نحوي يا سيدي. اعتذر ومرّ عبر الممر نحو عربة المطعم، ثم بدأ جرس يرن ولا أظن أنه أجابه.

صمتت ثم قالت: إنني لا أفهم. كيف...

تكلم بوارو بهدوء قائلاً: إنها مسألة توقيت فقط، وهذا روتين طبيعي. يبدو أن المسؤول المسكين أمضى لَيْلَةً مشغولاً. أيقظك في البداية، ثم بدأ يجيب قرع الأجراس.

- لم يكن نفس المسؤول الذي أيقظني وإنما كان مسؤولاً آخر.

- آه، مسؤول آخر! هل رأيته من قبل؟

- لا يا سيدي.

- أتظنين أن بوسعك التعرف عليه إذا رأيته؟

- أظن ذلك يا سيدي.

تمتم بوارو في أذن السيد بوك، فنهض الأخير وذهب نحو الباب ليعطي أمراً.

وتابع بوارو أسئلته بأسلوب ودي وهادئ: هل ذهبت إلى أميركا قط يا سيدة شميدت؟

- أبداً يا سيدي، لا بد وأنها بلاد جميلة.

- ربما سمعت عن حقيقة الرجل الميت وأنه كان مسؤولاً عن قتل طفلة صغيرة.

- نعم؛ سمعت يا سيدي. كان ذلك شريراً ومثيراً للاشمئزاز. ولا يجب أن يُسمَح بمثل هذه الأمور. إننا لسنا أشراراً هكذا في ألمانيا.

اغرورقت عينا المرأة بالدموع وقد تحركت عاطفة أمومتها، فقال بوارو بأسى: لقد كانت جريمة مثيرة للاشمئزاز.

أخرج من جيبه منديلاً وناولها إياه قائلاً: أهذا منديلكِ يا سيدة شميدت؟

سادت لحظة صمت بينما كانت المرأة تفحص المنديل، ثم نظرت للأعلى وقد تورد وجهها قليلاً وقالت: لا بالتأكيد، إنه ليس لي يا سيدي.

- عليه الحرف «هـ» كما ترين؛ ولهذا اعتقدت أنه لكِ.

- هذا منديل سيدة مرموقة يا سيدي. إنه منديل ثمين ومطرز باليد وأظن أنه من باريس.

- إنه ليس لك، ولا تعلمين لمن هو؟

- أنا؟ آه، نعم يا سيدي، لا أعلم.

من بين الثلاثة الذين كانوا يستمعون كان بوارو هو الوحيد الذي لاحظ أثراً خفيفاً من التردد في إجابتها.

همس السيد بوك في أذنه، فهز بوارو رأسه وتحدث إلى المرأة قائلاً: سيأتي المسؤولون عن عربات النوم الثلاث، فهلاً تلطفتِ

وأخبرتني مَنْ منهم الذي قابلتِه ليلة أمس عندما كنت ذاهبة بالغطاء إلى الأميرة؟

دخل الرجال الثلاثة: بيير ميشيل، والمسؤول الأشقر الكبير من عربة أثينا-باريس، والمسؤول الضخم البدين من عربة بوخارست.

قالت: لا يا سيدي، إن الرجل الذي رأيته ليلة أمس ليس بينهم.

- ولكن هؤلاء هم المسؤولون الوحيدون على القطار، ولا بد من أنك مخطئة.

- أنا متأكدة يا سيدي. جميع هؤلاء الرجال ضخام وطوال، أما الذي رأيته فكان صغيراً وأسمر وذا شارب صغير، وعندما اعتذر مني كان صوته ضعيفاً كصوت النساء. حقاً إنني أتذكره جيداً يا سيدي.

* * *

الفصل الثالث عشر

مُلخّص لإفادات الرُكّاب

قال السيد بوك بعد أن خرج مسؤولو التذاكر الثلاثة وهيلداغارد شميدت: رجل صغير أسمر ذو صوت نسائي. إنني لا أفهم شيئاً... لا شيء من هذا أبداً! إن العدو الذي تكلم عنه راتشيت كان على القطار إذن، ولكن أين هو الآن؟ كيف استطاع أن يختفي في الهواء؟ إن رأسي يدور في دوامة. أرجوك قل شيئاً يا صديقي. أخبرني كيف يكون المستحيل ممكناً؟

قال بوارو: هذه عبارة جيدة. لا يمكن للمستحيل أن يحدث، ولذلك يجب أن يكون المستحيل ممكناً رغم كل المظاهر.

- أوضح لي بسرعة، ما الذي حدث فعلاً على القطار ليلة أمس؟

- أنا لست ساحراً يا عزيزي، أنا مثلك في حيرة؛ فهذه القضية تتطور بصورة غريبة جداً.

- إنها لا تتطور، بل تظل حيث هي.

هز بوارو رأسه نافياً وقال: لا؛ هذا ليس صحيحاً. لقد تقدمنا أكثر، وبتنا نعرف أشياء محددة، وقد سمعنا إفادات الركاب.

- وبماذا أفادنا ذلك؟ لا شيء أبداً.

- ما كنت لأقول ذلك يا صديقي.

- ربما كنتُ أهوّل الأمر قليلاً. نعم، لقد أضاف الأميركي هاردمان والخادمة الألمانية شيئاً إلى معلوماتنا، إلاّ أن ذلك جعل الأمر كله أقل وضوحاً مما كان عليه.

قال بوارو مواسياً: لا، لا.

التفت السيد بوك نحوه وقال: تكلم إذن، دعنا نسمع حكمة هيركيول بوارو.

- ألم أخبرك أنني حائر مثلك؟ ولكننا نستطيع -على الأقل- أن نواجه مشكلتنا، ونستطيع أن نرتب ما لدينا من حقائق بمنهجية.

قال الدكتور كونستانتين: أكمل يا صديقي، أرجوك.

تنحنح بوارو ورتب ورقة أمامه ثم قال: دعونا نراجع القضية كما هو وضعها الآن: أولاً، أمامنا بعض الحقائق التي لا جدال فيها؛ فهذا الرجل (راتشيت أو كاسيتي) قد طُعِن في اثني عشر موضعاً وقُتل ليلة أمس. هذه هي الحقيقة الأولى.

قال السيد بوك وهو يؤشر إشارة ساخرة: أعترف لك بذلك، أعترف يا صديقي العزيز.

لم يبدُ أن هذه الملاحظة قد أزعجت بوارو، بل أكمل في

هدوء: سأتخطّى في الوقت الحاضر بعض الأمور الغريبة التي بحثتها سابقاً مع الدكتور كونستانتين، وسوف أتطرق إليها بعد قليل. أما الحقيقة التي تلي ذلك في الأهمية فهي في نظري الوقت الذي حدثت فيه الجريمة.

قال السيد بوك: ومرة أخرى فهذا أحد الأشياء القليلة التي نعرفها بالفعل، حيث ارتكبت الجريمة في الواحدة والربع من هذا الصباح؛ فكل شيء يدل على هذا.

- أنت تبالغ قليلاً... ليس كل شيء، ولكن المؤكد أن أدلة لا بأس بها تدعم وجهة النظر هذه.

- أنا سعيد لأنك تعترف بهذا على الأقل.

تابع بوارو بهدوء غير آبه لهذه المقاطعة: أمامنا احتمالات ثلاثة؛ الأول: أن الجريمة قد ارتُكبت -كما تقول- في الواحدة والربع، فإفادة المرأة الألمانية شميدت تدعم ذلك، كما وأنه متوافق مع تقرير الدكتور كونستانتين. الاحتمال الثاني: أن الجريمة وقعت بعد ذلك الوقت وأن دليل الساعة مزيّف عمداً. الاحتمال الثالث: أن الجريمة وقعت قبل ذلك وأن دليل الساعة مزيف عمداً لنفس السبب السابق. حسناً، لو تقبلنا الاحتمال الأول على أنه الأرجح والمدعوم بأدلة أكثر فإن علينا أن نتقبل بعض الحقائق التي تنتج عن ذلك؛ فلو أن الجريمة قد ارتُكبت في الواحدة والربع فلا يمكن أن يكون القاتل قد غادر القطار، وبناءً على ذلك فإن لدينا السؤال التالي: أين هو؟ ومن هو؟ دعونا -بداية- نتفحص الدليل بعناية. أول ما سمعنا عن وجود هذا الرجل الأسمر الصغير ذي الصوت النسائي من هاردمان،

فهو يقول إن راتشيت أخبره عن ذلك الرجل ووظّفه ليحرسه منه. لا يوجد دليل يؤيد ذلك وليس لدينا سوى كلام هاردمان لنعتمد عليه. دعونا بعد ذلك نتفحص السؤال التالي: هل هاردمان هو فعلاً الرجل الذي يزعم؛ أي هل هو رجل تحرٍّ لدى وكالة تحقيقات من نيويورك؟ ما هو مثير بالنسبة لي في هذه القضية هو أننا لا نملك الوسائل المتاحة للشرطة، فلا نستطيع أن نتحقق من الأوراق الثبوتية لأي من هؤلاء الناس، وعلينا أن نعتمد على الاستنتاج فقط، وهذا يجعل القضية أكثر إثارة؛ فلا يوجد عمل روتيني، والمسألة مسألة ذكاء. لهذا أسأل نفسي: هل نستطيع أن نتقبل زعم هاردمان عن هويته؟ لقد اتخذت قراري، وأنا أجيب على ذلك بالإيجاب. إننا -برأيي- نستطيع أن نتقبل قول هاردمان عن نفسه.

قال الدكتور كونستانتين: هل تعتمد على الحدس؟

- أبداً؛ فأنا أنظر إلى الاحتمالات. إن هاردمان يتنقل بجواز سفر مزيف مما يجعله موضع شك على الفور، وأول ما سيفعله الشرطة عندما يصلون إلى المكان هو أن يحتجزوا هاردمان ثم يبرقوا مستفسرين للتوثق من ادعاءاته. أما بالنسبة لمعظم الركاب فإنه يصعب معرفة شخصياتهم، وفي معظم الحالات لن يتم في الغالب القيام بذلك، خصوصاً وأنه لا يوجد ما يثير الشك حولهم. ولكن هذا الأمر سهل في حالة هاردمان، فإما أن يكون هو الرجل الذي يدّعيه أو غير ذلك، ولذلك فإنني أقول إن كل ما قاله سيتم إثبات صحته.

- هل تستبعده من دائرة الشك؟

- أبداً. لقد أخطأت فهمي؛ فقد توجد لدى أي محقق أميركي

أسبابه الخاصة لقتل راتشيت. ما أقوله هو أننا نستطيع أن نقبل ما قاله هاردمان عن نفسه، ولذلك فهذه القصة التي يقولها حول سعي راتشيت خلفه وتوظيفه له ليست بعيدة، وهي محتملة جداً، ولكنها ليست حقيقة مؤكدة. وإذا كنا سنقبل بها على أنها حقيقة فيجب أن نرى إن كان يوجد تأكيد لها. إننا نجد هذا التأكيد في مكان غير متوقَّع، وهو إفادة هيلداغارد شميدت؛ فوصفها للرجل الذي رأته في زي مسؤول التذاكر مطابق تماماً. هل لهاتين القصتين تأكيد آخر؟ نعم، يوجد؛ الزر الذي وجدته السيدة هوبارد في مقصورتها، وتوجد عبارة تتفق مع ذلك أيضاً لعلكما لم تلاحظاها.

- وما هي؟

- إنها حقيقة أنّ كلاً من العقيد آربوثنوت وهيكتور ماكوين ذكرا أن مسؤول التذاكر قد مرّ من أمام مقصورتهما. هما لم ينتبها إلى أهمية هذه الحقيقة، ولكن -يا سادة- لقد أفاد بيير ميشيل بأنه لم يغادر مقعده إلاّ في مناسبات معينة، وأيٌّ من تلك المناسبات ما كانت لتأخذه قرب آخر العربة أمام المقصورة التي كان يجلس فيها آربوثنوت وماكوين. ولذلك فإن هذه القصة (قصة الرجل الصغير الأسمر ذي الصوت النسائي الذي يلبس زي خطوط القطار) تؤكدها بصورة مباشرة أو غير مباشرة إفادات أربعة شهود.

قال الدكتور كونستانتين: تبقى نقطة صغيرة؛ فإذا كانت قصة هيلداغارد شميدت صحيحة فكيف حدث أن مسؤول التذاكر الحقيقي لم يذكر أنه رآها عندما أتى ليرد على جرس السيدة هوبارد؟

- لهذا تفسير على ما أظن؛ فعندما جاء ليردّ على السيدة هوبارد

كانت الخادمة عند سيدتها، وعندما عادت أخيراً إلى مقصورتها كان مسؤول التذاكر في الداخل عند السيدة هوبارد.

كان السيد بوك ينتظر بصعوبة حتى أكملا، قال وقد نفد صبره: نعم يا صديقي. ولكن بينما أنا معجب بحذرك وبطريقتك في التقدم خطوة خطوة، فإنني أقول إنك لم تتطرق -بعد- إلى النقطة مدار البحث. لقد اتفقنا جميعاً على أن هذا الرجل موجود، ولكن النقطة هي: إلى أين ذهب؟

هز بوارو رأسه مؤنباً وقال: أنت مخطئ وميّال إلى وضع العربة أمام الحصان! فقبل أن أسأل نفسي: "أين اختفى هذا الرجل؟" أسأل نفسي: "**هل هذا الرجل موجود حقاً؟**"؛ لأنه إذا كان هذا الرجل مجرد اختراع أو تلفيق فما أسهل أن يختفي! لذلك فإنني أحاول -في البداية- أن أثبت وجود مثل هذا الشخص من اللحم والدم.

- وطالما أننا وصلنا إلى حقيقة وجوده، فأين هو الآن؟

- يوجد جوابان فقط على ذلك يا عزيزي، فإما أنه ما يزال مختبئاً على القطار في مكان ينم عن عبقرية غير عادية لدرجة أننا لا نستطيع أن نفكر فيه، أو أنه -كما يمكن أن نقول- شخصان، أي أنه هو الشخص نفسه الذي كان يخافه السيد راتشيت، وفي نفس الوقت فهو مسافر على متن القطار تنكر بصورة جيدة لدرجة أن السيد راتشيت لم يعرفه.

قال السيد بوك وقد انفرجت أساريره: "هذه فكرة رائعة". ثم اغتمّ ثانية وقال: ولكن لديّ اعتراض واحد...

أكمل له بوارو العبارة قائلاً: وهو طول الرجل. أليس هذا ما كنت ستقوله؟ فقيما عدا خادم السيد راتشيت فإن جميع الركاب رجال ضخام: الإيطالي، والعقيد آربوثنوت، وهيكتور ماكوين، والكونت أندرينيه. إذن هذا يتركنا مع الخادم وهو افتراض بعيد. ولكن يوجد احتمال آخر: أتذكران الصوت النسائي؟ إن هذا يعطينا بديلاً، إذ قد يكون الرجل متنكراً كامرأة، أو أنها قد تكون فعلاً امرأة؛ فمن شأن امرأة طويلة تلبس ثياب الرجال أن تبدو رجلاً صغير الجسم.

- ولكن كان من المؤكد أن يعرف راتشيت...

- ربما كان يعرف بالفعل. ربما كانت تلك المرأة قد حاولت من قبل القضاء على حياته وهي تلبس ملابس الرجال لتنفذ عملها بصورة أفضل، ولعل راتشيت خمّن أنها قد تستعمل نفس الحيلة ثانية، ولذلك أخبر هاردمان أن يبحث عن رجل، ولكنه ذكر الصوت النسائي في نفس الوقت.

قال السيد بوك: إن هذا ممكن، ولكن...

- اسمع يا صديقي، أظن أن عليّ الآن أن أخبرك عن بعض المتناقضات التي لاحظها الدكتور كونستانتين.

سرد عليه بإسهاب الاستنتاجات التي وصل إليها هو والطبيب معاً حول طبيعة جراح الرجل الميت، فتأوّه السيد بوك وأمسك برأسه ثانية، فقال بوارو بعطف: أعلم، أعلم كيف تشعر تماماً، فالأمر يجعل الرأس في حالة دوار، أليس كذلك؟

صاح السيد بوك: إن الأمر كله كالخيال.

- تماماً؛ إنه سخيف ومُستبعَد... لا يمكن حدوثه. لقد قلتُ ذلك لنفسي، ومع ذلك فهذا ما حدث يا صديقي! ولا يستطيع المرء الهرب من الحقائق.

- إنه جنون!

- أليس كذلك؟ إنه أمر جنوني يا صديقي، إلى الحد الذي ينتابني معه أحياناً إحساس بأن الأمر بسيط للغاية... ولكن هذه مجرد واحدة من أفكاري الصغيرة.

تأوه السيد بوك قائلاً: قاتلان اثنان؟ وعلى متن قطار الشرق؟

كادت هذه الفكرة تدفعه إلى البكاء، أما بوارو فقال بانشراح: والآن دعونا نجعل الخيال أكثر خيالية. كان على القطار ليلة أمس غريبان اثنان؛ مسؤول التذاكر الذي وصفه لنا السيد هاردمان ورأته هيلداغارد شميدت كما رآه العقيد آربوثنوت والسيد ماكوين، وأيضاً المرأة ذات قميص النوم القرمزي (امرأة طويلة نحيلة)، وقد رآها بيير ميشيل والآنسة دبنهام والسيد ماكوين وأنا، وشمّ رائحة عطرها العقيد آربوثنوت. مَن تراها كانت؟ لا يوجد على القطار من تعترف بأن لديها قميص نوم قرمزياً، فهذه الأخرى قد اختفت. أكانت هي نفسها مسؤول التذاكر أيضاً أم أنها شخصية مختلفة تماماً؟ أين هما هذان الاثنان. وبالمناسبة، أين زي مسؤول التذاكر وقميص النوم القرمزي؟

نهض السيد بوك بلهفة وقال: آه! هذا شيء محدد يمكن البحث عنه. يجب أن نفتش أمتعة جميع الركاب. نعم، سيكون ذلك أمراً مفيداً.

نهض بوارو أيضاً وقال: سأطلق نبوءة.

- أتعرف أين هما؟

- لدي فكرة صغيرة.

- أين إذن؟

- ستجد قميص النوم القرمزي في أمتعة أحد الرجال وستجد زي مسؤول التذاكر بين أمتعة هيلداغارد شميدت.

- هيلداغارد شميدت؟ أتظنها...؟

- ليس ما تفكر فيه. سأضع لك الأمر بهذه الصورة: إذا كانت هيلداغارد شميدت مذنبة فربما يكون الزي في أمتعتها، أما إذا كانت بريئة فإنه سيكون في أمتعتها بالتأكيد.

بدأ السيد بوك يتكلم قائلاً: "ولكن كيف..."، ثم توقف وصاح: ما هذا الصوت الذي يقترب؟ إنه يكاد يشبه صوت محرك بخاري.

اقترب الصوت أكثر، وكان صوتاً نسائياً يُصدر صيحات واعتراضات، ثم فُتح الباب الواقع في نهاية عربة المطعم بشدة واندفعت السيدة هوبارد إلى الداخل وهي تصيح: إنه أمر فظيع جداً، أمر فظيع جداً... في كيس الحمام، كيس الحمام في مقصورتي... سكين عظيمة مغطاة بالدماء!

وفجأة وقعت إلى الأمام على كتف السيد بوك وقد أُغمي عليها.

* * *

الفصل الرابع عشر

سلاح الجريمة

غلبت قوة السيد بوك شهامته وهو يتخلص من السيدة المغمى عليها على الطاولة، وصاح الدكتور كونستانتين بأحد مسؤولي المطعم الذي جاء راكضاً فقال له الطبيب: ضع رأسها هكذا، وإذا صحتْ فأعطِها قليلاً من شراب الليمون. أتفهم؟

ثم أسرع خلف صاحبيه؛ فقد كان اهتمامه منصباً تماماً على الجريمة، ولم يهمّه أبداً إغماء واحدة من النساء الكهلات.

ولعل السيدة هوبارد قد استعادت وعيها بهذه الطريقة على نحو أسرع مما لو استُخدمت طرق أخرى، فبعد بضع دقائق كانت تجلس وتشرب عصير الليمون الذي قدمه لها المسؤول وبدأت تتحدث مرة أخرى: لا أستطيع وصف فظاعة هذا الأمر، ولا أحسب أحداً على هذا القطار يفهم شعوري. لقد كنتُ دائماً حساسة جداً منذ كنتُ طفلة، وإن مجرد منظر الدماء... آه! حتى الآن، عندما أفكر بذلك ينتابني شعور غريب.

في أثناء ذلك كان بوارو والسيد بوك قد هرعا يتبعهما الدكتور كونستانتين خارج عربة المطعم وعبر ممر عربة إسطنبول نحو مقصورة السيدة هوبارد.

بدا أن كل المسافرين على القطار اجتمعوا خارج الباب، وكان مسؤول التذاكر يحاول إبعادهم وقد بدت على وجهه نظرة انزعاج. كان يقول: لا يوجد هنا ما يمكن رؤيته...

قال السيد بوك: "دعوني أمر إذا سمحتم"، ثم حشر نفسه بين المسافرين الذين سدوا الطريق ودخل المقصورة يتبعه بوارو عن كثب.

قال مسؤول التذاكر وهو يتنهد بارتياح: أنا سعيد بقدومك يا سيدي، إذ يحاول الجميع أن يدخلوا. والمرأة الأميركية... يا للصيحات التي أطلقتها! حتى ظننتُ أنها هي الأخرى قد قُتلت! أتيتُ راكضاً فإذا بها تصرخ كالمجنونة، وقد صاحت بأنها يجب أن تجدك ثم غادرت صائحة بأعلى صوتها مُخبِرة كل من مرّتْ به في العربة بما حدث.

ثم أضاف وهو يشير بيده: إنها هنا يا سيدي، لم ألمسها.

كانت هناك حقيبة حمام مطاطية كبيرة معلقة على مقبض الباب الذي يصل إلى المقصورة التالية، وكان أسفل منها على الأرض خنجر مستقيم النصل ما زال حيث سقط من السيدة هوبارد. كان من النوع الرخيص الذي يحاكي الخناجر الشرقية، ذا مقبض نافر وشفرة حادّة من طرف واحد، وكانت على نصله بقع بدت أشبه

يبقع الصدأ.

التقطه بوارو بحذر وتمتم قائلاً: نعم، ما من شك. هذا هو سلاحنا المفقود بالتأكيد. ما رأيك يا دكتور؟

تفحصه الطبيب بينما قال له بوارو: لا داعي لشدة الحرص؛ فلن تكون عليه بصمات سوى بصمات السيدة هوبارد.

لم يستغرق فحص كونستانتين طويلاً، وما لبث أن قال: إنه سلاح الجريمة بالتأكيد؛ إن بوسعه تفسير جميع الجراح.

- أرجوك يا صديقي، لا تقل ذلك.

بدا الطبيب مدهوشاً، فقال له بوارو: لقد كثرت المصادفات أمامنا؛ فقد قرر شخصان أن يطعنا السيد راتشيت ليلة أمس. أما أن يختارا طعنه بسلاحين متماثلين تماماً فهذا ما يصعب تصوره.

قال الطبيب: بالنسبة لهذا الأمر لعل الصدفة لا تكون مستبعدة جداً كما قد يبدو للوهلة الأولى؛ فالآلاف من هذه الخناجر الشرقية المُقلَّدة تُصنَع وتُشحن إلى أسواق القسطنطينية.

قال بوارو: هذا لا يشكل لي عزاء كبيراً... أبداً.

نظر مفكراً نحو الباب الواقع أمامه ثم رفع حقيبة الحمام وعالج مقبض الباب، إلاّ أنه لم يفتح. وفوق يد الباب بمسافة قدم تقريباً كان مزلاج الباب ففتحه بوارو ثم حاول ثانية، إلاّ أن الباب بقي مغلقاً.

قال له الطبيب: لقد أقفلناه من الجانب الآخر. ألا تذكر؟

قال بوارو بشرود: هذا صحيح.

بدا أنه يفكر في شيء آخر، فقد قطّب حاجبيه وكأن الحيرة قد استبدت به.

قال السيد بوك: هذا يعطينا تفسيراً للأمور، أليس كذلك؟ يمر الرجل عبر هذه المقصورة، وبينما هو يغلق الباب خلفه تلمس يده حقيبة الحمام، وتخطر له فكرة سريعة فيدس الخنجر الملوث بالدماء بداخلها. وعندما تصحو السيدة هوبارد دون قصد منه ينسلّ من الباب الآخر إلى الممر.

تمتم بوارو: كما قلتَ؛ يبدو أن هذا ما حدث.

إلاّ أن الحيرة لم تغادر وجهه، فسأله السيد بوك: ما الأمر؟ يوجد شيء لم تقتنع به، أليس كذلك؟

صوّب بوارو نظرة سريعة نحوه وقال: ألم تستوقفك النقطة التي استوقفتني؟ نعم، لا يبدو أنها استوقفتك. لا بأس، إنها مسألة صغيرة.

أطلّ مسؤول التذاكر داخل المقصورة وقال: المرأة الأميركية عائدة إلى هنا.

بدا على الدكتور كونستانتين شيء من الشعور بالذنب، فقد شعر أنه عامل السيدة هوبارد بشيء من الإهمال، إلاّ أنها لم تحتفظ له بأي عتب حيث كانت طاقاتها مركزة على قضية أخرى. قالت عندما وصلت إلى الباب لاهثة: أودّ فقط أن أقول شيئاً بكل صراحة.

لن أبقى في هذه المقصورة، ولن أنام الليلة بها ولو دفعتم لي مليون دولار!

- ولكن يا سيدتي...

- أعلم ما الذي ستقوله، وإنني أخبرك من الآن بأنني لن أبقى هنا! إنني أفضل أن أجلس في الممر طول الليل.

ثم راحت تبكي وتنوح: آه! لو أن ابنتي تعلم فقط ماذا حلّ بي، لو أنها رأت حالي الآن...

قاطعها بوارو بحزم قائلاً: لقد أسأتِ فهمي يا سيدتي، فطلبك معقول جداً وسوف يتم نقل أمتعتك في الحال إلى مقصورة أخرى.

أنزلت السيدة هوبارد منديلها وقالت: أحقاً؟ آه، إنني أشعر بتحسن فوري. ولكن المؤكد أن جميع المقصورات مشغولة، إلاّ إذا عمد أحد السادة...

قال السيد بوك: سوف تؤخذ أمتعتك يا سيدتي خارج هذه العربة تماماً، وسوف تأخذين مقصورة في العربة التالية التي انضمت إلينا في بلغراد.

- هذا عظيم. أنا لست امرأة عصبية بطبيعتي، ولكن أن أنام في هذه المقصورة بجانب رجل ميت...

ارتعشت ثم قالت: إن هذا سوف يقودني إلى الجنون.

نادى السيد بوك: ميشيل، انقل هذه الأمتعة إلى مقصورة فارغة في عربة أثينا-باريس.

- نعم يا سيدي. أأضعها في المقصورة المماثلة لهذه؟ رقم ٣؟

قال بوارو قبل أن يتمكن صديقه من الإجابة: لا. أظن أنه سيكون من الأفضل للسيدة أن تأخذ مقصورة مختلفة تماماً، مقصورة رقم ١٢ على سبيل المثال.

- حسناً يا سيدي.

حمل المسؤول الأمتعة، والتفتت السيدة هوبارد نحو بوارو قائلة بامتنان: هذا تصرف لطيف منك. أؤكد لك أنني أقدِّر ذلك.

- لا عليك يا سيدتي، سنأتي معك ونتأكد من راحتك.

رافق الرجال الثلاثة السيدة هوبارد إلى مسكنها الجديد ونظرت حولها بسعادة قائلة: هذا رائع.

- أتناسبك يا سيدتي؟ إنها تشبه المقصورة التي تركتِها تماماً.

- هذا صحيح. ما عدا أنها تقابل الجهة الأخرى، ولكن هذا لا يهم فهذه القطارات تتجه مرة بهذا الاتجاه ومرة بغيره. لقد قلت لابنتي: "أريد مقصورة تكون متجهة نحو المحرك". فقالت: "إن هذا لن يفيدك يا أمي، فإذا نمت والقطار متحرك باتجاه ما، فعندما تستيقظين تجدينه يتحرك بالاتجاه الآخر". إنّ ما قالته صحيح تماماً. فمساء أمس دخلنا بلغراد باتجاه وخرجنا منها بالاتجاه الآخر.

- على أية حال، هل أنت راضية وسعيدة الآن يا سيدتي؟

- لا، لن أقول ذلك؛ فنحن عالقون في الثلوج ولا أحد يفعل شيئاً حيال ذلك وقاربي سيبحر بعد غد.

قال السيد بوك: كلنا واقعون في نفس المشكلة يا سيدتي... كل واحد منا.

اعترفت السيدة هوبارد قائلة: هذا صحيح، ولكن ما من أحد غيري عَبَرَ قاتلٌ مقصورته في منتصف الليل.

قال بوارو: إن ما يحيرني -يا سيدتي- هو كيف دخل الرجل إلى مقصورتك إذا كان الباب الموصل مقفلاً بالمزلاج كما تقولين. أأنت متأكدة من كونه مقفلاً بالمزلاج؟

- لقد عالجتْه السيدة السويدية أمام عيني.

- دعينا نُعِد تمثيل ذلك المشهد البسيط: كنتِ مستلقية في سريرك هكذا، وتقولين إنه لم يكن باستطاعتك أن تري القفل بنفسك؟

- نعم، بسبب حقيبة الحمام. آه، يا إلهي! يجب أن أحصل على حقيبة جديدة؛ إن مجرد النظر إلى هذه يصيبني بالغثيان.

تناول بوارو حقيبة الحمام وعلقها على مقبض الباب الذي يوصل إلى المقصورة التالية وقال: تماماً، لقد فهمت. إن المزلاج يقع تحت المقبض تماماً، والحقيبة تغطيه. لم يكن باستطاعتك أن تري -من حيث تجلسين- إن كان مقفلاً أم لا.

- هذا ما كنتُ أقوله لك تماماً.

- وقد وقفت السيدة السويدية (الآنسة أولسون) هكذا، بينك وبين الباب. فعالجته وأخبرتك بأنه مقفل.

- هذا صحيح.

- لا بأس يا سيدتي، ولكن لعلها ارتكبتْ خطأ، أترين ما أعني؟

بدا بوارو متلهفاً على إيضاح الأمر وهو يقول: إن المزلاج مجرد نتوء معدني، عندما يُدار إلى اليمين يقفل الباب وإذا تُرك مستقيماً يظل الباب مفتوحاً. لعلها حاوَلت فتح الباب فقط، وبما أنه كان مُقفلاً من الجهة الأخرى فلعلها ظنّتْ أنه مقفل من جهتك.

- أظن أن ذلك لو صحّ لكان غباء منها.

- يا سيدتي، إن ألطف الناس ليسوا هم الأذكى دائماً.

- هذا صحيح بالطبع.

- بالمناسبة يا سيدتي، هل سافرت إلى سميرنا بهذه الطريقة؟

- لا؛ لقد أبحرت إلى إسطنبول وقابلني صديق لابنتي هو السيد جونسون (إنه رجل لطيف جداً وأودك أن تتعرف عليه). وقد عزفني بإسطنبول التي وجدتها مدينة مخيبة للآمال؛ إذ أن مبانيها على وشك أن تنهار... ثم ودعني حيث ركبت قارباً فرنسياً متجهاً

إلى سميرنا، وكان زوج ابنتي ينتظرني في الميناء. ماذا سيقول عندما يسمع عن كل هذا! قالت ابنتي إن هذه أسهل طريقة وأكثرها أماناً للسفر. قالت: "كل ما عليك هو أن تجلسي في مقصورتك فتجدي نفسك في باريس حيث تقابلك هناك وكالة أميركان إكسبرس". آه، يا إلهي! ماذا أستطيع أن أفعل حيال إلغاء بطاقة رحلتي البحرية؟ يجب عليّ أن أعلمهم؛ فلا يمكن أن ألحق بالقارب الآن. إن هذا فظيع جداً.

أظهرت السيدة هوبارد إشارات تدل على أنها ستبكي ثانية، فاغتنم بوارو (الذي كان يتململ قليلاً) هذه الفرصة وقال: لقد أصابتك صدمة يا سيدتي، وسوف نعطي تعليماتنا إلى نادل المطعم كي يحضر لك بعض الشاي.

قالت السيدة هوبارد باكية: لستُ من هواة الشاي المتحمسين؛ فهذه عادة إنكليزية.

- قهوة إذن يا سيدتي؛ فأنت بحاجة إلى شراب منبّه.

- لقد شربتُ عصير الليمون، ومع ذلك سأشرب بعض القهوة.

- ممتاز، إذ يجب عليك أن تستعيدي قواك.

- يا له من تعبير مضحك!

- ولكن -قبل ذلك يا سيدتي- سنقوم بأمر روتيني بسيط. هلاّ سمحت لنا بتفتيش أمتعتك؟

لماذا؟

- إننا على وشك أن نفتش أمتعة جميع المسافرين، ولا أود أن أذكِّرك بتجربة كريهة مررتِ بها. ألا تذكرين حقيبة الحمام؟

- يا إلهي! لعل من الأفضل أن تقوم بذلك؛ فلا أستطيع أن أتحمل أية مفاجآت أخرى من ذلك النوع.

انتهى التفتيش بسرعة؛ إذ كانت السيدة هوبارد تسافر بأقل أمتعة ممكنة: صندوق قُبعات وحقيبة ملابس رخيصة وحقيبة سفر ممتلئة. كانت محتويات القطع الثلاث بسيطة وعادية، ولم يكن التفتيش ليأخذ أكثر من دقيقتين لولا أن السيدة هوبارد أخرتهم بإصرارها على يولوا انتباهاً مناسباً "لصور ابنتي" (كما قالت) وطفلين بشعين هما "طفلا ابنتي. أليسا رائعَين؟"!

* * *

الفصل الخامس عشر

أمتعة الركّاب

بعد أن تفوّه بوارو بالعديد من العبارات المؤدبة، وبعد أن أخبر السيدة هوبارد بأنه سيطلب لها القهوة، استطاع أن يغادر المقصورة يرافقه صاحباه.

قال السيد بوك: حسناً، لقد بدأنا، ولكننا لم نجد ضالتنا. من سنرى بعد ذلك؟

- أسهل شيء -على ما أظن- هو أن نبدأ بالتفتيش مقصورةً مقصورةً على طول الممر، وهذا يعني أننا سنبدأ برقم ١٦، حيث مقصورة السيد الودود هاردمان.

رحب بهم السيد هاردمان بدماثة وهو يدخن سيغاراً: تفضلوا أيها السادة، هذا إن كان دخولكم ممكناً؛ فالمكان ضيق قليلاً بالنسبة لمجموعة.

أوضح له السيد بوك الهدف من الزيارة، فهزّ المحقق الضخم رأسه مستوعباً وقال: لا بأس، والحقيقة أنني كنت أعجب كيف لم

تشرعوا بتفتيش الأمتعة قبل ذلك. ها هي ذي مفاتيحي يا سادة، وإذا أردتم أن تفتشوا جيوبي أيضاً فعلى الرحب والسعة. هل أتناول لكم حقائب سفري؟

- سيقوم مسؤول التذاكر بذلك. ميشيل!

تم تفتيش محتويات حقيبتي سفر السيد هاردمان بسرعة، ولم يكن فيهما ما يُذكر. التفت هاردمان ونظر خارجاً نحو الثلوج لدقيقة فرفّتْ عيناه وكأن الثلج آذاهما، ثم علّق قائلاً: منظر يكاد يبهر العين، أليس كذلك؟ إن هذا الأمر -يا سادة- يُوتّر أعصابي: جريمة القتل، والثلوج، ولا يحدث شيء. ننتظر هنا فقط ونقتل الوقت. أود أن أشغل نفسي بمتابعة أحدٍ ما أو شيء ما.

قال بوارو مبتسماً: إنها الروح النشطة بحق.

أعاد مسؤول التذاكر الحقائب وتحركوا إلى المقصورة التالية. كان العقيد آربوثنوت يجلس في زاوية يدخن الغليون ويقرأ مجلة، وأوضح له بوارو مهمته فلم يعترض العقيد. كانت لديه حقيبتان ثقيلتان من الجلد وقال: لقد ذهبت بقية أمتعتي بطريق البحر.

وكأغلب رجال الجيش كانت أمتعة العقيد مرتبة، ولم يستغرق تفتيشها سوى بضع دقائق. ولاحظ بوارو علبة من منظفات الغليون فسأله: أتستعمل دائماً نفس النوع؟

- في العادة، إذا استطعت الحصول عليه.

أومأ بوارو برأسه. كانت منظفات الغليون هذه مطابقة تماماً

للمنظف الذي وجده على أرض مقصورة الرجل الميت.

ألقى الدكتور كونستانتين ملاحظة بهذا المعنى عندما عادوا إلى الممر، فتمتم بوارو: ولكن الأمر يقف عند هذا التشابه. إنني لا أكاد أصدق ذلك؛ فالجريمة لا تنسجم مع شخصيته، وعندما نقول ذلك فقد استغنينا عن أي كلام آخر.

كان باب المقصورة التالية مغلقاً، وهي مقصورة الأميرة دراغوميروف. طرقوا على الباب فسمعوا صوت الأميرة العميق: ادخل.

كان السيد بوك هو المتحدث باسمهم، وقد شرح لها مهمتهم بكل توقير وأدب، واستمعت له الأميرة صامتة. كان وجهها الصغير الذي يشبه الضفدع خالياً من المشاعر، وعندما انتهى قالت بهدوء: إذا كان هذا ضرورياً فلا داعي للاعتذار. إن المفاتيح مع خادمتي وستعينكم في مهمتكم.

سأل بوارو: هل تحمل خادمتك المفاتيح دوماً يا سيدتي؟

- بالتأكيد يا سيد.

- وإذا احتاج مسؤولو جمارك الحدود في إحدى الليالي أن يفتشوا أمتعتك؟

رفعت العجوز كتفيها بلا اهتمام وقالت: هذا مُستبعَد جداً، ولكن إذا حصل مثل هذا الأمر فإن مسؤول التذاكر سيناديها.

- إذن فأنت تثقين بها تماماً يا سيدتي؟

قالت الأميرة بهدوء: لقد أخبرتك بذلك من قبل. إنني لا أوظف أحداً لا أثق به.

قال بوارو مفكراً: نعم؛ فالثقة مزية ثمينة فعلاً هذه الأيام. ربما يكون استخدام امرأة دميمة ساذجة يثق بها المرء أفضل من استخدام خادمة أنيقة عصرية، كأن تكون باريسية جميلة على سبيل المثال.

رأى عينيها الذكيتين الداكنتين تدوران وتستقران على وجهه، ثم قالت: ما الذي ترمي إليه بالضبط يا سيد بوارو؟

- أنا؟ لا شيء يا سيدتي، لا شيء.

- نعم، إن شميدت مخلصة لي، والإخلاص لا يقدر بثمن.

وصلت المرأة الألمانية ومعها المفاتيح. تحدثت إليها الأميرة بلغتها وأخبرتها أن تفتح الحقائب وتساعد السادة في بحثهم، ووقفت هي في الممر تنظر خارجاً نحو الثلوج وبقي بوارو معها تاركاً السيد بوك لمهمة بحث الأمتعة.

رمقته بابتسامة بشعة وقالت: إذن يا سيد، ألا تريد رؤية ما تحتويه حقائبي؟

هز رأسه نافياً وقال: إنها مسألة روتينية فقط يا سيدتي.

- أأنت متأكد تماماً؟

- بالنسبة لك، نعم.

- ولكنني عرفت سونا آرمسترونغ وأحببتها، فما رأيك بذلك؟

أترى أنني ما كنتُ لأوسخ يدي بقتل وحش كهذا الرجل كاسيتي؟ لعلك تكون على حق.

صمتت لدقيقة أو اثنتين، ثم قالت: أتعرف ماذا كنت سأفعل برجل مثل هذا؟ كنت سأقول لخدمي: اجلدوا هذا الرجل حتى الموت، ثم ارموا بجثته في القمامة. لقد كانت الأمور تُسوّى بهذه الطريقة عندما كنتُ صغيرة يا سيد.

بقي ممتنعاً عن الحديث مكتفياً بالإصغاء باهتمام، فنظرت إليه بقوة مفاجئة وقالت: إنك لا تقول شيئاً يا سيد بوارو، بماذا تراك تفكر؟

نظر إليها نظرة مباشرة وقال: أظن يا سيدتي أن قوتك تكمن في إرادتك، لا في يديك.

نظرت نحو ذراعيها الضعيفتين الداكنتين اللتين تنتهيان بيدين صفراوين امتلأت أصابعهما بالخواتم وقالت: هذا صحيح؛ فليست لديّ قوة في هاتين أبداً، وما أدري إن كنت سعيدة بذلك أم حزينة!

ثم التفتت فجأة عائدة إلى مقصورتها حيث كانت الخادمة مشغولة بإعادة ترتيب الحقائب، وهناك قاطعت الأميرة اعتذارات السيد بوك قائلة: لا داعي للاعتذار يا سيد. لقد ارتُكبت جريمة ولا بد من القيام ببعض الأمور، هذا كل ما في الأمر.

- أنت في غاية اللطف يا سيدتي.

كان بابا المقصورتين التاليتين مُغلَقين، فوقف السيد بوك وحكّ

رأسه قائلاً: تباً! قد يكون هذا موقفاً صعباً؛ فهذان يحملان جوازي سفر دبلوماسيين، وأمتعتهما مستثناة من التفتيش.

- نعم، مستثناة من التفتيش الجمركي، ولكن الأمر يختلف بوجود جريمة قتل.

- أعرف، ومع ذلك لا نريد تعقيد الأمور...

- لا تزعج نفسك يا صديقي. سيكون الكونت والكونتيسة عاقلين. ألا ترى كم كانت الأميرة دراغوميروف لطيفة في تقبل الأمر؟

- إنها امرأة عظيمة حقاً. وهذان الاثنان في نفس المكانة أيضاً، إلاّ أنني أحسستُ بأن الكونت رجل ذو مزاج شرس، ولم يعجبه إصرارك على استجواب زوجته، وسوف يضايقه هذا أكثر. ما رأيك لو ألغينا تفتيشهما؛ فلا يمكن أن تكون لهما -في نهاية الأمر- علاقة بمثل هذه القضية؟ لماذا أسبب لنفسي متاعب أنا في غنى عنها؟

قال بوارو: لكنني لا أوافقك، وأنا متأكد من أن الكونت أندرينيه سيكون عقلانياً. على أية حال، دعنا نحاول.

وقبل أن يجيبه السيد بوك طرق بحدة على باب المقصورة رقم ١٣ فهتف صوت من الداخل: ادخل.

كان الكونت يجلس في الزاوية قرب الباب يقرأ صحيفة، وكانت الكونتيسة متقوقعة في الزاوية المقابلة قرب النافذة وخلف رأسها وسادة، وقد بدا أنها كانت نائمة.

بدأ بوارو بقوله: معذرة يا سيدي الكونت. أرجو أن تغفر تدخلنا هذا، إلاّ أننا نقوم بتفتيش كل الأمتعة على القطار، وهو أمر شكلي في معظم الحالات، ولكن لا بد من القيام بذلك. ويرى السيد بوك أن حملكما جوازَي سفر ديبلوماسيين قد يسوّغ لكما المطالبة باستثنائكما من التفتيش.

فكر الكونت لدقيقة ثم قال: شكراً لك، ولكن لا أظنني أود أن أكون مُستثنى، فأفضل أن يتم فحص أمتعتنا كأمتعة بقية الركاب.

ثم التفت إلى زوجته وقال: آمل أنك لا تمانعين يا إلينا؟

قالت الكونتيسة بلا تردد: أبداً.

تبع ذلك تفتيش روتيني سريع، وبدا بوارو وكأنه يحاول تغطية بعض الحرج بعبارات صغيرة مختلفة غير ذات مغزى، مثل: "هذا الملصق على حقيبتك مبتل تماماً يا سيدتي". قال ذلك بينما كان يُنزل حقيبة زرقاء كُتبت على ملصقها الأحرف الأولى للاسم وعليها شعار صغير.

لم تُجب الكونتيسة على هذا التعليق وبدا أنها ضجرة من كل ما يجري، فقد ظلت متقوقعة في الزاوية تحدق بشكل حالم خارج النافذة بينما كان الرجال يفتشون حقائبها في المقصورة التالية.

أنهى بوارو بحثه بفتح الخزانة الصغيرة فوق المغسلة ونظر بسرعة إلى محتوياتها: كريم للوجه، ومسحوق بودرة، وزجاجة صغيرة كُتب عليها أنها حبوب للنوم. ثم انسحبت فرقة التفتيش بعد تبادل العبارات المؤدبة بين الطرفين.

كانت المقصورة التالية هي مقصورة السيدة هوبارد، ثم مقصورة الرجل الميت، ثم مقصورة بوارو. ثم وصلوا إلى مقصورات الدرجة الثانية، وكانت الأولى هي ذات السريرين ١٠ و١١ وتشغلها كل من ماري ديبنهام التي كانت تقرأ كتاباً، وغريتا أولسون التي كانت تنام بعمق، إلا أنها صحت فزعة عندما دخلوا.

أعاد بوارو ذكر سبب التفتيش، وقد بدت السيدة السويدية منفعلة، أما ماري ديبنهام فقد كانت هادئة وغير عابئة.

تكلم بوارو إلى السيدة السويدية: إذا سمحت يا آنسة، ستقوم بتفتيش أمتعتك أولاً، ثم ربما تلطفتِ وذهبت لمتابعة حال السيدة الأميركية. لقد نقلناها إلى إحدى مقصورات العربة التالية، لكنها لا تزال في حالة سيئة بسبب ما عثرت عليه. لقد قمتُ بطلب القهوة لها ولكنني أظنها من ذلك النوع الذي يحب أن يتحدث إلى شخص ما، وهذه أهم أولوية بالنسبة لها.

وسرعان ما ظهر التعاطف على السيدة الطيبة وشرعت تقول إنها ستذهب في الحال، فلا بد وأن الصدمة كانت كبيرة على أعصاب السيدة المسكينة، خاصة وأن السيدة المسكينة كانت متأثرة أصلاً بسبب الرحلة وتركها لابنتها. آه، نعم؛ من المؤكد أنها ستذهب في الحال، وحقيبتها ليست مقفلة فيمكن تفتيشها أثناء غيابها.

غادرت مسرعة وتم فحص ممتلكاتها بسرعة فقد كانت قليلة جداً، ومن الواضح أنها لم تلاحظ الأسلاك المفقودة من صندوق قبعتها.

وضعت الآنسة ديبنهام كتابها جانباً وهي تراقب بوارو، ثم

سلّمته المفاتيح بناء على طلبه. وعندما أنزل إحدى الحقائب وفتحها قالت له: لماذا أرسلتها يا سيد بوارو؟

- أنا يا آنسة؟ لتعتني بالسيدة الأميركية.

- عذرٌ ممتاز... ولكنه يظل عذراً.

- لا أفهمك يا آنستي.

قالت: "أظن أنك تفهمني جيداً". ثم ابتسمت وقالت: لقد أردت الانفراد بي، أليس كذلك؟

- أنت تقولينني ما لم أقله وتضعين الكلمات على لساني يا آنستي.

- كما أضع الأفكار في رأسك؟ لا، لا أظن ذلك؛ فالأفكار موجودة أصلاً هناك. هذا صحيح، أليس كذلك؟

- إن عندنا مثلاً يا آنستي...

- «يكاد المريب يقول خذوني»... أهذا ما كنت ستقوله؟ يجب أن تعترف لي بامتلاكي شيئاً من الملاحظة والحس المنطقي السليم؛ فلسبب ما أقنعتَ نفسك بأنني أعرف شيئاً عن هذا العمل الشنيع... جريمة القتل هذه التي وقعت لرجل لم أرَهُ أبداً من قبل.

- إنك تتخيلين أموراً يا آنسة.

- لا، إنني لا أتخيل الأمور أبداً، ولكن يبدو لي أن وقتاً طويلاً يضيع بسبب عدم قول الحقيقة وبسبب المناورة حول القضية بدلاً

كانت المقصورة التالية هي مقصورة السيدة هوبارد، ثم مقصورة الرجل الميت، ثم مقصورة بوارو. ثم وصلوا إلى مقصورات الدرجة الثانية، وكانت الأولى هي ذات السريرين ١٠ و١١ وتشغلها كل من ماري ديبنهام التي كانت تقرأ كتاباً، وغريتا أولسون التي كانت تنام بعمق، إلا أنها صحت فزعة عندما دخلوا.

أعاد بوارو ذكر سبب التفتيش، وقد بدت السيدة السويدية منفعلة، أما ماري ديبنهام فقد كانت هادئة وغير عابئة.

تكلم بوارو إلى السيدة السويدية: إذا سمحت يا آنسة، سنقوم بتفتيش أمتعتك أولاً، ثم ربما تلطفتِ وذهبت لمتابعة حال السيدة الأميركية. لقد نقلناها إلى إحدى مقصورات العربة التالية، لكنها لا تزال في حالة سيئة بسبب ما عثرت عليه. لقد قمتُ بطلب القهوة لها ولكنني أظنها من ذلك النوع الذي يحب أن يتحدث إلى شخص ما، وهذه أهم أولوية بالنسبة لها.

وسرعان ما ظهر التعاطف على السيدة الطيبة وشرعت تقول إنها ستذهب في الحال، فلا بد وأن الصدمة كانت كبيرة على أعصاب السيدة المسكينة، خاصة وأن السيدة المسكينة كانت متأثرة أصلاً بسبب الرحلة وتركها لابنتها. آه، نعم؛ من المؤكد أنها ستذهب في الحال، وحقيبتها ليست مقفلة فيمكن تفتيشها أثناء غيابها.

غادرت مسرعة وتم فحص ممتلكاتها بسرعة فقد كانت قليلة جداً، ومن الواضح أنها لم تلاحظ الأسلاك المفقودة من صندوق قبعتها.

وضعت الآنسة ديبنهام كتابها جانباً وهي تراقب بوارو، ثم

سلمته المفاتيح بناء على طلبه. وعندما أنزل إحدى الحقائب وفتحها قالت له: لماذا أرسلتها يا سيد بوارو؟

- أنا يا آنسة؟ لتعتني بالسيدة الأميركية.

- عذرٌ ممتاز... ولكنه يظل عذراً.

- لا أفهمك يا آنستي.

قالت: "أظن أنك تفهمني جيداً". ثم ابتسمت وقالت: لقد أردت الانفراد بي، أليس كذلك؟

- أنت تقوّلينني ما لم أقله وتضعين الكلمات على لساني يا آنستي.

- كما أضع الأفكار في رأسك؟ لا، لا أظن ذلك؛ فالأفكار موجودة أصلاً هناك. هذا صحيح، أليس كذلك؟

- إن عندنا مثلاً يا آنستي...

- «يكاد المريب يقول خذوني»... أهذا ما كنت ستقوله؟ يجب أن تعترف لي بامتلاكي شيئاً من الملاحظة والحس المنطقي السليم؛ فلسبب ما أقنعت نفسك بأنني أعرف شيئاً عن هذا العمل الشنيع... جريمة القتل هذه التي وقعت لرجل لم أرَهُ أبداً من قبل.

- إنك تتخيلين أموراً يا آنسة.

- لا، إنني لا أتخيل الأمور أبداً، ولكن يبدو لي أن وقتاً طويلاً يضيع بسبب عدم قول الحقيقة وبسبب المناورة حول القضية بدلاً

من الدخول في صلب الموضوع.

- وأنتِ لا تحبين إضاعة الوقت. نعم، أنت تفضلين الدخول في صلب الموضوع وتحبذين الطريقة المباشرة؛ لذلك سوف أتعامل معكِ بالأسلوب المباشر وأسألك عن معنى كلمات سمعتها أثناء الرحلة من سوريا. لقد خرجتُ من القطار في محطة قونية لتمرين رِجليّ، وقد سمعت صوتك يا آنسة وصوت العقيد في الليل. كنت تقولين له: "ليس الآن، ليس الآن، عندما ينتهي كل شيء. عندما يكون كل شيء وراءنا". ما الذي عنيتِه بهذه الكلمات؟

قالت بهدوء تام: أتظنني كنت أعني... جريمة قتل؟

- أنا الذي أسألك يا آنسة.

تنهدت وغرقت قليلاً في أفكارها، ثم قالت وكأنها صحت من شرود: إن لهذه الكلمات معنى يا سيدي، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك به. أستطيع فقط أن أعطيك كلمتي بصدق وشرف بأنه لم تقع عيناي على هذا الرجل راتشيت في حياتي حتى رأيتُه على هذا القطار.

- وترفضين أن توضحي معنى تلك الكلمات؟

- نعم... إذا أردت أن تصوغها كذلك. إنها تخص... مهمة توليتُها.

- مهمة انتهت الآن؟

- ماذا تعني؟

- لقد انتهت، أليس كذلك؟

- لماذا تظن ذلك؟

- اسمعي يا آنسة، سأذكر لك حادثاً آخر. لقد تأخر القطار في طريقه إلى إسطنبول، وكنت متضايقة جداً يا آنسة. إن الهدوء ورباطة الجأش من طبيعتك، ولكنك فقدتِ ذلك الهدوء حينئذٍ.

- لم أشأ أن ينقطع خط رحلتي.

- أنت تقولين ذلك. ولكن قطار الشرق السريع -يا آنسة- يغادر إسطنبول كل يوم من أيام الأسبوع، وحتى لو ضاعت عليك الصلة بالخط، فإن ذلك لن يعني إلاّ تأخيراً لأربع وعشرين ساعة فقط.

لأول مرة ظهر على الآنسة دبنهام أنها فقدت أعصابها: يبدو أنك لا تدرك أنه قد يكون لدى المرء أصدقاء ينتظرون قدومه في لندن، وأن تأخير يوم قد يعرقل الترتيبات ويسبب الكثير من الإزعاج.

- آه، إن الأمر كذلك! أهناك أصدقاء ينتظرون قدومك ولا تريدين أن تسببي لهم الإزعاج؟

- طبعاً.

- ولكن رغم ذلك فالأمر غريب...

- ما هو الغريب؟

- لقد حصل تأخير آخر لهذا القطار، وهو في هذه المرة تأخير

جدي جداً، حيث لا توجد إمكانية إرسال برقية إلى أصدقائك أو محاولة الوصول إليهم عن طريق الاتصال... الاتصال...

- الاتصال البعيد؟ تعني بواسطة الهاتف؟

- آه، نعم. المكالمة بعيدة المدى كما تسمونها في إنكلترا.

ابتسمت ماري ديبنهام على الرغم عنها وقالت: نعم؛ إنه لأمر مزعج جداً -كما قلت- أن لا يتمكن المرء من الاتصال، إمّا بواسطة الهاتف أو برقياً.

- ولكن -على الرغم من ذلك يا آنسة- فإن سلوكك هذه المرة مختلف جداً؛ فأنت لم تفقدي صبرك، بل أنت هادئة جداً وذات مزاج فلسفي.

احمرت وجنتا ماري ديبنهام قليلاً وعضت على شفتها ولم تعد تشعر بميل للابتسام.

- لم تجيبيني يا آنسة؟

- أنا آسفة. لم أعرف أن هناك سؤالاً تبتغي الإجابة عليه.

- توضيح التغيير في سلوكك يا آنسة؟

- ألا تظن أنك تثير ضجة على أمر لا يستحق يا سيد بوارو؟

مدّ بوارو يديه بإشارة اعتذار وقال: ربما كان ذلك عيباً فينا معشرَ رجال التحري؛ إذ نتوقع أن يكون السلوك منسجماً دائماً، وليس في قاموسنا تغييرات المزاج.

لم تُجبْهُ ماري ديبنهام.

- هل تعرفين العقيد آربوثنوت جيداً يا آنسة؟

خُيِّل إليه أنها ارتاحت لتغيير الموضوع. قالت: قابلته للمرة الأولى على هذه الرحلة.

- هل لديك أي سبب يدعوك للاعتقاد بأنه ربما كان يعرف هذا الرجل راتشيت؟

هزت رأسها نافية وقالت: أنا متأكدة جداً من أنه لم يعرفه.

- لماذا أنت متأكدة؟

- من الطريقة التي تحدث بها.

- ولكن، على الرغم من ذلك يا آنسة، فقد عثرنا على منظف غليون على أرض مقصورة الرجل الميت، والعقيد آربوثنوت هو الرجل الوحيد على القطار الذي يدخن الغليون.

راقبها جيداً، إلاّ أنها لم تُبدِ أية مفاجأة أو عاطفة، بل اكتفت بالقول: هراء! إن هذا احتمال سخيف؛ فالعقيد آربوثنوت هو آخر رجل في الدنيا يمكن أن يتورط في جريمة... وخصوصاً في جريمة مسرحية كهذه.

- يجب أن أذكِّرك بأنك لا تعرفينه جيداً يا آنسة.

رفعت كتفيها بلا مبالاة وقالت: إنني أعرف أمثاله جيداً.

قال بكثير من اللطف: أما زلتِ ترفضين إخباري بمعنى تلك الكلمات: "عندما يكون كل شيء وراءنا"؟

قالت ببرود: ليس لديّ شيء آخر لأقوله.

- لا يهم، سأكتشف ذلك.

انحنى وغادر المقصورة وأغلق الباب خلفه.

سأل السيد بوك: هل كان ذلك من الحكمة يا صديقي؟ لقد جعلتها تحترس الآن، ومن خلالها جعلت العقيد يحترس أيضاً.

- إذا أردت أن تمسك أرنباً فعليك أن تضع ابن عرس في جحره، وإذا كان الأرنب في الداخل فإنه سيهرب. وهذا كل ما فعلتُه!

* * *

دخلوا مقصورة هيلداغارد شميدت. كانت المرأة تقف بالانتظار وتعبيرات وجهها تنم عن الاحترام، ولكنها كانت تخلو من المشاعر.

ألقى بوارو نظرة سريعة على محتويات الحقيبة الصغيرة التي كانت على المقعد، ثم أشار إلى مسؤول التذاكر أن يُنزل الحقيبة الكبيرة عن الرف وقال: المفاتيح؟

- إنها غير مقفلة يا سيدي.

حلّ بوارو الأحزمة ورفع الغطاء، وما لبث أن هتف: "آه!"، ثم

التفت نحو السيد بوك قائلاً: "أتذكُرُ ما قلتُ؟ انظر هنا". **وعلى وجه الأمتعة كان زي بني من أزياء مسؤولي التذاكر موضوع بغير ترتيب.**

تهاوت تماسك السيدة الألمانية فجأة وصاحت: آه! هذا ليس لي، وأنا لم أضعه هنا. لم أنظر في تلك الحقيبة منذ غادرنا إسطنبول. صدقوني... حقاً. إنها الحقيقة.

نظرت من رجل إلى آخر نظرة رجاء، فأخذها بوارو من ذراعها بلطف مهدئاً وقال: كل شيء على ما يرام؛ إننا نصدقك، فلا تتألمي. أنا متأكد من أنك لم تضعي هذا الزي هنا مثلما أنني متأكد من أنك طباخة ماهرة. أنت طباخة ماهرة، أليس كذلك؟

تحيرت المرأة وابتسمت رغماً عنها وقالت: نعم، فعلاً؛ كل سيداتي قلنَ ذلك. إنني...

توقفت وفتحت فمها، وبدت خائفة مرة أخرى فقال بوارو: لا، أؤكد لك أن كل شيء على ما يرام، وسوف أخبرك كيف حدث هذا. إن ذلك الرجل الذي رأيته بزي مسؤول التذاكر قد خرج من مقصورة الرجل الميت واصطدم بك، وهذا من سوء حظه. كان يأمل ألا يراه أحد، فماذا يفعل؟ عليه أن يتخلص من الزي، فلم يعد هذا الزي حماية له بل خطراً عليه.

انتقلت نظراته إلى السيد بوك والدكتور كونستانتين اللذين كانا يستمعان بشغف.

- لقد عطلت الثلوج في الخارج كل مخططاته، فأين يستطيع أن يخبئ هذه الملابس؟ إن جميع المقصورات مليئة، ولكن كلا،

لقد مرّ من أمام واحدة بابها مفتوح مما دل على أنها خالية. لا بد وأنها مقصورة المرأة التي اصطدم لتوه بها، وهكذا تسلل داخلها ونزع عنه الزي وحشره بسرعة في الحقيبة التي وجدها على الرف. فبذلك قد يمر بعض الوقت قبل أن يُكتشف وجوده.

قال السيد بوك: وبعد ذلك؟

قال بوارو: "هذا ما يجب أن نبحث فيه". ثم رفع السترة، وكان الزر الثالث من الأعلى مفقوداً. ومدّ بوارو يده في جيب السترة فأخرج مفتاحاً مما يستعمله مسؤولو التذاكر لفتح أبواب جميع المقصورات.

قال السيد بوك: هذا يفسر كيف استطاع رجلنا أن يمر عبر الأبواب المغلقة، وأسئلتك للسيدة هوبارد لم تكن ضرورية. فبغض النظر عما إذا كان الباب مقفلاً أم لا فإن الرجل استطاع أن يمر عبر الباب الموصل بسهولة. ومن يستطيع الحصول على زي مسؤول التذاكر فلن يعجزه مفتاحه.

قال بوارو: نعم، هذا صحيح.

- كان يجب علينا أن نعرف ذلك حقاً. ألا تذكر أن ميشيل قال إن باب مقصورة السيدة هوبارد المؤدي إلى الممر كان مقفلاً عندما أتى ليرُدّ على الجرس؟

قال مسؤول التذاكر: هذا صحيح يا سيدي، ولهذا ظننت أن السيدة كانت تحلم بالتأكيد.

تابع السيد بوك: ولكن الأمر اتضح الآن. لا شك في أنه أراد أن يفتح الباب الموصل أيضاً ولكنه ربما سمع حركة في السرير أخافته.

قال بوارو: بقي لدينا فقط أن نعثر على قميص النوم القرمزي.

- هذا صحيح، ولكنْ هاتان المقصورتان الأخيرتان يقطنهما رجال.

- سنفتشهما بغض النظر عن ذلك.

- آه، بالتأكيد! بالإضافة إلى أنني أذكر ماذا قلت.

* * *

انصاع هيكتور ماكوين مطيعاً للتفتيش وقال بابتسامة ماكرة: إنني أُفضل أن تقوموا بذلك، إذ أنني أشعر بأنني أول من تشكّون فيه، فما عليكم إلا أن تجدوا وصية ترك لي فيها الرجل العجوز كل أمواله حتى تكتمل الأدلة ضدي.

نظر السيد بوك نحوه بشكّ، فقال ماكوين بسرعة: إنني أمزح فقط. ما كان ليترك لي سنتاً واحداً، فكل ما في الأمر أنه كان بحاجة إلي، وخاصة من ناحية اللغات. إن المرء معرّض لكثير من المتاعب إذا لم يكن يتكلم سوى اللغة الأميركية. وأنا لا أعتبر نفسي لغوياً ولكنني أعرف كيف أتفاهم في موضوعات الشراء وحجز الفنادق بالفرنسية والألمانية والإيطالية.

كان صوته أعلى من المعتاد، وكأنه لم يرتَح لموضوع التفتيش رغم ما أبداه من استعداد.

نهض بوارو قائلاً: لا شيء، ولا حتى وصية بنصف الإرث!

تنهد ماكوين وقال مازحاً: لقد زال عن ظهري عبء كبير.

* * *

اتجهوا نحو المقصورة الأخيرة، ولم يسفر البحث في أمتعة الإيطالي الضخم والخادم عن شيء.

وقف الرجال الثلاثة في نهاية العربة ينظر بعضهم إلى بعض، وسأل السيد بوك: ماذا بعد ذلك؟

قال بوارو: سنعود إلى عربة المطعم، فنحن نعرف الآن كل ما نحتاج إليه؛ لدينا إفادات المسافرين، وإفادات أمتعتهم، وما رأيناه بأعيننا من أدلة، ولا نستطيع أن نتوقع أية مساعدات أخرى. لقد آن الأوان لكي نستخدم عقولنا.

مد يده إلى جيبه وأخرج علبة لفائف التبغ فوجدها فارغة، فقال: سأنضم إليكم بعد قليل، فأنا بحاجة إلى التدخين. إنها قضية جادّة جداً ومثيرة جداً للفضول. مَنْ التي كانت تلبس قميص النوم القرمزي؟ أين هي الآن؟ أتمنّى لو أعرف. إن في هذه القضية شيئاً ما... عاملاً ما... لا أستطيع أن أضع يدي عليه. إنها صعبة لأنها جُعلت صعبة، ولكننا سنناقشها. اعذروني لدقيقة.

مشى مسرعاً عبر الممر إلى مقصورته حيث كان يحتفظ ببعض علب التبغ في إحدى حقائبه. أنزل الحقيبة وفتح القفل، ثم جلس على كعبيه وحدّق. **كان قميص نوم قرمزي مُزيّن بأشكال التنين مرتباً بعناية فوق الأمتعة.**

تمتم قائلاً: الأمر هكذا! إذن... إنه تحدٍّ. حسناً، سأقبل التحدي.

* * *

الجزء الثالث

هيركيول بوارو يفكّر

الفصل الأول

أيٌّ منهم؟

كان السيد بوك والدكتور كونستانتين يتحدثان عندما دخل بوارو عربة المطعم، وقد بدا السيد بوك مكتئباً وقال عندما رأى بوارو: "تفضل هنا". ثم أضاف عندما جلس صاحبه: إذا استطعت أن تحل هذه القضية -يا عزيزي- فسوف أؤمن بالمعجزات حقاً!

- أتثير هذه القضية قلقك؟

- طبعاً هي تثير قلقي؛ فأنا لا أعرف لها أولاً من آخر.

قال الطبيب: "وأنا أوافقك"، ثم نظر نحو بوارو باهتمام وقال: كي أكون صريحاً، فإنني لا أستطيع أن أرى ما الذي ستفعله الآن.

قال بوارو مفكراً بعينين حالمتين: حقاً؟ ولكن هذا ما يثير اهتمامي في هذه القضية، فنحن محجوبون عن الإجراءات الروتينية التي تتبع عادة. هل يقول هؤلاء الناس (الذين أخذنا إفاداتهم) الحقيقة أم هم كاذبون؟ ليست لدينا وسيلة للتأكد من ذلك إلاّ ما يمكن أن نبتكره نحن. إن هذه القضية هي تمرين للعقل.

قال السيد بوك: هذا كله جيد جداً، ولكن ماذا لديك مما يمكن أن تنطلق منه؟

- لقد أخبرتك لتوّي، لدينا إفادات الركاب والأدلة التي رأيناها بأعيننا.

- يا لها من إفادات! إنها لم تُخبرنا بشيء أبداً.

هز بوارو رأسه نافياً وقال: أنا لا أوافقك يا صديقي، فإفادات الركاب أعطتنا العديد من النقاط المثيرة.

قال السيد بوك مُشكّكاً: أنا لم ألاحظ ذلك أبداً.

- هذا لأنك لم تُنصت.

- حسناً، أخبرني: ما الذي فاتني؟

- سأعطيك مثالاً واحداً. إن أول إفادة سمعناها هي إفادة الشاب ماكوين، وقد تفوّه بما أظنه عبارة مهمة جداً.

- عن الرسائل؟

- لا، ليس عن الرسائل. حسب ما أذكر فقد كانت كلماته كالتالي: "لقد سافرنا كثيراً، حيث أراد السيد راتشيت أن يرى العالم، وقد كان يعيقه عدم معرفته باللغات. لقد عملتُ له دليلاً أكثر من عملي سكرتيراً".

انتقلت نظراته من وجه الطبيب إلى وجه السيد بوك وقال: ماذا؟ أما زلتما غير قادرَين على الاستيعاب؟ لا يوجد عذر لذلك، حيث سنحت لكما فرصة أخرى عندما قال إن المرء "معرّض لكثير

من المتاعب إذا لم يكن يتكلم سوى اللغة الأميركية".

قال السيد بوك من غير أن تفارقه الحيرة: ماذا تعني...؟

- آه، إنكما تريدان أن أُفسّر لكما الأمر كلمة كلمة! حسناً؛ ها هو ذا إذن: إن السيد راتشيت لم يكن يتحدث الفرنسية، ولكن -رغم ذلك- عندما وصل مسؤول التذاكر ليرد على جرسه ليلة أمس كان صوتاً يتكلم الفرنسية هو الذي أخبره بأنه كان مخطئاً وأنه ليس بحاجة إليه، وفوق ذلك استُخدمت عبارة لغوية قوية لا يمكن أن تصدر عن رجل لا يعرف إلاّ بضع كلمات فرنسية.

صاح كونستانتين بانفعال: هذا صحيح، كان يجب علينا أن نستنتج ذلك! أذكر أنك ركّزتَ على الكلمات عندما أعدتَها علينا، وأفهم الآن ترددك في اعتماد دليل الساعة المحطمة؛ ففي الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة كان راتشيت ميتاً أصلاً!

أنهى السيد بوك العبارة قائلاً: وكان قاتله هو الذي يتحدث.

رفع بوارو يده معترضاً وقال: دعونا لا نتعجل الأمور أو نفترض أكثر مما نعرف حقاً، وأظن أن بوسعنا القول إنه في ذلك الوقت (الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة) كان في مقصورة راتشيت شخص آخر وأنه إما فرنسي أو أنه يتحدث الفرنسية بطلاقة.

- إنك حذر جداً يا صديقي العزيز.

- يجب علينا أن نتقدم خطوة خطوة؛ فليس لدينا دليل فعلي يقول إن راتشيت كان ميتاً في ذلك الوقت.

- وماذا عن الصيحة التي أيقظتك؟

- نعم، هذا صحيح.

قال السيد بوك متأملاً: إن هذا الاكتشاف لا يؤثر كثيراً على الأمور. لقد سمعتَ شخصاً يتحرك في المقصورة المجاورة، وذلك الشخص لم يكن راتشيت وإنما الرجل الآخر. لا شك في أنه كان يغسل الدماء عن يديه وينظف المكان بعد الجريمة ويحرق الرسالة التي تُجرّمه، ثم ينتظر حتى يصبح الوضع هادئاً، ثم عندما يظن أن الوضع آمن يقفل باب راتشيت من الداخل ويفتح الباب الموصل إلى مقصورة السيدة هوبارد وينسلّ خارجاً بتلك الطريقة. في الواقع كان الأمر كما فكرنا فيه تماماً، **والاختلاف الوحيد هو أن راتشيت قد قُتل قبل الوقت الذي ظنناه بنصف ساعة**، وقد تم تحطيم الساعة وهي في الواحدة والربع كشاهد يستطيع القاتل استخدامه للدفع بغيابه عن مسرح الجريمة وقت وقوعها.

قال بوارو: ولكنه ليس شاهداً قوياً؛ فعقارب الساعة كانت تشير إلى الواحدة والربع، وهو الوقت الذي غادر فيه القاتل مسرح الجريمة بالضبط.

قال السيد بوك بشيء من الحيرة: هذا صحيح. بماذا تخبرك الساعة إذن؟

- إذا تم تغيير عقارب الساعة (وأقول -هنا- إذا...) فإن الوقت الذي وُضعت عليه العقارب لا بد من أن تكون له أهميته، ورد الفعل الطبيعي هو أن نشك في أي شخص لديه دفع بالغيبة خلال الوقت المشار إليه، وهو في هذه الحالة الواحدة والربع.

قال الطبيب: نعم، نعم؛ هذا تحليل جيد.

- يجب علينا أن نوجه عنايتنا أيضاً إلى الوقت الذي دَخَل فيه القاتل إلى المقصورة. فمتى كانت لديه الفرصة للقيام بذلك؟ إذا لم يكن مسؤول التذاكر مشاركاً في الجريمة، فيوجد وقت واحد فقط، وهو أثناء توقف القطار في فينكوفشي. فبعد أن غادر القطار فينكوفشي كان مسؤول التذاكر يجلس مواجهاً للممر، وفي الوقت الذي قد لا ينتبه أحد من الركاب إلى مسؤول تذاكر فإن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يلاحظ وجود مسؤول تذاكر دخيل هو المسؤول الحقيقي، ولكن أثناء توقف القطار في فينكوفشي كان مسؤول التذاكر على الرصيف في الخارج، وبذلك يكون الجو خالياً للآخر.

قال السيد بوك: إذن، وباستخدام استنتاجنا السابق، لا بد من أن يكون أحد الركاب، وهكذا نعود إلى حيث كنّا. أيّ راكب منهم؟

ابتسم بوارو وقال: لقد وضعتُ قائمة، وإذا أردتما رؤيتها فلعلها تُنعش ذاكرتكما.

انحنى الطبيب والسيد بوك فوق القائمة معاً. كانت مرتبة وأنيقة ومكتوبة حسب الترتيب الذي تمت به عملية مقابلة الركاب:

هيكتور ماكوين، أميركي الجنسية، السرير رقم ٦، الدرجة الثانية.

الدافع: قد يكون الدافع ناتجاً عن علاقته مع القتيل.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: منذ منتصف الليل

وحتى الثانية صباحاً (من منتصف الليل وحتى الواحدة والنصف يشهد له العقيد آربوثنوت، ومن الواحدة والربع وحتى الثانية يشهد له مسؤول التذاكر).

الدليل ضده: لا يوجد.

ظروف مثيرة للشك: لا يوجد.

مسؤول التذاكر بيير ميشيل، فرنسي الجنسية.

الدافع: لا يوجد.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: منذ منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (رآه هيركيول بوارو في الممر في نفس الوقت الذي تحدث فيه الصوت من مقصورة راتشيت في الساعة ١٢,٣٧. من الساعة ١,٠٠ صباحاً وحتى ١,١٦ يشهد له مسؤولان آخران من مسؤولي التذاكر).

الدليل ضده: لا يوجد.

ظروف مثيرة للشك: الزي الرسمي الذي عُثر عليه هو نقطة لصالحه، لأنه يبدو أن القصد من وراء ذلك هو إثارة الشك حوله.

إدوارد ماسترمان، إنكليزي الجنسية، السرير رقم ٤، الدرجة الثانية.

الدافع: قد يكون الدافع ناتجاً عن علاقته مع الميت، فقد كان هذا خادمه.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (يشهد له أنطونيو فوسكاريللي).

الدليل ضده أو ظروف مثيرة للشك: لا يوجد، ما عدا أنه الرجل الوحيد ذو الطول والحجم اللذين يمكّنانه من ارتداء زي الخطوط، وبالمقابل يُستبعَد أن يتكلم الفرنسية بطلاقة.

السيدة هوبارد، أميركية الجنسية، السرير رقم ٣، الدرجة الأولى.

الدافع: لا يوجد.

دفعها بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً: لا يوجد.

الدليل ضدها أو ظروف مثيرة للشك: قصتها حول وجود الرجل في مقصورتها مدعومة بإفادات هاردمان وإفادة السيدة شميدت.

غريتا أولسون، سويدية الجنسية، السرير رقم ١٠، الدرجة الثانية.

الدافع: لا يوجد.

دفعها بالغيبة عن مسرح الجريمة: بين منتصف الليل والثانية صباحاً (بشهادة ماري ديبنهام).

ملاحظة: كانت آخر من يرى راتشيت حياً.

الأميرة دراغوميروف، متجنسة بالجنسية الفرنسية، سرير رقم ١٤، الدرجة الأولى.

الدافع: كانت على علاقة حميمة مع عائلة آرمسترونغ، وهي إشبينة سونيا آرمسترونغ.

دفعها بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (يشهد لها مسؤول التذاكر وخادمتها).

الدليل ضدها أو ظروف مثيرة للشك: لا يوجد.

الكونت أندرينيه، هنغاري الجنسية، جواز دبلوماسي، سرير رقم ١٣، الدرجة الأولى.

الدافع: لا يوجد.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (يشهد له مسؤول التذاكر، ولكن هذه الشهادة لا تغطي الفترة من الواحدة وحتى الواحدة والربع).

الكونتيسة أندرينيه، كما في أعلاه، السرير رقم ١٢، الدرجة الأولى.

الدافع: لا يوجد.

دفعها بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً حين تناولت منوّم الترايونول ونامت (يشهد لها زوجها كما وُجدت علبة ترايونول في خزانتها).

العقيد آربوثنوت، بريطاني الجنسية، السرير رقم ١٥، الدرجة الأولى.

الدافع: لا يوجد.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً، فقد تحدث مع ماكوين حتى

١,٣٠ ثم ذهب إلى مقصورته ولم يغادرها (يشهد له ماكوين ومسؤول التذاكر).

الدليل ضده أو ظروف مثيرة للشك: منظف غليون.

سايروس هاردمان، أميركي الجنسية، السرير رقم ١٦، الدرجة الأولى.

الدافع: لا يوجد.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً: لم يغادر مقصورته (يشهد له ماكوين ومسؤول التذاكر).

الدليل ضده أو ظروف مثيرة للشك: لا يوجد.

أنطونيو فوسكاريلي، أميركي الجنسية (إيطالي المولد)، السرير رقم ٥، الدرجة الثانية.

الدافع: لا يوجد.

دفعه بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (بشهادة إدوارد ماسترمان).

الدليل ضده أو ظروف مثيرة للشك: لا يوجد، ما عدا أن السلاح المستعمل قد يكون مناسباً لعقليته (برأي السيد بوك!).

ماري ديبنهام، بريطانية الجنسية، السرير رقم ١١، الدرجة الثانية.

الدافع: لا يوجد.

دفعها بالغيبة عن مسرح الجريمة: من منتصف الليل

وحتى الثانية صباحاً (تشهد لها غريتا أولسون).

الدليل ضدها أو ظروف مثيرة للشك: المحادثة التي سمعها هيركيول بوارو ورفضها لتفسير هذه المحادثة.

هيلداغارد شميدت، ألمانية الجنسية، السرير رقم ٨، الدرجة الثانية.

الدافع: لا يوجد.

الشاهد معها: من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً (يشهد لها مسؤول التذاكر وسيدتها). أوت إلى سريرها ثم أيقظها مسؤول التذاكر في نحو ١٢,٣٨ وذهبت إلى سيدتها.

ملاحظة: إن إفادات الركاب تدعمها إفادة مسؤول التذاكر بأنه لم يدخل أحد إلى مقصورة السيد راتشيت أو يغادرها بين منتصف الليل والساعة الواحدة (عندما ذهب هو إلى العربة التالية) ومن ١,١٥ وحتى الساعة الثانية.

قال بوارو: أريدكم أن تفهموا أن هذه الوثيقة هي مجرد ملخص للإفادات التي سمعناها، وقد رُتِّبتْ بهذه الطريقة للسهولة.

أعادها السيد بوك وقد تغيرت قسمات وجهه وقال: إنها لا توضح شيئاً.

قال بوارو وهو يسلمه ورقة ثانية وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بسيطة: قد تجد هذه أقرب إلى ذوقك.

* * *

الفصل الثاني

عشرة أسئلة

كان مكتوباً على الورقة: «**أشياء بحاجة إلى توضيح**»، وتحتها الأسئلة التالية:

١ - المنديل المطرز بحرف «هـ»، لمن هو؟

٢ - منظف الغليون، هل سقط من العقيد آربوثنوت؟ أم من شخص آخر؟

٣ - من التي كانت تلبس قميص النوم القرمزي؟

٤ - من هو الرجل (أو المرأة) الذي كان يتخفى في زي الخطوط؟

٥ - لماذا تشير عقارب الساعة إلى الواحدة والربع؟

٦ - هل ارتُكِبتْ الجريمة في ذلك الوقت؟

٧ - هل ارتُكِبتْ قبل ذلك؟

٨ - هل ارتُكِبتْ بعد ذلك؟

٩ - هل نستطيع التأكد من أن أكثر من شخص طعن راتشيت؟

١٠ - ما هي التفسيرات الأخرى الممكنة لطبيعة جراحه؟

قال السيد بوك وقد تهلل وجهه قليلاً لهذا التحدي لذكائه: دعونا نفكر ماذا نستطيع أن نفعل، ولنبدأ بالمنديل. ويجب أن نكون مُرتّبين ومنهجيين.

قال بوارو وهو يومئ برأسه بشيء من الرضا: بالتأكيد.

تابع السيد بوك بشيء من أساليب المدرسين: إن حرف الهاء مرتبط بثلاثة أشخاص: السيدة هوبارد، والآنسة دبنهام (حيث أن اسمها الثاني هو هيرميون) والخادمة هيلداغارد شميدت.

- آه، ومن بين هؤلاء الثلاثة...؟

- يصعب القول. ولكني أرجّح أن يكون للآنسة دبنهام، فربما تُدعى عادة باسمها الثاني وليس الأول، كما أن بعض الشكوك تحوم حولها أيضاً؛ فالمحادثة التي سمعتها -يا صديقي- تثير الفضول بكل تأكيد، وكذلك رفضها لتوضيح تلك المحادثة.

قال الدكتور كونستانتين: أما أنا فأقول إنه للأميركية، فذلك المنديل ثمين جداً، والعالم كله يعرف أن الأميركيين لا يهتمون بما يدفعون.

قال بوارو: إذن فأنتما تستبعدان الخادمة؟

- نعم؛ فقد قالت هي نفسها إنه منديل يعود إلى واحدة من الطبقة العليا.

- السؤال الثاني عن الغليون: هل سقط من العقيد آربوثنوت أم من شخص غيره؟

- هذا أكثر صعوبة، فأنا أميل إلى أن شخصاً قد أسقط منظف الغليون كي يُتّهم الرجل بالأمر.

قال الطبيب: كما قلتَ يا سيد بوارو، فإن وجود دليلين في وقت واحد يدل على درجة كبيرة من الإهمال. وأنا أتفق مع السيد بوك في أن المنديل دليل حقيقي ولذلك لم يعترف أحد بأنه له، أما منظف الغليون فهو دليل مصطنَع. ومما يدل على صحة هذه النظرية أن العقيد آربوثنوت لم يظهر أي تردد في الاعتراف بأنه يدخن الغليون ويستعمل ذلك النوع من المنظف.

قال بوارو: إنك تحلل الأمور بشكل جيد.

تابع السيد بوك: السؤال الثالث: من هي التي كانت تلبس قميص النوم القرمزي؟ بالنسبة لهذا السؤال فإنني أعترف بأني لا أمتلك أدنى فكرة. هل لديك أية أفكار حول هذا الموضوع يا دكتور كونستانتين؟

- أبداً.

- إذن نعترف بهزيمتنا هنا. أما السؤال التالي فله عدة احتمالات: من هو الرجل أو المرأة الذي تخفى بزي الخطوط؟ يستطيع المرء أن يقول بكل تأكيد مَنْ هم الذين لا يمكن أن يكونوا قد قاموا بذلك: فهاردمان والعقيد آربوثنوت وفوسكاريللي والكونت أندرينيه طوال القامة كلهم. أما السيدة هوبارد وهيلداغارد شميدت وغريتا أولسون فهنّ عريضات البِنْية. وبذلك يبقى لدينا الخادم والآنسة دبنهام والأميرة دراغوميروف والكونتيسة أندرينيه. ولا أظن أن أياً

من هؤلاء يمكن أن يفعل ذلك؛ فغريتا أولسون من جهة وأنطونيو فوسكاريللي من جهة أخرى يحلفان أن الآنسة ديبنهام والخادم لم يغادرا مقصورتيهما. وهيلداغارد شميدت تُقسم أن الأميرة كانت في مقصورتها، كما يخبرنا الكونت أن زوجته تناولت شراباً منوماً، ولهذا يبدو من المستحيل أن يكون أيٌّ منهم هو ذلك الشخص، وهذا أمر غريب جداً.

قال الدكتور كونستانتين: لا بد من أن يكون أحد هؤلاء الأربعة، إلاّ إذا كان شخصاً من الخارج واستطاع أن يجد مكاناً يختبئ فيه، وهذا -كما اتفقنا- مستحيل.

تابع السيد بوك إلى السؤال التالي على القائمة: رقم ٥: لماذا تشير عقارب الساعة المحطمة إلى الواحدة والربع؟ أرى أن لذلك تفسيرين؛ فإما أن يكون القاتل قد فعل ذلك ليبعد عن نفسه التهمة في ذلك الوقت ثم حيل بينه وبين مغادرة المقصورة بعد ذلك عندما سمع أشخاصاً يتحركون. أو... انتظروا، جاءتني فكرة!

انتظر الاثنان الآخران باحترام بينما كان ذهن السيد بوك يُجاهد للعثور على الحل، وأخيراً قال: وجدتها! لم يكن القاتل المتخفي بزي الخطوط هو الذي عبث بالساعة، وإنما الشخص الذي أسميناه: القاتل الثاني! الشخص الأعسر الذي يستعمل يده اليسرى... أو -إذا شئتما- امرأة ذات قميص النوم القرمزي. لقد وصلت لاحقاً فحركت عقارب الساعة إلى الوراء كي يتسنى لها أن تُثبت وجودها في مكان آخر في ذلك الوقت.

قال الدكتور كونستانتين: عظيم، فكرة أحسنت تخيلها.

قال بوارو: في الواقع لقد قامت بطعنه في الظلام من دون أن تدرك أنه كان ميتاً، ولكنها استنتجت -بطريقة ما- أن لديه ساعة في جيب سترة نومه، فأخرجتها وأعادت العقارب إلى الخلف دون أن ترى وكسرتها.

نظر السيد بوك نحوه ببرود وسأل: ألديك فكرة أفضل تقترحها؟

اعترف بوارو: "في هذه اللحظة؟ لا". ثم تابع كلامه: على أية حال لا أظن أن أياً منكما يدرك أهم نقطة في موضوع الساعة.

سأل الطبيب: "وهل يحدد السؤال رقم ٦ ماهية تلك النقطة؟" ثم أضاف: بالنسبة للسؤال: هل ارتُكبت الجريمة في ذلك الوقت (أي الواحدة والربع) فإن جوابي هو: لا.

قال السيد بوك: أوافقك الرأي. والسؤال التالي: هل ارتُكبت الجريمة قبل ذلك؟ وأنا أقول نعم. ماذا ترى يا دكتور؟

هز الطبيب رأسه موافقاً وقال: نعم، ولكن نستطيع أن نجيب بالإيجاب أيضاً على السؤال: هل ارتُكبت الجريمة بعد ذلك؟ إنني أتفق مع نظريتك يا سيد بوك، كما يتفق معها السيد بوارو برأيي، رغم أنه لا يودّ أن يلزم نفسه بشيء. دخل القاتل الأول قبل الواحدة والربع ودخل القاتل الثاني بعد الواحدة والربع. أما بالنسبة لموضوع استخدام اليد اليسرى، أما كان علينا أن نتخذ إجراءات للتأكد من الركاب الذين لا يستخدمون سوى أيديهم اليسرى؟

قال بوارو: لم أغفل هذه النقطة كلياً. وربما لاحظتما أنني

طلبت من كل راكب إما أن يوقع أو أن يكتب عنوانه، وهذا ليس دليلاً قطعياً لأن بعض الناس يقومون ببعض الأعمال مُستخدِمين اليد اليمنى وبعضها الآخر باليد اليسرى، وبعض الناس يكتبون باليمين مثلاً، ولكنهم يلعبون الغولف باليسرى، ولكن لا نستطيع أن نستبعد تماماً ما استنتجناه من أن كل مَن سألتهم أخذوا القلم وكتبوا باليمنى ما عدا الأميرة دراغوميروف التي رفضت أن تكتب.

قال السيد بوك: الأميرة دراغوميروف؟ مستحيل.

قال الدكتور كونستانتين مشككاً: أشك في أن تكون لديها القوة لإحداث ذلك الجرح الذي نتج عن طعنة يد يسرى. لقد استُخدمت قوة كبيرة لإحداث ذلك الجرح.

- قوة أكبر مما تستطيع امرأة أن تستخدمها؟

- لا، لن أقول ذلك. ولكن قوة أكبر من تلك التي تملكها امرأة متقدمة في السن، كما أن بُنية الأميرة دراغوميروف بالذات واهنة.

قال بوارو: قد تكون المسألة مسألة رجحان الذهن على القوة الجسدية، فالأميرة دراغوميروف ذات شخصية قوية جداً وإرادة عظيمة، ولكن دعونا نترك هذا الأمر الآن.

قال الطبيب: إلى السؤالين ٩ و١٠: هل نستطيع أن نكون متأكدين من أن راتشيت قد طُعِن من قِبل أكثر من شخص، وما هو التفسير الآخر الممكن وراء اختلاف الطعنات؟ في رأيي ومن وجهة النظر الطبية لا يوجد أي تفسير آخر لتلك الجراح. لا يمكن أن يقوم شخص بطعن آخر بضَعْفٍ أولاً ثم بعنف، وباليد اليمنى أولاً ثم

باليسرى، بعد مرور بعض الوقت الذي ربما امتدّ إلى نصف ساعة بحيث يطعن شخصاً ميتاً... إن ذلك منافٍ للمنطق.

قال بوارو: نعم، إنه منافٍ للمنطق. ولكن هل تظن أن نظرية وجود قاتلين اثنين هي نظرية منطقية؟

- كما قلتَ أنت بنفسك: ما هو التفسير الآخر وراء ذلك؟

حدق بوارو أمامه وقال: هذا ما أسأل نفسي عنه، وهذا ما لم أتوقف عن سؤاله.

ثم اتكأ إلى الخلف في كرسيه وربت على جبهته وقال: من الآن فصاعداً كل شيء هنا! لقد فحصنا جميع الأمور، والحقائقُ واضحة أمامنا ومرتبة ومنظمة بشكل منطقي؛ فلقد جلس الركاب هنا واحداً وراء الآخر وأدلوا بإفاداتهم، ونحن نعرف كل ما يمكن معرفته... من الخارج.

ثم ابتسم ابتسامة حانية في وجه السيد بوك وقال: لقد كانت نكتة قديمة نتندّر بها حول الجلوس والتفكير بالحقيقة، أليس كذلك؟ حسناً، سأضع نظريتي موضع التنفيذ هنا أمامكم، ويجب أن تفعلوا الشيء نفسه. دعونا نغلق أعيننا نحن الثلاثة ونفكر...

هل قام واحد من الركاب أو أكثر بقتل راتشيت؟ وأيٌّ منهم؟

* * *

الفصل الثالث
بعض النقاط ذات المغزى

مضت ربع ساعة كاملة قبل أن يتكلم أحد. بدأ السيد بوك والدكتور كونستانتين بمحاولة اتباع تعليمات بوارو في النظر عميقاً في النقاط المتناقضة والمبهمة للخروج بحل واضح وصحيح.

وكانت أفكار السيد بوك تدور كالتالي: من المؤكد أنني يجب أن أفكر، ولكنني فعلتُ ذلك مراراً. من الواضح أن بوارو يرى أن الفتاة الإنكليزية متورطة في هذه القضية، ولا أملك إلاّ أن أشعر بأن ذلك مستبعد جداً؛ فالإنكليز شديدو البرود، ولعل ذلك عائد إلى مبالغتهم في التحسب... ولكن هذه ليست المشكلة، إذ يبدو مستبعداً أن يكون الإيطالي قد فعلها، وهو أمر مؤسف... لا أحسب الخادم الإنكليزي كذب عندما قال إن زميله الإيطالي لم يغادر المقصورة. ولماذا يكذب؟ أتساءل متى سنتخلص من كل هذا. لا بد من أن أعمالاً تتم لإنقاذنا من الثلوج، إنهم بطيئون جداً في هذه البلاد... تمضي ساعات قبل أن يفكر أحد بالقيام بعمل ما. إن التعامل مع الشرطة في هذه البلاد يثير الأعصاب، فهم ينتفخون

كبرياء وحساسون جداً في مسألة كرامتهم. سيجعلون من هذا الأمر قضية كبرى، إذ ليس من المعتاد أن تسنح لهم فرصة كهذه، وسوف يُنشَر الأمر في جميع الصحف...

بعد ذلك شَرَدت أفكار السيد بوك إلى أمور أخرى بعيدة سبق له التفكير بها مئة مرة.

أما أفكار الدكتور كونستانتين فقد دارت على النحو التالي: إن هذا الرجل الضئيل عجيب. أهو عبقري أم مجنون؟ هل سيحل هذه القضية الغامضة؟ مستحيل، فأنا لا أرى لها حلاً. إنها مُحيّرة جداً. قد يكون الجميع كاذبين، ولكن حتى هذا الاحتمال لا يُشكل عزاء؛ فلو كانوا كاذبين جميعاً لكان ذلك محيراً كما لو كانوا صادقين جميعاً. إن تلك الجراح غريبة ولا أستطيع أن أفهمها... كان الأمر أسهل فهماً لو أنه قُتل بالرصاص على الطريقة الأميركية، فهي طريقة لا خلاف فيها. إن أميركا بلد غريب، وأنا أود أن أذهب إلى هناك، فهي بلاد البدع والأفكار الجديدة...

ثم مضت أفكاره إلى أمور خاصة جداً.

أما هيركيول بوارو فقد جلس ثابتاً لا يتحرك، بل كان من شأن من يراه أن يظنه نائماً.

ثم فجأة، وبعد ربع ساعة من السكون الكامل، بدأ حاجباه يتحركان ببطء على جبهته وتنهد قليلاً وتمتم في نفسه: ولكن لِمَ لا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن شأنه أن يفسر كل شيء.

انفتحت عيناه وكانتا خضراوين كعيني القط، وقال بهدوء:

حسناً، لقد فكرت، فماذا عنكما؟

كان الرجلان مستغرقَيْن في التفكير فجفلا كثيراً، وقال السيد بوك بشيء من الشعور بالذنب: لقد فكرت أنا أيضاً ولكني لم أصل إلى نتيجة. إن فك طلاسم الجرائم من اختصاصك يا عزيزي لا من اختصاصي أنا.

وقال الطبيب: لقد فكرت أنا أيضاً بكل جدية؛ فكرت بنظريات عديدة ممكنة، ولكن أياً منها لم يرضني.

أومأ بوارو برأسه بود، وكأن إيماءته تقول: تماماً؛ هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن تقولاه. لقد أعطيتماني طرف الخيط الذي توقعته!

اعتدل في جلسته نافخاً صدره وعبث بشاربيه، ثم بدأ يتكلم بأسلوب الخطيب المتمرس الذي يخاطب جمهوراً من الناس: لقد راجعت الحقائق في ذهني يا صديقيّ، وراجعت كذلك إفادات الركاب، وخرجت بالنتيجة التالية: إنني أرى تفسيراً معيناً ما زال في طور التكوّن، ولكن من شأنه أن يفسر الحقائق التي نعرفها. إنه تفسير غريب جداً، ولا أستطيع أن أجزم -بعد- بأنه التفسير الصحيح، ولكي أكتشف ذلك بشكل قاطع عليّ القيام ببعض التجارب.

أودّ، في البداية، أن أذكر بعض الحقائق التي تبدو لي ذات مغزى. ولنبدأ أولاً بتعليق قاله لي السيد بوك في هذا المكان نفسه عندما تناولنا أول غداء لنا معاً على القطار. لقد علّق على حقيقة أننا محاطون بأناس من مختلف الطبقات والأعمار والجنسيات، وهذه

حقيقة نادرة بعض الشيء في مثل هذا الوقت من السنة، فعربتا أثينا-باريس وبوخارست-باريس خاليتان تقريباً مثلاً. ويجب أن نتذكر أيضاً الراكب الذي لم يأتِ؛ فأنا أرى ذلك مهماً. ثم خذوا بعض النقاط الصغيرة التي بدت لي موحية، وأذكر منها -مثلاً- وضعية حقيبة حمام السيدة هوبارد، واسم أم السيدة آرمسترونغ، وأسلوب التحري لدى السيد هاردمان، واقتراح السيد ماكوين بأن راتشيت هو الذي أحرق الورقة التي رأينا بقاياها، والاسم الأول للأميرة دراغوميروف، وبقعة الدهن على جواز السفر الهنغاري.

حدق إليه الرجلان، فسألهما بوارو: هل توضح لكما هذه النقاط شيئاً؟

قال السيد بوك بصراحة: لا شيء أبداً.

- والسيد الطبيب؟

- لا أفهم شيئاً مما تقول.

في تلك الأثناء اغتنم السيد بوك فرصة استيعابه لنقطة ملموسة وحيدة مما ذكره صديقه وبدأ يبحث في جوازات السفر، ثم التقط جواز سفر الكونت والكونتيسة أندرينيه وفتحه.

- هل هذا ما تعنيه؟ هذه البقعة القذرة؟

- نعم؛ إنها بقعة دهن حديثة نوعاً ما. أتلاحظ أين مكانها؟

- في بداية أوصاف زوجة الكونت، وعلى اسمها الأول بالضبط، ولكنني أعترف لك بأنني ما زلتُ لا أفهم شيئاً.

- سأبحث الموضوع من زاوية أخرى. فلنعد إلى المنديل الذي وُجد في مسرح الجريمة، فكما قلنا سابقاً: يوجد ثلاثة أشخاص ترتبط أسماؤهم بحرف الهاء، وهم السيدة هوبارد والآنسة دبنهام والخادمة هيلداغارد شميدت. حسناً، دعونا نناقش أمر المنديل من زاوية أخرى. إنه منديل ثمين يا صديقيّ، إنه من النوع الفاخر، وهو مصنوع باليد ومطرز في باريس، فإذا استبعدنا مسألة الحرف، مَنْ مِن الراكبات يمكن أن تملك مثل هذا المنديل؟ ليست السيدة هوبارد، وهي امرأة غنية ولكنها لا تميل إلى الترف المبالغ به في مسألة الملابس. وليست الآنسة دبنهام؛ فمثل هذا النوع من النساء الإنكليزيات يشترين مناديل قطنية عادية وليس منديلاً ثميناً قد يصل ثمنه إلى مئتي فرنك، وبالتأكيد ليست الخادمة. ولكن على القطار امرأتين يمكنهما أن تمتلكا مثل هذا المنديل، فدعونا نفكر إذا كان بإمكاننا أن نجد علاقة بين أي منهما وبين الحرف «هـ». وهاتان المرأتان هما الأميرة دراغوميروف...

قاطعه السيد بوك باستهزاء: واسمها الأول ناتاليا.

- تماماً. واسمها الأول (كما قلتُ قبل قليل) يُوحي بالكثير بكل تأكيد. والمرأة الأخرى هي الكونتيسة أندرينيه، وفوراً تقفز فكرة ما إلى أذهاننا!...

- بل إلى ذهنك أنت!

- حسناً؛ إلى ذهني أنا. إن اسمها الأول على جواز السفر مغطى ببقعة من الدهن. قد يقول قائل أنها مجرد صدفة، ولكن فكروا في اسمها الأول: إيلينا. لنفترض أنه هيلينا بدلاً من إيلينا، إذ يمكن

بسهولة تحويل حرف الألف الأولى إلى هاء ثم توضع بقعة الدهن فتغطي على التعديل.

صاح السيد بوك: هيلينا! هذه فكرة عظيمة.

- إنها فكرة عظيمة حقاً! وبعد ذلك بحثت عن دليل يؤيد هذه النظرية، مهما كان بسيطاً... وقد وجدته. فقد كان أحد ملصقات حقائب الكونتيسة مبللاً قليلاً، وقد صدف أنه أُلصق على الحرف الأول من اسمها في أعلى الحقيبة، وقد تم تبليل ذلك الملصق ونزعه ووضعه في مكان مختلف.

قال السيد بوك: لقد بدأت تقنعني، ولكن من المؤكد أن الكونتيسة أندرينيه...

- آه! والآن يا عزيزي، يجب أن تدور وتبحث الموضوع من زاوية مختلفة تماماً. كيف أُريدَ لهذه الجريمة أن تظهر للجميع؟ لا تنسيا أن الثلوج أجهضت كل الخطة الأصلية للقاتل. دعونا نتخيل للحظة أن الثلوج غير موجودة وأن القطار استمر في سيره كما ينبغي، فماذا كان سيحدث؟ فلنقُل إن الجريمة كانت ستُكتشف غالباً هذا الصباح أيضاً عند الحدود الإيطالية، وإن كثيراً من هذه الأدلة نفسها سيتوفر للشرطة الإيطالية. كان من شأن السيد ماكوين أن يقدم رسائل التهديد نفسها، ومن شأن السيد هاردمان أن يبلغهم بقصته نفسها، ومن شأن السيدة هوبارد أن تتلهف على إخبارهم كيف مرّ رجل عبر مقصورتها، وكان سيتم العثور على الزر. أظن أن من شأن شيئين اثنين فقط أن يكونا مختلفين، وهما: أن الرجل كان سيمر عبر مقصورة السيدة هوبارد قبل الواحدة بقليل، وأن زي الخطوط الرسمي كان

سيُعثَر عليه مرمياً في أحد الحمامات.

- أنت تعني...

- أعني أن الجريمة كان مخططاً لها **أن تبدو وكأنها عمل رجل من الخارج**؛ حيث سيُفترَض أن القاتل قد غادر القطار في محطة برود التي كان مقرراً أن يصلها القطار في الساعة الواحدة إلاّ دقيقتين. وربما كان من شأن شخص ما أن يمر أمام مسؤول تذاكر غريب في الممر، وكان الزي سيُترَك في مكان ظاهر لكي يُظهر بوضوح كيف تمت الحيلة. عندها لا يمكن أن يُشكّ بأي من الركاب، وهذه -يا صديقيّ- هي الكيفية التي أُريدَ لهذه الجريمة أن تظهر بها أمام العالم الخارجي. إلاّ أن ما حدث للقطار بسبب الثلوج غيّر كل شيء، وأظن أن هذا هو السبب الأول وراء مكوث القاتل مع ضحيته لهذه المدة الطويلة؛ فقد كان ينتظر أن يستمر القطار في سيره، إلاّ أنه أدرك -أخيراً- أن القطار لن يتحرك وأن عليه التفكير بخطط مختلفة، إذ سيُعرَف الآن أن القاتل ما زال في القطار.

قال السيد بوك وقد نفد صبره: نعم، نعم؛ أفهم ذلك. ولكن ما هو موقع المنديل من كل هذا؟

- سأعود إلى المنديل بطريق دائري نوعاً ما. يجب أن تُدركوا -في البداية- أن رسائل التهديد كانت تمويهاً، وربما تكون قد نُسخت من قصة بوليسية أميركية. إنها ليست حقيقية، بل كان القصد منها تضليل الشرطة فقط. إن ما يجب أن نسأله أنفسنا هو: هل خدعت تلك الرسائلُ راتشيت؟ ظاهرياً يبدو أن الجواب هو "لا"، فتعليماته إلى هاردمان تبدو أنها تُشير إلى عدوٍ «خاص» كان راتشيت يدرك

هويته، هذا إذا قبلنا قصة هاردمان على أنها الحقيقة. إلا أن راتشيت استلم رسالة واحدة مختلفة تماماً، وهي التي تحتوي على ذكرٍ للطفلة آرمسترونغ، والتي رأينا جزءاً محترقاً منها في مقصورته. فإذا ما كان راتشيت قد فشل في فهم الأمر بسرعة فإن الهدف من الرسالة كان التأكد من أنه فهم السبب وراء تهديد حياته. وكما كنتُ أقول دوماً، لم يكن مقرراً لتلك الرسالة أن تُكتشَف وكان الهمّ الأول للقاتل هو أن يتخلص منها، ولذلك كان هذا هو الخطأ الثاني في خطته. الأول كان الثلج، والثاني هو تمكننا من قراءة ما كُتِب في تلك القصاصة. إن التخلص من الرسالة بهذه العناية لا يمكن إلاّ أن يعني شيئاً واحداً فقط، وهو: **لا بد وأن على متن القطار شخصاً يرتبط بعلاقة حميمة مع عائلة آرمسترونغ لدرجة أن العثور على تلك الرسالة من شأنه أن يعرض ذلك الشخص للشك فوراً**. والآن نأتي إلى الدليلين الآخرين اللذين عثرنا عليهما. سوف أتجاوز عن منظف الغليون، فقد تحدثنا بما فيه الكفاية، ولنبحث في موضوع المنديل، فلو نظرنا إلى الأمر بشكل مبسط لقلنا إنه يدين شخصاً أول حرف من اسمه هو «هـ» وإنه سقط من ذلك الشخص بلا قصد.

قال الدكتور كونستانتين: تماماً، ثم اكتشفت أنها أسقطت المنديل فاتخذت فوراً الخطوات اللازمة لإخفاء اسمها الأول.

- ما أسرعك! إنك تقفز إلى النتائج بأسرع مما أسمح لنفسي بذلك.

- هل من بديل آخر؟

- بالتأكيد. افترض -مثلاً- أنك ارتكبت جريمة وتود أن تلصق

التهمة بشخص آخر، ويوجد على القطار شخص ذو علاقة حميمة بعائلة آرمسترونغ، وهذا الشخص امرأة. ولنفترض أنك تركتَ منديلاً يعود إلى تلك المرأة، سيتم التحقيق معها وسيُكتَشف ارتباطها بعائلة آرمسترونغ... ويا للنصر! فالدافع هناك، وهناك دليل يثبت التهمة.

اعترض الطبيب قائلاً: ولكن في هذه الحالة، بما أن المرأة المشار إليها بريئة فإنها لن تتخذ خطوات لإخفاء هويتها.

- آه، حقاً؟ أهذا ما تظنه؟ في الواقع هذا هو رأي محاكم الشرطة أيضاً. ولكني أعرف الطبيعة البشرية يا صديقي، وأؤكد لك بأن أكثر الناس براءة من شأنهم فقدان صوابهم وارتكاب أسخف التصرفات عندما تواجههم فجأة إمكانية محاكمتهم بتهمة القتل. كلا... إن بقعة الدهن وتغيير ملصق الحقيبة لا يُثبتان الذنب، بل يثبتان أن الكونتيسة أندرينيه حريصة على إخفاء هويتها لسبب ما.

- وما هي -برأيك- العلاقة التي تربطها بعائلة آرمسترونغ؟ فهي تقول إنها لم تذهب إلى أميركا.

- بالضبط، فهي تتكلم إنكليزية ركيكة ولها مظهر أجنبي تبالغ في إظهاره. ولكن لن يكون صعباً تخمين مَنْ تكون. ذكرتُ -قبل قليل- اسم والدة السيدة آرمسترونغ، إنها ليندا آردن، وقد كانت ممثلة مشهورة، وممثلة شكسبيرية أيضاً. فكّرا بمسرحية «كما تحبها» وبغابة آردن وروزالين... لقد أخذت اسمها الفني من اسم تلك الغابة. إن اسم ليندا آردن (الذي عُرفت به في جميع أنحاء العالم) لم يكن اسمها الحقيقي، وربما كان اسمها غولدنبيرغ. ومن المحتمل جداً أن تكون دماء وسط أوروبا في عروقها؛ فقد ذهبت جنسيات عديدة

إلى أميركا. وأقترح عليكما -يا سيديّ- أن تكون الأخت الصغرى للسيدة آرمسترونغ (والتي كانت أكبر من طفلة بقليل وقت حدوث المأساة) هي هيلينا غولدنبيرغ... الابنة الصغرى لليندا آردن، وأنها قد تزوجت الكونت أندرينيه عندما كان ملحقاً في واشنطن.

- ولكن الأميرة دراغوميروف تقول إنها تزوجت رجلاً إنكليزياً.

- رجلاً إنكليزياً لا تتذكر الأميرة اسمه! إنني أسألكما يا صديقيّ: هل يُعقل هذا؟ لقد أحبت الأميرة دراغوميروف الممثلة ليندا آردن كما تحب السيداتُ العظيمات الممثلاتِ العظيمات، وقد كانت إشبينة لواحدة من بناتها، فهل يمكن أن تنسى بهذه السرعة اسم زوج الابنة الأخرى؟ هذا مستبعَد تماماً. نعم؛ أظننا نستطيع القول إن الأميرة دراغوميروف كانت تكذب. لقد عرفتْ أن هيلينا على متن هذا القطار؛ فقد رأتها، وأدركت فوراً -حالما سمعت من هو راتشيت حقاً- أن هيلينا ستكون موقع شبهة، ولذلك عندما سألناها عن الأخت كذبت فوراً وبغموض قائلة إنها لا تتذكر ولكنها... "تظن أن هيلينا تزوجت رجلاً إنكليزياً"... وهي ملاحظة أبعد ما تكون عن الحقيقة.

دخل أحد مضيفي المطعم عبر الباب الموجود في نهاية العربة واقترب منهم وخاطب السيد بوك قائلاً: هل نقدم العشاء يا سيدي؟ إنه جاهز منذ مدة.

نظر السيد بوك نحو بوارو فأومأ الأخير برأسه موافقاً وقال: طبعاً، طبعاً. قدموا العشاء.

اختفى النادل عبر الباب الآخر، وسُرعان ما سُمع صوت جرسه يقرع وصوته يعلو منادياً بعدة لغات: العشاء جاهز... العشاء جاهز.

* * *

الفصل الرابع

بقعة دهن على جواز سفر هنغاري

اشترك بوارو في طاولة مع السيد بوك والطبيب. وكان الناس المجتمعون في العربة هادئين فلم يتكلموا إلاّ قليلاً، حتى السيدة هوبارد الثرثارة كانت هادئة على غير العادة، وقد تمتمت فيما كانت تجلس: "إنني لا أشعر برغبة في تناول شيء..."، ثم تناولت شيئاً يسيراً من كل ما عُرض عليها بتشجيع من السيدة السويدية التي بدت وكأنها تعتبر السيدة هوبارد إحدى مسؤولياتها.

قبل أن يُبدأ بتقديم الوجبة، كان بوارو قد أمسك برئيس الندلاء من كُمّه وتمتم له شيئاً، وقد خمّن كونستانتين فحوى ما قاله بوارو للنادل، إذ لاحظ أن النادل حرص على التأخر في خدمة الكونت والكونتيسة أندرينيه، وأنه تأخر في نهاية الوجبة في تقديم الفاتورة لهما. لذلك كان الكونت والكونتيسة آخر من بقي في عربة المطعم.

وعندما نهضا أخيراً وتوجها نحو الباب نهض بوارو بسرعة وتبعهما قائلاً: معذرة يا سيدتي، لقد أسقطتِ منديلك.

كان يمد لها يده بمنديل صغير مربع طُرِّز عليه الحرف «هـ». أخذته ونظرت إليه ثم أعادته إلى بوارو قائلة: أنت مخطئ يا سيد؛ إنه ليس منديلي.

- ليس منديلك؟ هل أنت متأكدة؟

- متأكدة تماماً يا سيد.

- ولكنه يحمل أول حرف من اسمك يا سيدتي؛ حرف الهاء.

بدرت حركة مفاجئة من الكونت إلاّ أن بوارو أهمله وبقيت عيناه تحدقان إلى وجه الكونتيسة، فنظرت إليه بثبات وأجابت: لا أفهمك يا سيد؛ إن أول حرف من اسمي هو الألف.

- لا أظن ذلك. إن اسمك هيلينا وليس إيلينا... هيلينا غولدنبيرغ الابنة الصغرى لليندا آردن، هيلينا غولدنبيرغ أخت السيدة آرمستورنغ.

ساد صمت ثقيل لبرهة، وتحول لون كل من الكونت والكونتيسة إلى البياض. وقال بوارو بصوت لطيف: إن الإنكار لا يفيد. إنها الحقيقة، أليس كذلك؟

انفجر الكونت بحدة: إنني أطالبك يا سيد، بأي حق...؟

ولكن زوجته قاطعته بأن وضعت يدها الصغيرة باتجاه فمه قائلة: لا يا رودلف. دعني أتكلم؛ فمن غير المفيد أن أنكر ما قاله هذا السيد. من الأفضل أن نجلس ونتكلم في الموضوع.

كان صوتها قد تغير، ورغم احتفاظه بنبرة الجنوب الغنية إلاّ أنه أصبح -فجأة- أكثر وضوحاً وحسماً، وبدا لأول مرة صوتاً أميركياً صرفاً.

أطاع الكونت إشارة يدها وظل صامتاً، وجلسا جنباً إلى جنب مقابل بوارو، ثم قالت الكونتيسة: إن كلامك صحيح جداً يا سيد. أنا هيلينا غولدنبيرغ؛ الأخت الصغرى للسيدة آرمستورنغ.

- ولكنك لم تطلعيني على هذه الحقيقة في الصباح يا سيدتي الكونتيسة.

- نعم.

- في الواقع إن كل ما أخبرتماني به أنت وزوجك كان مجرد كذب.

صاح الكونت غاضباً: يا سيد...

- لا تغضب يا رودلف، فرغم أن السيد بوارو يقول الحقيقة بصورة قاسية، إلاّ أنه لا سبيل لإنكار ما يقول.

- أنا سعيد بأنك تعترفين بالحقيقة بهذه السرعة يا سيدتي. هلاّ أخبرتني الآن عن السبب؟ وكذلك لماذا غيرتِ اسمك الأول في جواز السفر؟

قال الكونت: أنا المسؤول تماماً عن ذلك التغيير.

قالت هيلينا بهدوء: من المؤكد -يا سيد بوارو- أنك تستطيع

أن تُخمّن مبرري لذلك... بل مبررنا. إن هذا الرجل الذي قُتل هو الشخص الذي قتل ابنة أختي الطفلة، والذي قتل أختي، والذي حطم قلب زوج أختي. الأشخاص الثلاثة الذين أحببتهم أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، والذين كانوا بيتي... وكانوا عالمي!

ارتفع صوتها برنّة عاطفية، وبدت -بحق- ابنة أمها التي كانت القوة العاطفية لتمثيلها تثير عواطف الجماهير الغفيرة، ثم مضت في هدوء أكثر: من بين جميع الناس في القطار... ربما أكون الوحيدة التي لديّ أكبر دافع لقتله.

- ألم تقتليه يا سيدتي؟

- أقسم لك يا سيد بوارو (وزوجي يعرف ذلك وسوف يقسم أيضاً) أنني لم أرفع عليه يداً، رغم كل ما قد يشدني لفعل ذلك.

قال الكونت: وأنا أيضاً -يا سادة- أقسم لكم بشرفي أن هيلينا لم تغادر المقصورة ليلة أمس. لقد تناولت منوماً كما قلت تماماً، وهي بريئة تماماً.

تنقلت نظرات بوارو بينهما، فيما كرّر الكونت: أقسم لكم بشرفي.

هز بوارو رأسه قليلاً وقال: ورغم ذلك تعمدتما تغيير الاسم في جواز السفر!

تكلم الكونت بصدق وعاطفة قائلاً: فكّرْ في وضعي يا سيد بوارو. أتظن أنني كنت أستطيع أن أحتمل سحب زوجتي إلى مستنقع

قضية بوليسية قذرة. إنها بريئة، وأنا واثق من ذلك. ولكن ما قالته صحيح، فارتباطها بعائلة آرمسترونغ سيجعلها موضع شك فوراً. كانت ستتعرض للتحقيق وربما للاعتقال، ولأن صدفة سيئة وضعتنا على نفس القطار الذي سافر به هذا الرجل راتشيت فقد شعرت بأني لا أملك إلاّ خياراً واحداً. إنني أعترف لك بأنني كذبت عليكم جميعاً... إلاّ في شيء واحد، وهو أن زوجتي لم تغادر مقصورتها أبداً ليلة أمس.

تكلم بجدية يصعب معها رفض كلامه، فرد بوارو ببطء قائلاً: لا أقول إنني أكذّبك يا سيدي؛ فأنا أعلم أن عائلتك عريقة ذات كبرياء، وستجد مرارة حقاً لو غرقت زوجتك في قضية جنائية بشعة. أستطيع أن أتعاطف مع هذا الاعتبار، ولكن كيف تفسر وجود منديل زوجتك في مقصورة الرجل الميت؟

قالت الكونتيسة: هذا المنديل ليس لي يا سيد.

- على الرغم من وجود حرف الهاء؟

- على الرغم من وجود الحرف. إن مناديلي شبيهة به، ولكنها ليست بنفس النقشة. أعلم -بالطبع- أنني لا أتوقع أن تصدقني، ولكنني أؤكد لك أن الأمر كذلك؛ إن هذا المنديل ليس لي.

- أيمكن أن يكون أحدهم قد وضعه هناك ليتم تجريمك؟

ابتسمت قليلاً وقالت: أنت تريد حملي على الاعتراف بأنه لي، ولكنه -صدقاً- ليس لي يا سيد بوارو.

تكلمت بثقة عظيمة، فقال: إذا لم يكن هذا المنديل لك إذن، فلِمَ غيرتما الاسم في جواز السفر؟

أجاب الكونت قائلاً: لأننا سمعنا أنه قد عُثر على منديل عليه الحرف «هـ» فناقشنا الموضوع قبل أن تتم مقابلتنا وأوضحت لهيلينا أنه حالما يُعرف أن اسمها الأول يبدأ بهذا الحرف فإنها ستتعرض لتحقيق شديد. كان الأمر سهلاً للغاية، وهو أن نغير اسم هيلينا إلى إيلينا.

علّق بوارو بجفاء: إن لديك -يا سيدي الكونت- مواهب لا تتوفر إلاّ لمجرم محنك؛ عبقرية طبيعية كبيرة وعزم شديد على إعاقة العدالة.

مالت الفتاة إلى الأمام وقالت: آه، لا، لا. لقد أوضح لك دواعي أفعاله يا سيد بوارو.

ثم غيرت كلامها من الفرنسية إلى الإنكليزية وقالت: لقد كنت خائفة... خائفة جداً. ألا تفهم؟ لقد كانت التجربة الأولى فظيعة في ذلك الوقت، ولا أحتمل أن تُثار آلامها من جديد ولا أن يتم اتهامي وربما زجي في السجن. لقد كنت خائفة جداً يا سيد بوارو، هذا كل ما في الأمر. ألا تفهم ذلك أبداً؟

كان صوتها جميلاً وعميقاً وغنياً ومتوسلاً... صوت ابنة الممثلة ليندا آردن.

نظر بوارو إليها بجدية وقال: إذا كان لي أن أصدّقك يا سيدتي (ولا أقول إنني لن أفعل) فيجب عليك أن تساعديني.

- أساعدك؟

- نعم. إن سبب الجريمة يكمن في الماضي... في تلك المأساة التي حطمت بيتك. عودي معي إلى الوراء -يا سيدتي- فلعلي أجد العلاقة التي تربط هذه الأشياء جميعاً.

قالت بأسى: وماذا عندي لأخبرك به؟ لقد ماتوا جميعاً... ماتوا جميعاً... ماتوا جميعاً... روبرت، وسونيا، وديزي العزيزة الغالية. كانت جميلة وسعيدة وذات خصلات شعر مجعدة جميلة، وكنا كلنا نهيم حباً بها.

- كانت هناك ضحية أخرى يا سيدتي... ضحية غير مباشرة إذا صح التعبير؟

- سوزان المسكينة؟ نعم، لقد نسيت أمرها. استجوبها الشرطة، إذ كانوا على قناعة بأن لها علاقة بالأمر. ربما كانت لها علاقة، ولكنها علاقة بريئة، أظن أنها تحدثت ببراءة مع شخص ما عن مواعيد خروج ديزي، ولقد عانت المسكينة كثيراً واعتقدت أنها تُعتبر مسؤولة عن الحادث.

ارتعشت ثم أضافت: "ثم رمت بنفسها من النافذة، آه! لقد كان الأمر فظيعاً". ثم غطّت وجهها بيديها.

- ماذا كانت جنسيتها يا سيدتي؟

- كانت فرنسية.

- وماذا كان اسمها الأخير؟

- هذا غريب، ولكنني لا أستطيع أن أتذكر. كنا جميعاً نناديها سوزان. لقد كانت فتاة مرحة جداً، وكانت مُتعلقة بديزي.

- كانت خادمة الطفلة، أليس كذلك؟

- بلى.

- ومَن كانت المربية؟

- كانت المربية ممرضة متدربة من أحد المستشفيات، وكان اسمها ستينغلبيرغ. وكانت هي الأخرى متعلقة بديزي... وبأختي.

- والآن يا سيدتي، أريدك أن تفكري ملياً قبل أن تجيبي عن هذا السؤال: منذ صعدت على هذا القطار، هل رأيت أحداً تعرفينه؟

حدقت إليه وقالت: أنا؟ لا؛ لا أحد أبداً.

- وماذا عن الأميرة دراغوميروف؟

- آه! هي؟ إنني أعرفها بالطبع. ظننت أنك تعني أي أحد... أي أحد من... من الماضي.

- هذا ما عنيته يا سيدتي. والآن فكري بعناية وتذكري أنه مرّت سنوات على تلك المأساة، وربما يكون منظر الأشخاص قد تغير قليلاً.

فكرت هيلينا بعمق ثم قالت: لا، أنا متأكدة... لا يوجد أحد.

- أنت أيضاً كنت فتاة صغيرة في ذلك الوقت. ألم يكن عندك أحد يرعى شؤونك أو يشرف على دراستك؟

- آه! بلى. كانت لديّ مربية فظيعة، وكانت في نفس الوقت سكرتيرة لسونيا. كانت إنكليزية، امرأة ضخمة ذات شعر أحمر.

- ماذا كان اسمها؟

- الآنسة فريبودي.

- هل كانت شابة أم مسنة؟

- بدت مسنة جداً بالنسبة لي، ولكن لا أظن أن عمرها كان يزيد عن الأربعين. وبالطبع كانت سوزان تهتم بملابسي وتخدمني.

- ألم يكن في المنزل موظفون آخرون؟

- الخدم فقط.

- وأنت متأكدة... متأكدة جداً يا سيدتي، من أنك لم تتعرفي على أحد في القطار؟

أجابت بثقة: نعم؛ لا أحد يا سيدي، لا أحد أبداً.

* * *

الفصل الخامس

الاسم الأول للأميرة دراغوميروف

عندما غادر الكونت والكونتيسة نظر بوارو إلى صاحبيه وقال: إننا نتقدم، أليس كذلك؟

قال السيد بوك من قلب صادق: عمل رائع. أنا ما كنتُ لأشك بالكونت والكونتيسة أندرينيه، وأعترف بأنني كنت أحسبهما صادقَين جداً. لا أظن أن ثمة شكاً في أنها قد ارتكبت الجريمة، أليس كذلك؟ إنه أمر مؤسف. ومع ذلك فلن يحكموا عليها بالإعدام، إذ توجد ظروف مخففة تحيط بالجريمة. ستقضي بضع سنوات في السجن، هذا كل ما في الأمر.

- أنت متأكد من أنها مذنبة.

- من المؤكد أنه لا يوجد في ذلك شك يا صديقي العزيز! لقد ظننت أن أسلوبك في الحديث معها كان فقط لتهدئة الموقف حتى نخرج من الثلوج ويأتي الشرطة لتولي الموضوع.

- ألا تصدق تأكيد الكونت وقسمه بشرفه على براءة زوجته؟

- يا صديقي، هذا أمر طبيعي... فماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟ إنه يعشق زوجته ويود أن ينقذها! إنه يكذب بطريقة متقنة، وبأسلوب السيد الجليل، ولكن ماذا يمكن أن يكون كلامه إن لم يكن كذباً؟

- لديّ فكرة شاذة مفادها أنه ربما يقول الحقيقة.

- لا، لا. تذكَّر المنديل؛ فهو يؤكد القصة بأكملها.

- آه، أنا لست متأكداً تماماً من المنديل. ألا تذكر أنني كنت أقول دائماً بوجود احتمالين بالنسبة لصاحبة المنديل.

- ولكن مع ذلك...

توقف السيد بوك عن الحديث عندما فُتح الباب الموجود في النهاية ودخلت الأميرة دراغوميروف عربة المطعم. تقدمت نحوهم مباشرة ونهض الرجال الثلاثة على أقدامهم، ولكنها أغفلت الرجلين الآخرين وتحدثت إلى بوارو قائلة: أعتقد -يا سيد- أن معك منديلاً يخصني.

نظر بوارو نحو الرجلين بانتصار وقال: أهذا هو يا سيدتي؟

أخرج المنديل الصغير المربع فقالت: هذا هو، وعلى زاويته أول حرف من اسمي.

قال السيد بوك: ولكن هذا الحرف هو الهاء يا سيدتي الأميرة، واعذريني إذا قلتُ إن اسمك الأول هو ناتاليا.

نظرت إليه ببرود وقالت: هذا صحيح يا سيد، ولكن مناديلي

تُطرَّز دائماً بالأحرف الروسية، وحرف الهاء بالإنكليزية يشابه تماماً حرف النون بالروسية.

فوجئ السيد بوك قليلاً. كان في هذه السيدة العجوز الصلبة شيء يجعله يشعر بالتوتر وعدم الارتياح. قال لها: ولكنك لم تخبرينا أن هذا المنديل لك أثناء الاستجواب هذا الصباح.

قالت الأميرة بجفاء: أنت لم تسألني.

قال بوارو: أرجوك، تفضلي بالجلوس يا سيدتي.

تنهدت وقالت: "أظن أن من الأفضل أن أفعل ذلك". ثم جلست وقالت: لا داعي لأن تجعلوا من هذا الأمر قصة طويلة أيها السادة. إن سؤالكم التالي سوف يكون: كيف حدث أن يكون منديلي مرمياً عند جثة رجل مقتول؟ وجوابي على ذلك هو أنني لا أعرف أبداً.

- أنت لا تعرفين حقاً؟

- أبداً.

- اعذريني يا سيدتي، ولكن إلى أي حد نستطيع الاعتماد على صدق إجاباتك؟

قال بوارو هذه الكلمات بلطف شديد، فأجابت الأميرة بازدراء: أظنك تعني حقيقة أنني لم أخبركم بأن هيلينا أندرينيه هي أخت السيدة آرمسترونغ؟

- في الواقع لقد تعمدتِ أن تكذبي علينا حول هذه النقطة.

- بالتأكيد، وسأفعل ذلك ثانية؛ فأمها كانت صديقتي، وأنا أؤمن -يا سادة- بالولاء، الولاء لأصدقاء المرء وعائلته وطبقته.

- ألا تؤمنين بعمل ما في وسعكِ لتحقيق العدالة؟

- إنني -في هذه الحالة تحديداً- أؤمن بأن العدالة... العدالة المحضة... قد تحققت.

مال بوارو إلى الأمام وقال: لا بد وأنك ترين الصعوبة التي أقع بها يا سيدتي. ففي موضوع المنديل هذا، هل أستطيع تصديقك؟ أم أنك تحمين ابنة صديقتك؟

- آه، إنني أفهم ما تعنيه.

افترّ وجهها عن ابتسامة بائسة ثم قالت: يمكن إثبات كلامي هذا بسهولة يا سادة. سوف أعطيكم عنوان الأشخاص الذين يصنعون لي مناديلي في باريس، وما عليكم إلاّ أن تعرضوا عليهم هذا المنديل وسوف يخبرونكم بأنهم صنعوه لي حسب طلبي قبل سنة. إن المنديل لي يا سادة.

ثم نهضت قائلة: هل لديكم أي سؤال آخر تودون طرحه عليّ؟

- هل عرفت خادمتك المنديل عندما عرضناه عليها هذا الصباح يا سيدتي؟

- لا بد وأنها قد عرفته. هل رأته ولم تقل ذلك؟ حسناً، هذا يُظهر أنها تتمتع هي الأخرى بالولاء.

وبانحناءة بسيطة من رأسها خرجت من عربة المطعم.

تمتم بوارو بهدوء: هذا هو إذن. لقد لاحظتُ تردداً بسيطاً عندما سألتُ الخادمة إن كانت تعلم لِمَنْ هذا المنديل. كانت غير واثقة فيما إذا كان يجب عليها أن تعترف بأنه لسيدتها أو لا، ولكن كيف يتفق ذلك مع فكرتي الأساسية الغريبة تلك؟ نعم، قد يتفق بالفعل.

قال السيد بوك بإشارة خاصة به: آه، إنها سيدة عجوز فظيعة!

سأل بوارو الطبيب: هل يمكن أن تكون قد قَتَلت راتشيت؟

هز الطبيب رأسه نافياً وقال: بوجود تلك الطعنات التي وُجِّهت بقوة واخترقت العضلات؟ أبداً. لا يمكن لشخص بمثل هذه البنية الضعيفة أن يكون قد قام بذلك.

- وماذا عن الطعنات الواهنة؟

- أما الطعنات الواهنة، فنعم.

قال بوارو: إنني أفكر فيما حدث هذا الصباح عندما قلت لها إن قوتها في إرادتها لا في ذراعيها، قلت ذلك على سبيل إلقاء شرك لها، إذ أردت أن أعلم إن كانت ستنظر إلى ذراعها اليمنى أو اليسرى، ولكنها لم تفعل أياً من ذلك بل نظرت إليهما معاً. إلاّ أنها أجابت إجابة غريبة، فقد قالت: "لا، ليست لديّ قوة في يديّ، ولا أدري أأحزن أم أفرح لذلك". وهذا رد غريب، وهو يؤكد لي

اعتقادي حول الجريمة.

- ولكن الرد لم يحسم موضوع استعمال اليد اليسرى.

- نعم. بالمناسبة، هل لاحظتما أن الكونت أندريني يحتفظ بمنديله في جيب صدره الأيمن؟

هز السيد بوك رأسه نافياً، ثم عاد ذهنه إلى الحقائق المثيرة التي تكشفت في نصف الساعة الأخيرة فتمتم: كذب... ثم كذب، ثم المزيد من الكذب! يدهشني عدد الأكاذيب التي قيلت لنا هذا الصباح.

قال بوارو بسرور: وما يزال أمامنا المزيد مما ستكشفه.

- أتظن ذلك؟

- سيخيب أملي كثيراً إن لم يكن الأمر كذلك.

قال السيد بوك: "إن هذا الخداع فظيع". ثم أضاف مؤنباً: ولكن يبدو أن هذا يسرّك.

قال بوارو: إن حسنة ذلك هي التالية: إذا كذب عليك شخص ما وواجهته بالحقيقة فإنه يعترف بكذبه عادة، وهذا ناتج -في معظم الأحيان- عن المفاجأة الكبيرة التي يتعرض إليها. كل ما تحتاج إليه هو أن يكون حدسك صادقاً حتى تُحدث هذا التأثير، وهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يجب اتباعه في هذه القضية، حيث أختار كل راكب بدوره وأفكر في إفادته وأقول في نفسي: "إذا كان فلان

يكذب ففي أية نقطة يكذب؟ وما هو السبب وراء هذا الكذب؟"، ثم أجيب: "إذا كان فلان يكذب -وأقول: إذا- فإن الكذب سيكون لسبب محدد وفي نقطة محددة". لقد فعلنا ذلك بنجاح مع الكونتيسة أندرينيه، وسوف نتابع الآن ونحاول نفس الأسلوب مع عدد من الركاب الآخرين.

- وماذا يحدث لو افترضنا أن حدسك كان مخطئاً يا صديقي؟

- نكون -وقتها- قد استبعدنا شخصاً واحداً على الأقل من دائرة الشك.

- آه، أنت تتبع أسلوب إلغاء من تثبت براءته؟

- تماماً.

- ومن سنرى تالياً؟

- سنرى ذلك «الرفيق الطيب» كما يقولون في الهند... العقيد آربوثنوت.

* * *

الفصل السادس

مقابلة ثانية مع العقيد آربوثنوت

بدا واضحاً أن العقيد آربوثنوت كان منزعجاً لأنه طُلب إلى عربة المطعم لمقابلة ثانية. كان تعبير وجهه ساخطاً جداً عندما جلس وقال: حسناً؟

قال بوارو: أعتذر كثيراً على إزعاجك مرة ثانية، ولكن أظن أنه لا تزال في جعبتك بعض المعلومات التي يمكن أن تُطلِعنا عليها.

- حقاً؟ لا أكاد أرى ذلك.

- في البداية، أترى منظف الغليون هذا؟

- نعم.

- أهو واحد من منظفاتك؟

- لا أدري؛ فأنا لا أضع عليها إشارة خاصة.

- أتدرك -أيها العقيد آربوثنوت- أنك الرجل الوحيد من بين ركاب هذه العربة الذي يدخن الغليون؟

- في هذه الحالة قد يكون واحداً من منظفاتي.

- أتعلم أين عثرت عليه؟

- ليست لديّ أية فكرة.

- لقد وُجد قرب جثة الرجل الميت.

رفع العقيد آربوثنوت حاجبيه، فتابع بوارو: هل تستطيع أن تخبرنا كيف يمكن أن يصل إلى هناك يا عقيد آربوثنوت؟

- إذا كنت تعني أنني أسقطته هناك بنفسي، فالجواب هو: لا، لم أفعل.

- هل ذهبت إلى مقصورة السيد راتشيت في أي وقت؟

- أنا لم أتكلم مع الرجل مجرد كلام أبداً.

- لم تتكلم معه أبداً ولم تقتله؟

ارتفع حاجبا العقيد مرة أخرى بسخرية وقال: لو أنني فعلت ذلك لكان من المستبعد جداً أن أخبرك به. الحقيقة أنني لم أقتل الرجل.

تمتم بوارو: آه، حسناً. هذا لا يهم!

- معذرة، ماذا قلت؟

- قلت إن هذا لا يهم.

- آه!

بدا آربوثنوت وكأنه قد فوجئ ونظر إلى بوارو بعدم ارتياح، ولكن الرجل الضئيل تابع قائلاً: لأن منظف الغليون لا يهم. أستطيع أنا بنفسي أن أفكر في أحد عشر سبباً جيداً لوجوده هناك.

حدق آربوثنوت إليه فيما تابع بوارو يقول: إن ما أردت أن أراك حقاً بشأنه هو قضية مختلفة تماماً. ربما تكون الآنسة دبنهام قد أخبرتك بأنني سمعت بعض الكلمات التي تحدثت بها في المحطة في قونية.

لم يجب آربوثنوت.

- قالت: "ليس الآن، عندما ينتهي كل شيء، عندما يكون كل شيء وراءنا". هل تعلم إلى أي شيء كانت تشير هذه الكلمات؟

- أنا آسف يا سيد بوارو، ولكن يجب عليّ أن أرفض الإجابة عن هذا السؤال.

- لماذا؟

قال العقيد بصلابة: أقترح عليك أن تسأل الآنسة دبنهام نفسها عن معنى هذه الكلمات.

- لقد سألتها.

- ورفضت أن تخبرك؟

- نعم.

- أظن -إذن- أن من الواضح تماماً أنني لن أتكلم.

- كيلا تكشف سِرّ سيدة؟

- تستطيع أن تصوغ العبارة كذلك إذا أردت.

- أخبرتني الآنسة دبينهام أن هذه الكلمات تتعلق بمسألة تخصها.

- لِمَ لا تتقبل كلامها إذن؟

- لأن الآنسة دبينهام -يا عقيد آربوثنوت- هي ما يمكن للمرء تسميته شخصية تتركز عليها الشبهات.

قال العقيد بحماسة: هذا هراء!

- إنه ليس كذلك.

- ليس لديك شيء ضدها أبداً.

- وماذا عن حقيقة أن الآنسة دبينهام كانت مربيةً في منزل آرمسترونغ في الوقت الذي اختُطِفت فيه ديزي آرمسترونغ الصغيرة؟

سادت فترة من الصمت الثقيل، ثم هزّ بوارو رأسه ببطء وقال: كما ترى، إننا نعرف أكثر مما تظن. إذا كانت الآنسة دبينهام بريئة فلماذا أخفت الحقيقة؟ لماذا أخبرتني أنها لم تذهب أبداً إلى أميركا؟

تنحنح العقيد وقال: ألا يمكن أن تكون مُخطئاً؟

- أنا لست مخطئاً. لماذا كذبتْ عليّ الآنسة دبينهام؟

هز العقيد آربوثنوت كتفيه وقال: من الأفضل أن تسألها هي، ولكني ما زلت أظنك مخطئاً.

رفع بوارو صوته ونادى، فأتى نادل المطعم من الطرف البعيد للعربة، فقال له: اذهب واسأل السيدة الإنكليزية في المقصورة رقم١١ أن تتلطف وتأتي إلى هنا.

- حسناً يا سيدي.

غادر الرجل، وجلس الرجال الأربعة في صمت. بدا وجه العقيد آربوثنوت وكأنه قَدْ قُدَّ من خشب؛ كان جامداً لا ينم عن أي شعور.

وما هي إلاّ لحظات حتى دخلت ماري دبينهام عربة المطعم.

* * *

الفصل السابع

هوية ماري ديبنهام

لم تكن تلبس قبعة، وقد ارتدّ رأسها إلى الوراء وكأنه علامة على التحدي. كانت تسريحة شعرها المشدود إلى الخلف تجعلها تبدو وكأنها مقدّمة سفينة تمخر بشموخ عباب بحر مائج... كانت جميلة في تلك اللحظة.

اتجهت عيناها نحو آربوثنوت للحظات... مجرد لحظات، ثم قالت لبوارو: هل أردتَ أن تراني؟

- أردتُ أن أسألك يا آنسة: لِمَ كذبتِ علينا هذا الصباح؟

- كذبت عليكم؟ لا أعلم ماذا تعني.

- لقد أخفيتِ حقيقة أنك كنت تعيشين -عملياً- في منزل آرمسترونغ عندما حدثت المأساة. لقد أخبرتني أنك لم تذهبي أبداً إلى أميركا.

رآها تتقبّض للحظة، ثم استعادت سيطرتها على نفسها وقالت: نعم، هذا صحيح.

- لا يا آنسة، هذا خطأ.

- لقد أسأت فهمي؛ أعني أنه صحيح أنني كذبتُ عليك.

- آه! أتعترفين بذلك؟

ارتسمت ابتسامة على شفتيها وقالت: بالتأكيد... بما أنك اكتشفت ذلك.

- أنت صريحة على الأقل يا آنسة.

- لا يبدو أمامي أي خيار آخر.

- هذا صحيح بالطبع. والآن يا آنسة، هل لي أن أسألك عن سبب ذلك التهرب؟

- ظننتُ أن السبب واضح وضوح الشمس يا سيد بوارو.

- إنه ليس واضحاً بالنسبة لي آنسة.

قالت بصوت هادئ ثابت فيه أثر من الصلابة: يجب أن أكسب معيشتي.

- وماذا يعني ذلك؟

رفعت عينيها ونظرت إلى وجهه مباشرة قائلة: ماذا تعرف يا سيد بوارو عن الصراع للحصول على عمل شريف والاحتفاظ به؟ أتظن أن فتاة اعتُقلت لعلاقتها بقضية قتل ونُشر اسمها (بل ربما نُشرت صورها...) في الصحف الإنكليزية، أتظن أن أية امرأة إنكليزية عادية

من الطبقة الوسطى ستحب استخدام تلك الفتاة مربية لأولادها؟

- لا أرى مانعاً من ذلك إن لم ينلها لوم في هذا الأمر.

- آه، اللوم؟ ليست المسألة مسألة لوم، بل الفضيحة وتسليط الأضواء! لقد نجحتُ في الحياة حتى الآن يا سيد بوارو. فقد حصلتُ على وظائف ممتعة بأجور جيدة، ولم أكن مستعدة لأن أعرض مركزي هذا للخطر، في وقت لا توجد فيه قضية تستفيد من ذلك.

- سأزعم -يا آنستي- أنني كنت أفضل من يحكم على ذلك، وليس أنت.

رفعت كتفيها بلا مبالاة، فقال بوارو: كان بإمكانك -مثلاً- أن تساعديني في مسألة التعرف على الأشخاص.

- ماذا تعني؟

- أيمكن -يا آنسة- أنك لم تتعرفي في الكونتيسة أندرينيه على الأخت الصغرى للسيدة آرمسترونغ، والتي كنت تُعلمينها في نيويورك؟

- الكونتيسة أندرينيه؟

هزت رأسها ثم قالت: قد يبدو هذا غريباً جداً لك، إلا أنني لم أعرفها؛ إذ إنها لم تكن ناضجة عندما كنتُ أعرفها، فقد مضى على ذلك أكثر من ثلاث سنوات. صحيح أن الكونتيسة ذكرتني بشخص ما... مما حيرني، ولكنها بدت أجنبية جداً، ولم أربط بينه

وبين طالبة المدرسة الأميركية الصغيرة تلك. ولكن الحقيقة أنني لم أنظر إليها إلا بلمحة بسيطة عندما دخلت عربة المطعم. لقد لاحظتُ ملابسها أكثر من وجهها!

ابتسمت ابتسامة باهتة ثم أضافت: هذا دأب النساء! كما كانت لدي مشاغلي الخاصة.

- ألن تخبريني بسرك يا آنسة؟

كان صوت بوارو لطيفاً جداً ومقنعاً، ولكنها ردت بصوت خافت: لا أستطيع... لا أستطيع!

وفجأة، وبلا مقدمات، انهارت وأخفت وجهها بين ذراعيها الممدودين وأجهشت بالبكاء المر وكأن قلبها سينفطر، فنهض العقيد بسرعة إلى جانبها وهو يقول: إنني... انظري إليّ...

ثم توقف والتفت نحو بوارو يرمقه بنظرات غاضبة وقال: سأحطم كل عظمة في جسدك اللعين أيها الصغير القذر...

اعترض السيد بوك قائلاً: سيدي...

ولكن آربوثنوت التفت إلى الفتاة قائلاً: ماري... بالله عليك...

نهضت بسرعة وقالت: لا شيء، إنني بخير. أنت لا تريدني أكثر من ذلك يا سيد بوارو، أليس كذلك؟ إذا كنت تريدني في شيء آخر فيجب عليك أن تأتي وتعثر علي. آه، يا لي من حمقاء... جعلت نفسي أبدو حمقاء!

أسرعت خارج العربة، وقبل أن يتبعها آربوثنوت التفت مرة أخرى نحو بوارو قائلاً: "لا علاقة للآنسة ديبنهام بهذا الأمر.. أبداً. أتسمعني؟ وإذا ما أقلقتها أو تدخلت في شؤونها فسوف يكون حسابك معي أنا"، ثم مشى خارجاً.

قال بوارو: أحبّ أن أرى إنكليزياً غاضباً؛ فهم يبعثون السرور في النفس، وكلما زاد انفعالهم كانوا أقلّ تحكّماً باللغة.

إلاّ أن السيد بوك لم يكن مهتماً بانفعالات الإنكليز، بل استحوذ عليه الإعجاب بصاحبه فصاح قائلاً: يا صديقي، إنك لعظيم! تخمين مُعجز آخر. أمر فظيع!

وقال الدكتور كونستانتين بإعجاب: إن طريقة تفكيرك بهذه الأشياء رائعة حقاً.

- آه، ليس لي الفضل هذه المرة؛ فهذا لم يكن تخميناً. لقد كادت الكونتيسة أندرينيه تخبرني بذلك.

- ماذا؟ كلا بالتأكيد؟

- أتذكرون أنني سألتها عن مربيتها أو وصيفتها؟ كنتُ قد قررتُ -في قرارة نفسي- أنه إذا كانت ماري ديبنهام متورطة في هذا الموضوع فلا بد وأنها كانت ضمن موظفي منزل آرمسترونغ.

- نعم، ولكن الكونتيسة أندرينيه وصفت امرأة أخرى مختلفة تماماً.

- بالضبط. قالت إنها كانت طويلة في وسط العمر ذات شعر

أحمر... والحقيقة أنها أوصاف تناقض تماماً أوصاف الآنسة ديبنهام. ثم كان عليها أن تخترع اسماً بسرعة، وفي هذه النقطة فضحها الربط اللاواعي للأفكار. لقد قالت إن اسمها هو الآنسة فريبودي، أتذكران؟

- نعم.

- حسناً، لعلكما لا تعرفان ذلك، ولكن يوجد في لندن متجر كان يُسمّى حتى عهد قريب «ديبنهام وفريبودي». وفيما كان اسم ديبنهام يجول في خاطرها فإن الكونتيسة حاولت التفكير باسم آخر بسرعة، وأول ما خطر ببالها هو اسم فريبودي، وبالطبع فهمتُ الأمر على الفور.

- هذه كذبة أخرى. ولماذا فعلت الكونتيسة ذلك؟

- ربما بسبب المزيد من الولاء، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة.

قال بوك بحدة: يا إلهي! أيكذب علينا كلّ مَن في القطار؟

قال بوارو: هذا ما أوشكنا أن نكتشفه قريباً.

* * *

الفصل الثامن

اكتشافات أخرى مثيرة

قال السيد بوك: لن يدهشني شيء بعد الآن، أي شيء! وحتى لو ثبت أن كل من على القطار كانوا من مستخدمي منزل آرمسترونغ فإنني لن أبدي دهشتي!

قال بوارو: هذه ملاحظة عميقة جداً. أتحب أن ترى ماذا لدى متهمك المفضل، الرجل الإيطالي، مما يقوله عن نفسه؟

- أتريد تجربة تخمين آخر من تخميناتك الشهيرة؟

- تماماً.

قال كونستانتين: إنها قضية في غاية الغرابة بالفعل.

- لا. إنها طبيعية جداً.

نزع السيد بوك يديه في الهواء في يأس مضحك وقال: إذا كان هذا ما تسميه طبيعياً يا صديقي... . ثم خانته الكلمات المناسبة.

في هذه الأثناء طلب بوارو من النادل أن يُحضر أنطونيو فوسكاريللي. وعندما دخل الإيطالي الضخم كانت في عينيه نظرة احتراس، وكان ينظر من جانب إلى آخر كحيوان وقع في فخ. قال: ماذا تريدون؟ ليس لدي ما أقوله، لا شيء. هل تسمعونني؟ يا إلهي!

ثم ضرب بيده على الطاولة، فقال بوارو بحزم: بل لديك شيء آخر تقوله لنا. الحقيقة!

- الحقيقة؟

نظر نحو بوارو نظرة تململ وقد ذهب كل الاعتداد واللطف من سلوكه، فقال بوارو: نعم. لعلي أعرف أصلاً ما سوف تقوله، ولكن سيكون من صالحك لو جاء ذلك منك عفو الخاطر.

- إنك تتكلم مثل الشرطة الأميركيين. إنهم عادة ما يقولون: "أفض بما لديك... أفض بما لديك".

- آه، إذن فقد كانت لك تجربة مع شرطة نيويورك؟

لا، لا. أبداً. لم يستطيعوا أن يُثبتوا شيئاً ضدي... رغم أنهم حاولوا كثيراً.

قال بوارو بهدوء: كان ذلك في قضية آرمسترونغ، أليس كذلك؟ كنت السائق؟

قابلت عيناه عيني الإيطالي، فاختفت ملامح التبجح من وجه الرجل الضخم وقال: لماذا تسألني إن كنت تعرف؟

- لماذا كذبتَ عليّ هذا الصباح؟

- بسبب أعمالي، بالإضافة إلى أنني لا أثق بأجهزة الشرطة اليوغسلافية. إنهم يكرهون الإيطاليين وما كانوا لينصفوني.

- ربما كانت العدالة تحديداً هي ما سيطبقونه عليك!

- لا، لا. لم تكن لي أية علاقة بقضية الليلة الماضية؛ فأنا لم أغادر مقصورتي أبداً، وسوف يخبركم بذلك الرجل الإنكليزي ذو الوجه الطويل. لستُ أنا من قتل هذا الخنزير... راتشيت. لا تستطيع أن تثبت شيئاً ضدي.

كان بوارو يكتب شيئاً، فرفع رأسه وقال بهدوء: حسناً، تستطيع أن تذهب.

تباطأ فوسكاريللي بشيء من التململ وقال: أتدرك أنني لم أكن الفاعل... وأنه لم يكن ممكناً أن تكون لي علاقة لي بالأمر؟

- قلت إنك تستطيع أن تذهب.

- إنها مؤامرة، إنكم ستلصقون التهمة بي! كل ذلك بسبب رجل خنزير كان يجب أن يذهب إلى الكرسي الكهربائي! من العار أنه لم يذهب، فلو كنت أنا... لو تم اعتقالي أنا...

- ولكن لم تكن أنت الفاعل، ولم تكن لك علاقة باختطاف الطفلة، أليس كذلك؟

- ما هذا الذي تقوله؟ لقد كانت تلك الطفلة محبوبة البيت

كله، وكانت تناديني تونيو. كانت تجلس في السيارة وتتظاهر بالإمساك بعجلة القيادة، وكان كل من في البيت يهيم حباً بها! حتى الشرطة أدركوا ذلك. آه، يا لها من طفلة جميلة!

كان صوته قد رقّ واغرورقت عيناه بالدموع، ثم التفت فجأة ومشى خارج عربة المطعم.

نادى بوارو: بييترو.

جاء النادل راكضاً، فقال له: اطلب لنا السيدة السويدية من المقصورة رقم ١٠.

- حسناً يا سيدي.

صاح السيد بوك: كاذب آخر؟ آه، كلا... إن هذا مستحيل! إنني أقول لكم إن هذا غير ممكن!

- يجب أن نعرف يا عزيزي، حتى لو تبين -في النهاية- أن كل مَن على القطار كان لهم دافع لقتل راتشيت فعلينا أن نعرف ذلك. وعندما نعرف ذلك نستطيع أن نحدد أين يقع الذنب.

قال السيد بوك بأسى: إن رأسي يدور.

أدخل النادل غريتا أولسون بوة، فقد كانت تبكي بحرقة. ثم انهارت على مقعد مواجه لبوارو وبكت بكاء متواصلاً، فربت بوارو على كتفيها وقال: لا تزعجي نفسك يا سيدتي، لا تزعجي نفسكِ. فقط بعض الكلمات الصادقة، هذا كل ما نريده. لقد كنتِ ممرضة الطفلة ديزي آرمسترونغ، أليس كذلك؟

قالت المرأة البائسة وهي تبكي: هذا صحيح... هذا صحيح. آه، لقد كانت ملاكاً. ملاكاً صغيراً رائعاً يثق بالناس، فهي لم تعرف سوى اللطف والحب. وقد خطفها ذلك الرجل الشرير وعاملها بقسوة... وأمها المسكينة... وذلك الجنين الذي لم يُقدّر له أن يعيش أبداً. أنت لا تستطيع أن تفهم... لا تستطيع أن تعرف. لو أنك كنت هناك كما كنتُ أنا... لو أنك رأيت المأساة كلها! كان يجب عليّ أن أخبرك بالحقيقة هذا الصباح، ولكنني كنت خائفة... خائفة. لقد سُررت جداً لأن ذلك الرجل الشرير قد مات ولأنه لن يتمكن من قتل وتعذيب الأطفال الصغار بعد الآن. آه! إنني لا أستطيع أن أتكلم... لم يعد لديّ المزيد من الكلام.

بكت بحرقة أكثر من السابق، واستمرّ بوارو في ملاطفتها قائلاً: لا بأس، لا بأس. إنني أفهم، إنني أفهم كل شيء... كل شيء. لن أسألك المزيد من الأسئلة. يكفي أنك اعترفت بما أعرف أنه الحقيقة. أقول لك إنني أفهم كل شيء.

لم تعد غريتا أولسون قادرة على إيضاح كلامها بسبب النحيب، فنهضت وتحسست طريقها نحو الباب، وعندما وصلته اصطدمت برجل.

كان ذلك الرجل هو الخادم ماسترمان، وقد جاء إلى بوارو مباشرة وتكلم بصوته الهادئ المعتاد الخالي من العواطف: أرجو ألاّ أكون متطفلاً يا سيدي. لقد ظننت أن من الأفضل أن آتي فوراً وأخبرك بالحقيقة. لقد كنتُ مراسلاً للعقيد آرمسترونغ في الجيش أثناء الحرب يا سيدي، ثم بعد ذلك أصبحت خادمه في نيويورك. لقد أخفيت

عنك تلك الحقيقة هذا الصباح وكان ذلك خطأً كبيراً يا سيدي، ثم رأيت أنه من الأفضل أن أريح ضميري وأخبرك بالحقيقة. ولكنني آمل -يا سيدي- بأنك لا تشك بطونيو بأية طريقة، إن طونيو -يا سيدي- لا يستطيع أن يؤذي ذبابة، وأستطيع أن أقسم جازماً بأنه لم يغادر المقصورة أبداً ليلة أمس. فكما ترى -يا سيدي- لا يمكن أن يكون هو الفاعل. قد يكون طونيو أجنبياً يا سيدي، إلاّ أنه مخلوق لطيف جداً، وليس مثل أولئك الإيطاليين البغيضين القتلة الذين نقرأ عنهم.

ثم توقف عن الكلام، فنظر بوارو نحوه بحدة وقال: أهذا كل ما لديك؟

- نعم؛ هذا كل ما لديّ يا سيدي.

ثم سكت، وحين لم يتكلم بوارو انحنى انحناءة بسيطة معتذراً، وبعد تردد بسيط غادر عربة المطعم بنفس الأسلوب الهادئ الذي دخل به.

قال الدكتور كونستانتين: إن هذا أبعد احتمالاً وأندر حدوثاً مما تنطوي عليه أية قصة بوليسية قرأتها في حياتي!

وقال السيد بوك: أوافقك الرأي؛ فمن بين اثني عشر راكباً في تلك العربة ثبت أن تسعةً كانوا على صلة بقضية آرمسترونغ، وإنني أسأل: ماذا سنكتشف الآن؟ أم أن عليّ أن أسأل: من سنكتشف الآن؟

قال بوارو: أكاد أستطيع الإجابة على سؤالك. ها قد أتى

الشرطي السري الأميركي ، السيد هاردمان.

- هل أتى هو الآخر ليعترف؟

كان الأميركي قد وصل إلى طاولتهم قبل أن يجيب بوارو، فنظر إليهم بعينين واعيتين، ثم جلس وقال: ما الذي يحدث على هذا القطار بالضبط؟ يبدو لي وكأنه دار للمجانين.

لمعت عينا بوارو وهو ينظر إليه وقال: أأنت متأكد تماماً -يا سيد هاردمان- من أنك لم تكن البستاني في منزل آرمسترونغ.

أجاب السيد هاردمان: لم تكن لديهم حديقة.

- أو كبير الخدم؟

- لا يوجد لديّ السمتُ المناسب لعمل كهذا. لا، لم تكن لي أية صلة بمنزل آرمسترونغ... ولكنني بدأت أؤمن بأنني الوحيد الذي لم يكن مرتبطاً بهم! أتستطيع تصديق ذلك؟ هذا ما أقوله: هل بمكنك تصديق ذلك؟

قال بوارو بهدوء: إنه أمر مدهش قليلاً بلا ريب.

قال السيد بوك: بل هو فظيع.

سأل بوارو: هل لديك أية أفكار حول الجريمة يا سيد هاردمان؟

- لا يا سيدي. إنها تحيرني ولا أستطيع أن أجد لها حلاً ؛ فلا يمكن أن يكونوا قد اشتركوا بها جميعاً، ومعرفة الجاني من بينهم

أمر فوق طاقتي. ما أودّ أن أعرفه هو كيف استطعت أن تكتشف كل هذا؟

- مجرد تخمين.

- إذن صدّقني أنك مُخمِّن لا يُشَقّ له غبار. نعم، سأخبر العالم بأنك مخمن محنك.

اتكأ السيد هاردمان إلى الخلف ونظر نحو بوارو بإعجاب قائلاً: اعذرني، ولكن لا يمكن لمن يراك أن يصدق ذلك. إنني أرفع قبعتي احتراماً لك... إنني جاد فعلاً.

- أنت لطيف جداً يا سيد هاردمان.

- أبداً، ولكن عليّ أن أعترف بقدراتك.

قال بوارو: ومع ذلك فالقضية لم تُحَلّ بعد. هل نستطيع أن نحدد هوية قاتل السيد راتشيت بكل ثقة؟

قال السيد هاردمان: استبعدني من ذلك، فأنا لا أستطيع أن أقول شيئاً أبداً، إلا أنني ممتلئ إعجاباً بك. وماذا عن الاثنتين الأخريين اللتين لم تخمّن هويتهما بعد؟ السيدة الأميركية الغريبة والخادمة؟ أحسب أن بوسعنا اعتبارهما البريئتين الوحيدتين على القطار؟

قال بوارو وهو يبتسم: إلا إذا استطعنا أن نجد لهما مكاناً في مجموعتنا على أنهما -مثلاً- مديرة المنزل والطباخة في منزل آرمسترونغ.

قال السيد هاردمان وقد آثر النكوص: ما عاد في العالم ما يدهشني الآن. إنه بيت مجانين، إن هذا الأمر كله بيت مجانين!

قال السيد بوك: يا عزيزي! إن من شأن ذلك أن يكون مبالغة غير معقولة في المصادفات؛ فلا يمكن أن يكونوا جميعاً متورطين.

نظر بوارو نحوه وقال: أنت لا تفهمني... لا تفهم أبداً. أخبرني، هل تعلم من قتل راتشيت؟

قال السيد بوك: هل تعلم أنت؟

أومأ بوارو برأسه بالإيجاب وقال: نعم؛ لقد عرفت ذلك منذ بعض الوقت. إن الأمر واضح تماماً لدرجة أنني أتعجب كيف لا تعرفان أنتما أيضاً.

ثم نظر نحو هاردمان وسأله: وأنت؟

هز المحقق رأسه نافياً، وحدق إلى بوارو بفضول قائلاً: لا أعلم، لا أعلم أبداً. أيّ منهم هو؟

صمت بوارو لدقيقة ثم قال: لو تلطفت -يا سيد هاردمان- وجمعت الكل هنا. عندي حلان محتملان لهذه القضية وأريد أن أضعهما بين أيديكم جميعاً.

* * *

الفصل التاسع
بوارو يقدّم حلّين

بدأ الركاب يتجمعون في عربة المطعم واتخذوا مقاعدهم حول الطاولات. كانت تعابيرهم متشابهة وهي التوقع المشوب بالخشية، وكانت السيدة السويدية ما تزال تنتحب والسيدة هوبارد تُهدئ من روعها: تمالكي نفسكِ الآن يا عزيزتي؛ فكل شيء سيكون على ما يرام، يجب ألا تفقدي أعصابك. إذا كان أحدنا قاتلاً شريراً فإننا نعرف -حقاً- أنك لستِ ذلك القاتل. إن أي شخص يفكر في هذا يكون أحمق. اجلسي هنا، وسأبقى بجانبك، فلا تهتمي بشيء.

تلاشى صوتها عندما وقف بوارو، وكان مسؤول التذاكر يتحرك عند الباب ثم ما لبث أن قال: هل تسمح لي بالبقاء هنا يا سيدي؟

قال بوارو: "بالتأكيد يا ميشيل"، ثم تنحنح وقال: أيها السيدات والسادة، سأتكلم بالإنكليزية، حيث أظن أن الجميع يفهمها. نحن هنا لنحقق في مقتل صاموئيل إدوارد راتشيت، المسمى كاسيتّي. لهذه الجريمة حلاّن محتملان، وسوف أضعهما بين أيديكم، وسأطلب من السيد بوك والدكتور كونستانتين أن يحكما أي حل

هو الصحيح. إنكم تعرفون -جميعاً- حقائق القضية؛ فقد عُثر هذا الصباح على السيد راتشيت مطعوناً، وآخر ما عُرف أنه على قيد الحياة كان في الساعة ١٢,٣٧ ليلة أمس عندما كلم مسؤول التذاكر عبر الباب. وقد عُثر على ساعة محطمة ومتوقفة في جيب سترة نومه وعقاربها تشير إلى الواحدة والربع، وقام الدكتور كونستانتين بفحص الجثة وحدّد وقت الوفاة بين منتصف الليل والثانية صباحاً. وكما تعلمون جميعاً فإن القطار قد توقف بسبب الثلوج في الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، **وبعد ذلك الوقت كان من المستحيل أن يغادر أحدٌ القطار**. إن إفادة السيد هاردمان... وهو أحد موظفي وكالة تحريات في نيويورك (التفتت عدة رؤوس ونظرت نحو السيد هاردمان) تُظهر أن أحداً ما كان ليستطيع المرور أمام مقصورته (رقم ١٦ في نهاية الممر) من دون أن يراه؛ لذلك نحن مضطرون إلى استنتاج أن القاتل موجود ضمن من يقطنون مقصورات عربة محددة، وهي عربة إسطنبول-كاليه. هذه كانت هي نظريتنا.

صاح السيد بوك مقاطعاً وقد فوجئ: ماذا؟

- ولكنني سأضع بين يديكم نظرية بديلة، وهي بسيطة جداً. لقد كان للسيد راتشيت عدو معين يخافه، وقد أعطى السيد هاردمان وصفاً لهذا العدو وأخبره بأن محاولة قتله -إن حصلت- ستتم في الليلة الثانية بعد مغادرة إسطنبول في أغلب الظن. والآن سأخبركم -أيها السيدات والسادة- أن السيد راتشيت كان يعرف أكثر بكثير مما قاله؛ فالقاتل (وكما توقع السيد راتشيت) قد استقلّ القطار في بلغراد، أو ربما في فينكوفتشي، من خلال الباب الذي تركه العقيد آربوثنوت والسيد ماكوين مفتوحاً عندما نزلا إلى الرصيف. وتم

تزويده بالزي الرسمي لمسؤول التذاكر فارتداه فوق ملابسه العادية، وكان معه مفتاح عام لكل المقصورات مما أعانه على الدخول إلى مقصورة السيد راتشيت رغم أن بابها كان مقفلاً. كان السيد راتشيت يرقد تحت تأثير المنوم، فطعنه هذا الرجل بقوة كبيرة وغادر المقصورة عبر الباب الموصل إلى مقصورة السيدة هوبارد...

قالت السيدة هوبارد وهي تومئ برأسها موافقة: هذا صحيح.

- وقد وضع الخنجر الذي استعمله في حقيبة الحمام في مقصورة السيدة هوبارد أثناء عبوره، ومن غير أن يشعر فقَدَ زراً من بدلته هناك، ثم انسلّ من مقصورتها إلى الممر، وبعد ذلك دسّ الزي بسرعة في حقيبة في إحدى المقصورات الفارغة، وبعد عدة دقائق غادر القطار بملابسه العادية قبل أن يبدأ القطار سيره ثانية، مستخدماً -مرة أخرى- نفس المخرج، وهو الباب القريب من عربة المطعم.

شهق الجميع، وسأل السيد هاردمان: وماذا عن تلك الساعة؟

- هنا يكمن تفسير كل ما حدث. لقد نسي السيد هاردمان أن يعيد عقارب ساعته إلى الوراء بمقدار ساعة واحدة (وهو ما كان ينبغي عليه أن يفعله في تزاريبرود) فبقيت ساعته تشير إلى توقيت أوروبا الشرقية، وهو يتقدم بمقدار ساعة عن توقيت وسط أوروبا. كان الوقت هو الثانية عشرة والربع عندما طُعن السيد راتشيت وليس الواحدة والربع.

صاح السيد بوك: ولكن هذا التفسير سخيف، وماذا عن

الصوت الذي تكلم من داخل المقصورة في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة، فهو إما أن يكون صوت السيد راتشيت أو صوت قاتله.

- ليس بالضرورة، فقد يكون صوت شخص ثالث. ربما يكون شخصاً قد ذهب ليتحدث إلى السيد راتشيت ووجده ميتاً، فقرع الجرس ليُنادي مسؤول التذاكر، ثم ساورته الشكوك وخاف أن يُتّهم بالجريمة فتكلم على أنه راتشيت.

اعترف السيد بوك متذمراً: هذا ممكن.

نظر بوارو نحو السيدة هوبارد وقال: نعم يا سيدتي، لعلك كنتِ تريدين قول شيء...

- لا أدري تماماً ما الذي كنت سأقوله، ولكن هل تظن أنني نسيت أن أعيد عقارب ساعتي إلى الوراء أيضاً؟

- لا يا سيدتي. أظن أنك سمعت الرجل يمر عبر مقصورتك، ولكن ذلك كان في اللاوعي. وفي وقت لاحق رأيتِ كابوساً عن وجود رجل في مقصورتك فصحوت جفلة وقرعت الجرس للمسؤول.

اعترفت السيدة هوبارد قائلة: أظن أن هذا ممكن.

نظرت الأميرة دراغوميروف إلى بوارو نظرة مباشرة وقالت: وكيف تفسر إفادة خادمتي يا سيد بوارو؟

- أمر بسيط جداً يا سيدتي. لقد تعرفت خادمتك على المنديل

الذي عرضته عليها فحاولت أن تحميك بشكل فيه الكثير من الارتباك. لقد صادفت الرجل بالفعل، ولكنها صادفته قبل ذلك... عندما كان القطار في محطة فينكوفشي. ثم ادّعت أنها رأته في وقت لاحق في محاولة خرقاء لتزويدك بحجة غياب مُحكمة.

أحنت الأميرة رأسها وقالت: لقد فكرتَ في كل شيء يا سيد، إنني... إنني معجبة بك.

ساد الصمت المكان، ثم قفز الجميع عندما ضرب كونستانتين بقبضته فجأة على الطاولة وقال: ولكن لا، لا... وألف لا! إنه تفسير لا يصمد أمام الحقائق؛ فهو ضعيف في الكثير من النقاط الصغيرة. لم تُرتكَب الجريمة بهذه الطريقة، ولا بد من أن السيد بوارو يعرف ذلك جيداً.

التفت بوارو نحوه ورمقه بنظرة غريبة ثم قال له: أرى أن عليّ تقديم التفسير الثاني، ولكن لا تتخلَّ عن هذا التفسير بسرعة؛ فقد توافق عليه لاحقاً.

ثم التفت ثانية وواجه الآخرين قائلاً: يوجد حلٌّ آخر ممكن للجريمة، وقد توصلت إليه كالتالي:

عندما سمعت جميع الأدلة استلقيت إلى الخلف وأغلقت عيني وبدأت أفكر، فوجدت أن بعض النقاط كانت جديرة بالانتباه. وذكرت هذه النقاط لصديقيّ، وقد سبق أن شرحتُ بعضها (مثل بقعة الدهن على جواز السفر) وسوف أشرح الآن بقية النقاط. أولها وأهمها هو تعليقٌ ذكره السيد بوك في عربة المطعم أثناء الغداء في

اليوم الأول بعدما غادرنا إسطنبول، وهو أن الناس المجتمعين كانوا يختلفون فيما بينهم ويمثلون مختلف الطبقات والجنسيات.

وافقته حينئذ، ولكن عندما خطرت تلك النقطة ببالي ثانية حاولت أن أتخيل إن كان ممكناً لمثل هؤلاء الناس أن يجتمعوا تحت أي ظرف آخر، وأجبت نفسي بأن ذلك لا يمكن أن يحدث إلاّ في أميركا. ففي أميركا يمكن أن يتشكل العاملون في منزل ما من جنسيات كثيرة، سائق إيطالي، ومربية إنكليزية، وممرضة سويدية، وخادمة فرنسية، وهكذا... وهذا الأمر دعاني إلى إتّباع مُخططي في التخمين، وبمعنى آخر: إعطاء كل شخص الدور الذي يناسبه في مسرحية آرمسترونغ، تماماً كما يوزّع المخرج أدوار مسرحية، فخرجتْ نتائج مثيرة جداً ومُرضية.

كما قمتُ بفحص إفادة كل شخص على انفراد في ذهني، وخرجتْ نتائج تثير الفضول. ولنأخذ -مثلاً- إفادة السيد ماكوين. لقد كانت مقابلتي معه مرضية للغاية، ولكنه أطلق في المقابلة الثانية تعليقاً يثير الفضول، إذ وصفتُ له كيف عثرنا على ملاحظة تذكر قضية آرمسترونغ، فقال: "ولكن من المؤكد..." ثم توقف قليلاً، ثم أضاف: "أعني أن ذلك كان إهمالاً من الرجل العجوز". وقد شعرت بأن ذلك لم يكن ما بدأ بقوله فعلاً. لنفرض أنه أراد أن يقول: "ولكن من المؤكد أنها احترقت!". وفي هذه الحالة فإن ماكوين كان يعرف عن الملاحظة وعن حرقها، وبمعنى آخر: فهو إمّا أن يكون القاتل، أو شريكاً للقاتل. حسنٌ جداً.

بعد ذلك نأتي إلى الخادم. لقد قال إن سيده كان معتاداً على

تناول المنوم عندما يسافر بالقطار. وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن هل كان من شأن راتشيت **أن يتناول منوماً ليلة أمس**؟ إن المسدس الذي كان تحت وسادته يكذّب تلك العبارة؛ فقد أراد راتشيت أن يبقى بكامل حذره ليلة أمس، وأي منوم تناوله فإنه قد تناوله دون أن يعلم. مَنْ الذي أعطاه إياه؟ من الواضح أنه إمّا ماكوين أو الخادم.

والآن نأتي إلى إفادة السيد هاردمان: لقد صدّقتُ كل ما أخبرني به عن هويته، ولكن عندما وصف طُرُقه في حماية السيد راتشيت بدت قصته سخيفة تماماً. فالطريقة الوحيدة الفعّالة لحماية راتشيت كانت في أن يمضي ليلته داخل مقصورة راتشيت أو في مكان يستطيع منه مراقبة الباب، والشيء الوحيد الذي أظهرته إفادته بالفعل **هو أن أحداً في أي جزء آخر من القطار لم يكن بوسعه أن يكون قاتل راتشيت**، مما يضع دائرة واضحة حول عربة إسطنبول-كاليه. وقد بدت تلك بالنسبة لي حقيقة غريبة غامضة، فوضعتها جانباً لأفكر بها أكثر.

ولعلكم سمعتم جميعاً الآن بتلك الكلمات التي سمعتُها تدور بين الآنسة ديبنهام وبين العقيد آربوثنوت. إن الشيء المثير -في رأيي- هو حقيقة أن العقيد آربوثنوت ناداها باسم: ماري، ومن الواضح أنه كان على علاقة حميمة بها. ولكن كان يُفترض أن العقيد لم يقابلها إلا قبل بضعة أيام، وأنا أعرف نمط الإنكليز ممن هم على شاكلة العقيد. فحتى لو وقع في حب السيدة الشابة من أول نظرة، فإنه كان سيتقدم في علاقته معها ببطء ولباقة ولا يستعجل الأمور. لذلك استنتجتُ أن العقيد آربوثنوت والآنسة ديبنهام كانا -في حقيقة الأمر- يعرف أحدُهما الآخرَ جيداً، وأنهما يتظاهران بأنهما غريبان لسبب ما. ونقطة

أخرى بسيطة وهي معرفة الآنسة دبينهام باصطلاح «المكالمة البعيدة» في وصف المكالمات الدولية، وهو اصطلاح أميركي، ولكن الآنسة دبينهام أخبرتني بأنها لم تذهب أبداً إلى أميركا.

ولنمضِ إلى شاهد آخر: أخبرتنا السيدة هوبارد أنها عندما تكون مستلقية في سريرها لم يكن باستطاعتها أن ترى إن كان الباب الموصل بين المقصورتين مقفلاً بالمزلاج أم لا، ولذلك طلبت من الآنسة أولسون أن تتأكد من ذلك. والآن، رغم أن عبارتها هذه تكون صحيحة لو أنها كانت تشغل المقصورات ٢ أو ٤ أو ١٢... أو أية مقصورة ذات رقم زوجي (حيث يكون المزلاج أسفل مقبض الباب مباشرة) إلا أن المزلاج في المقصورات الفردية (كالمقصورة رقم ٣) يكون فوق المقبض ولا يمكن أن يختفي خلف حقيبة الحمام أبداً. لذلك أرغمت على استنتاج أن السيدة هوبارد اخترعت موقفاً لم يحدث أبداً.

دعوني الآن أخبركم كلمة أو اثنتين حول مسألة الوقت: إن النقطة المثيرة حقاً بالنسبة لي في موضوع الساعة المحطمة هو المكان الذي وُجدت فيه: في جيب سترة نوم راتشيت، وهو مكان غير مريح ويُستبعَد أن يضع المرء ساعته فيه، خاصة بوجود علاّقة ساعة عند رأس السرير. لذلك شعرت أن من المؤكد أن الساعة وضعت هناك عمداً وأنها خدعة، ولهذا فالجريمة لم تُرتكَب في الواحدة والربع.

هل ارتُكِبت قبل ذلك إذن؟ وبالذات في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة؟ إن صديقي السيد بوك يحتج في دعمه لهذه الفرضية بالصيحة العالية التي أيقظتني من نومي. ولكن لو أن السيد راتشيت

كان مُخدَّراً لما كان باستطاعته أن يصيح. ولو أنه كان يستطيع أن يصيح لكان بمقدوره أن يقاوم ليدافع عن نفسه. ولكن لم تكن هناك دلائل تشير إلى مثل هذه المقاومة.

أذكر أن ماكوين نبّه مرتين (وفي المرة الثانية بأسلوب ملفت للانتباه) إلى حقيقة أن راتشيت لم يكن يتكلم الفرنسية، فاستنتجت أن كل ما حدث في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة لم يكن إلاّ مسرحية كنت أنا جمهورها! لقد كان بوسع أي امرئ أن يكتشف خدعة الساعة المحطمة، فهي خدعة شائعة جداً في القصص البوليسية. وقد افترضوا أنني لن أخدع بها وأنني -وأنا المغتر المقتنع بذكائه- سأمضي لأفترض أن الصوت الذي سمعته في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة لم يكن صوت راتشيت باعتباره لا يتكلم الفرنسية وأن راتشيت لا بد وأن يكون قد مات قبل ذلك. إلاّ أنني متأكد من أن راتشيت كان ما يزال نائماً ومخدراً في الواحدة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة!

غير أن المكيدة نجحت! فقد فتحت باب مقصورتي ونظرت خارجاً، وقد سمعت -عملياً- العبارة الفرنسية تُستخدَم. ولو أنني كنت على درجة كبيرة من الغباء بحيث لا أدرك أهمية العبارة لكنت نُبّهت إلى ذلك. ولو دعت الضرورة أن يأتي ماكوين فيقول لي بصريح العبارة: "اعذرني يا سيد بوارو، لا يمكن أن يكون ذلك المتحدث هو راتشيت؛ فهو لا يستطيع أن يتكلم الفرنسية". والآن: متى كان وقت الجريمة الحقيقي؟ ومن قتله؟

في رأيي (وهذا رأيي فقط...) أن راتشيت قد قُتل قريباً من

الساعة الثانية، وهو آخر وقت أعطاه لنا الطبيب كاحتمال لوقوع الجريمة. أمّا مَنْ قتله...

صمت ونظر إلى مستمعيه. وما كان باستطاعته أن يعترض على قلة الانتباه؛ فقد كانت الأعين كلها مشدودة إليه، وفي غمرة هذا الهدوء التام كان باستطاعة المرء أن يسمع صوت وقع الدبوس على الأرض.

تابع كلامه ببطء:

أكثر ما أثار انتباهي هو الصعوبة البالغة في إثبات القضية ضد أي شخص بمفرده على القطار، وكذلك المصادفة الغريبة في أن الشهادة التي تُعطي كل شخص دفعاً بالغيبة كانت تأتي من الشخص المُستبعَد تماماً. ولهذا نجد أن السيد ماكوين والعقيد آربوثنوت قد شهد كل منهما بغيبة الآخر، وهما شخصان يُستبعَد جداً أن تكون بينهما معرفة سابقة. والشيء نفسه حدث مع الخادم الإنكليزي والرجل الإيطالي، وكذلك مع السيدة السويدية والفتاة الإنكليزية. فقلت في نفسي: هذا عجيب... لا يمكن أن يكونوا **جميعاً** متورطين!

ثم رأيت الحقيقة يا سادة. فقد **كانوا جميعاً متورطين حقاً**، فوجود هذا العدد من الناس الذين تربطهم معاً قضية آرمسترونغ مسافرين على نفس القطار مصادَفة لم يكن أمراً مستبعداً، بل **مستحيلاً**. لا بد وأن التدبير هو الذي جمعهم لا المصادفة. وتذكرت تعليقاً قاله العقيد آربوثنوت على المحاكمة بواسطة هيئة محلفين. إن هيئة المحلفين تتكون من اثني عشر شخصاً... ولدينا هنا اثنا عشر مسافراً... وقد طُعن راتشيت اثنتي عشرة مرة! وإن ما ظل يحيرني

دائماً (وهو الخليط العجيب من الناس المسافرين في عربة إسطنبول-كاليه في مثل هذا الوقت الراكد من السنة) قد وضح الآن.

لقد نجا راتشيت من حكم العدالة في أميركا، ولم يكن في جرمه شك. ولذلك تخيلتُ وجود هيئة محلفين شكّلت نفسها بنفسها من اثني عشر شخصاً أدانوا راتشيت وحكموا عليه بالموت، ثم اضطروا -بسبب ظروف القضية- إلى أن يكونوا هم منفذي هذا الحكم. وفوراً، وحسب هذه الفرضية، وضحت القضية بأكملها.

نظرت إليها على أنها فسيفساء متكاملة لعب كل شخص فيها دوره المحدد، وقد رُتِّبَ بحيث أنه إذا وقعت الشبهة على أي شخص منهم فإن إفادة واحد أو أكثر ستبرّئه وتُعقّد المسألة. وقد كانت إفادة هاردمان ضرورية إذا اتُّهِم شخص من خارج هذه المجموعة ولم يستطع إثبات بعده عن مكان الجريمة. ولم يكن ركاب عربة إسطنبول في خطر؛ فقد تم تدبير كل التفصيلات الدقيقة مسبقاً، وكان الأمر كله عبارة عن أجزاء متشعبة متشابكة بعضها مع بعض، خُطِّط لها بعناية بحيث تترابط جميعاً وبحيث أن كل معرفة جديدة نصل إليها تجعل الحل معقداً للغاية. وكما علّق السيد بوك؛ فإن القضية بدت مستحيلة جداً! وكان هذا -بالضبط- هو الانطباع الذي أُريدَ لهذه القضية أن تظهر به.

هل يفسر هذا الحل كل شيء؟ نعم؛ إنه يفسر كل شيء. فطبيعة الجراح: كل واحد منها سدده شخص مختلف. ورسائل التهديد الزائفة: لم تكن حقيقية بل مُصطنَعة، إذ أنها كُتبت فقط لإظهارها كدليل (ولا شك في وجود رسائل تهديد حقيقية تُحذّر راتشيت من

قدره المحتوم، وقد التقطها ماكوين واستبعدت بها هذه الرسائل). أما قصة هاردمان بأن راتشيت قد استخدمه فهي كذبة من البداية وحتى النهاية. وبالنسبة للوصف الكاذب عن: «الرجل الصغير الأسمر ذي الصوت النسائي» فهو وصف ملائم؛ إذ أن له فائدة في عدم انطباقه على أي من مسؤولي التذاكر الحقيقيين، وفي الوقت ذاته يمكن أن ينطبق على امرأة أو على رجل.

تبدو فكرة الطعن -لأول وهلة- فكرة غريبة، ولكن عندما نفكر بها نجد أنها الطريقة المثلى في ظل ظروف الجريمة؛ فالخنجر هو سلاح يمكن لأي شخص أن يستخدمه سواء أكان قوياً أم ضعيفاً، وهو لا يحدث صوتاً، وأظن (وقد أكون مخطئاً في ظني هذا) أن كل شخص دخل بدوره مقصورة السيد راتشيت المعتمة من خلال مقصورة السيدة هوبارد ثم قام بطعنه، وهم جميعاً ليس من شأنهم أن يعرفوا أية طعنة هي التي قتلته حقاً.

وقد تم إحراق آخر رسالة استلمها راتشيت، وربما كان قد عثر عليها على وسادته. وبعدم وجود دليل يشير إلى قضية آرمسترونغ لا يوجد أي سبب للاشتباه بأي راكب على القطار. وقد كان من شأن الجريمة أن تُعزا إلى شخص من خارج القطار، وكان من شأن بضعة مسافرين أن يشهدوا بأنهم رأوا «الرجل الصغير الأسمر ذا الصوت النسائي» وهو يغادر القطار في محطة برود.

لا أعلم بالضبط ما الذي حدث عندما اكتشف المشتركون أن ذلك الجزء من خطتهم كان مستحيلاً بسبب ما حدث للقطار. أظن أن مشاورات سريعة قد تمت وقرروا أن يتابعوا مهمتهم. صحيح أن

الشكوك سوف تحوم الآن حول أحد الركاب أو حولهم جميعاً، إلا أن العدة كانت قد أُعدّت لمثل هذا الاحتمال ووُضعت البدائل، والشيء الوحيد الذي بقي هو تعقيد القضية أكثر. إذ تم إسقاط دليلين في مقصورة الرجل الميت: أحدهما يوقع التهمة على العقيد آربوثنوت (الذي كان لديه أقوى دفع بالغيبة عن مكان الجريمة، والذي كانت إثبات علاقته بعائلة آرمسترونغ الأصعب من بين الجميع)، والدليل الثاني (المنديل) يوقع التهمة على الأميرة دراغوميروف، وبسبب مكانتها الاجتماعية وبُنيتها الضعيفة وشاهد الإثبات لصالحها (والذي قدمته خادمتها ومسؤول التذاكر) بسبب كل ذلك، فإنه من الصعب إثبات أي شيء ضدها. ولزيادة التعقيد في القضية تم رمي طُعم مزيف، وهو المرأة الخرافية التي ترتدي قميص النوم القرمزي. ومرة أخرى خُطّط لي أن أشهد على وجود هذه المرأة، إذ ضُرب باب مقصورتي بشدة. وعندما نهضتُ ونظرت خارجاً رأيت قميص نوم قرمزياً يختفي في نهاية الممر. كما تمت رؤيتها من قِبل مجموعة من الركاب النبهاء: مسؤول التذاكر، والآنسة دبنهام وماكوين. أظن أن شخصاً يملك روح الدعابة قام بوضع قميص النوم القرمزي فوق الأمتعة في حقيبتي بينما كنت أقابل الناس في عربة المطعم. ولا أعلم من أين أتى قميص النوم أصلاً، وأظنه للكونتيسة أندرينيه لأن أمتعتها لم تحتوِ إلا على قميص نوم فاخر من الشيفون الذي يمكن اعتباره عباءة تُرتدى وقت شرب الشاي وليست قميص نوم.

وعندما علم ماكوين أن الرسالة التي أُحرقت بعناية لم تُدمّر تماماً، وأنه تم التعرف منها على كلمة آرمسترونغ، قام بإعلان النبأ للآخرين. وفي هذه اللحظة بدا موقف الكونتيسة أندرينيه صعباً

للغاية، فقام زوجها -فوراً- باتخاذ الخطوات الضرورية لتعديل جواز السفر، وكان هذا هو الأمر الثاني الذي أوقعهم في سوء الحظ. لقد اتفقوا جميعاً على أن ينكروا أية علاقة بعائلة آرمسترونغ، وكانوا يعرفون أنه لا توجد لديّ طريقة للعثور على الحقيقة، ولم يظنوا أنني سأهتم بالموضوع إلاّ إذا أثيرت شكوكي حول شخص محدد.

كانت هناك نقطة أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار، فلو افترضنا أن نظريتي حول الجريمة نظرية صحيحة (وأعتقد أنها لا بد وأن تكون صحيحة) إذن لا بد وأن يكون مسؤول التذاكر على علاقة بالخطة. ولكن إن كان الأمر كذلك فسوف يكون لدينا ثلاثة عشر شخصاً وليس اثنا عشر شخصاً، وبدلاً من المقولة السائدة: «من بين هؤلاء الناس الكُثُر شخص مذنب»، واجهتني مشكلة أنه من بين الثلاثة عشر شخصاً واحد فقط بريء، فمن هو؟

لقد وصلت إلى استنتاج غريب، وهو أن الشخص الذي لم يشترك في الجريمة كان -في الواقع- هو الأشد احتمالاً لأن يكون متورطاً، وأعني الكونتيسة أندرينيه. لقد أثر بي صدق زوجها عندما أقسم بشرفه على أن زوجته لم تغادر المقصورة في تلك الليلة، فقررت حينئذ أن الكونت أندرينيه أخذ مكان زوجته.

وإذا كان الأمر كذلك فإن بيير ميشيل واحدٌ من الاثني عشر شخصاً بالتأكيد، ولكن كيف نفسر تورطه؟ إنه رجل محترم ويعمل لدى الشركة منذ سنوات، وهو ليس من النوع الذي يمكن رشوته ليساعد في الجريمة، إذن لا بد من أن يكون بيير ميشيل على علاقة بقضية آرمسترونغ، إلاّ أن ذلك بدا مُستبعَداً. ثم تذكرت الممرضة

الفرنسية التي انتحرت، فلو فرضنا أن تلك الفتاة المسكينة كانت ابنة بيير ميشيل فإن هذا يوضح الأمر، كما يوضح -أيضاً- المكان الذي تم اختياره لارتكاب الجريمة. هل كان موقع أشخاص آخرين غير واضح في هذه المسرحية؟ سأقول إن العقيد آربوثنوت كان صديقاً لعائلة آرمسترونغ وربما اشترك معه في الحرب، وأظن أن الخادمة هيلداغارد شميدت كانت من ضمن أفراد منزل آرمسترونغ. قد أكون نهماً جداً للطعام مما يجعلني أعرف الطباخة الماهرة بالغريزة، وقد نصبت لها فخاً ووقعت به؛ قلت لها إنني أعلم أنها طباخة ماهرة فأجابت: "نعم حقاً، فكل سيداتي يقُلن ذلك". ولكن لو أنها كانت توظَّف على أنها خادمة فنادراً ما ستسنح الفرصة لمستخدِميها ليعرفوا إن كانت طباخة ماهرة أو لا. ثم نأتي إلى هاردمان. لقد بدا -فعلاً- أنه لا ينتمي إلى أفراد منزل آرمسترونغ، ولكن يمكنني أن أخمّن أنه كان يحب الفتاة الفرنسية القتيلة.

بقيت لدينا السيدة هوبارد. وسوف أقول لكم إن السيدة هوبارد قد لعبت أهم دور في هذه المسرحية؛ فلأنها تقطن المقصورة المجاورة لمقصورة راتشيت فإنها كانت معرضة للشك أكثر من أي شخص آخر، وبسبب الظروف المحيطة لم يكن ممكناً تدبير دفع بالغيبة بالنسبة إليها. وللعب هذا الدور الذي لعبته (دور الأم الأميركية العادية جداً والتي تبلغ حداً من السخف في أمومتها) كانت الحاجة ملحّة إلى ممثلة قادرة على أداء هذا الدور. ولكن لماذا البحث بعيداً؟ لقد وُجدت ممثلة من داخل عائلة آرمسترونغ، وهي أم السيدة آرمسترونغ، الممثلة ليندا آردن...

في تلك اللحظة قالت السيدة هوبارد بصوت رقيق ناعم

يختلف عن الصوت الذي استخدمته طوال الرحلة: "لطالما أحببتُ أداء الأدوار الكوميدية". ثم تابعت بشرود: تلك الهفوة حول موضع حقيبة الحمام كانت سخيفة، وهي تُظهر أن على المرء أن يتدرب على أدواره بعناية. لقد تدربتُ على هذه النقطة في طريق عودتنا، وأظن أنني كنتُ في مقصورة ذات رقم زوجي، ولم أفكر أبداً باختلاف مواقع المزلاج.

ثم غيرت جلستها قليلاً ونظرت إلى بوارو وقالت: أنت تعرف كل شيء يا سيد بوارو... إنك رجل رائع. ولكن حتى أنت لا يمكنك أن تتخيل كيف كان الأمر في ذلك اليوم المشؤوم في نيويورك. لقد كدتُ أجن من الحزن، وكذلك الخدم، والعقيد آربوثنوت كان هناك أيضاً، فقد كان من أعز أصدقاء جون أرمسترونغ.

قال آربوثنوت: لقد أنقذ حياتي أثناء الحرب.

قررنا منذ ذلك الوقت (ولا أدري، فقد نكون مجانين...) أن حكم الإعدام الذي لم يُنفَّذ في كاسيتي يجب أن ننفذه نحن، فقد كنا اثني عشر شخصاً. أو -بالأحرى- أحد عشر شخصاً، إذ كان والد سوزان في فرنسا بالطبع. وفي بداية الأمر فكرنا في أن نُجري القرعة حول من يقوم بذلك، ولكننا صممنا -في النهاية- على هذه الطريقة. كان السائق أنطونيو هو الذي أشار بها، وبحثت ماري لاحقاً جميع التفصيلات مع هيكتور ماكوين، فقد كان يحب ابنتي سونيا، وكان هو الذي وضح لنا كيف استطاعت أموال كاسيتي أن تنقذه من المحاكمة في أمريكا. لقد استغرقت وقتاً طويلاً حتى أصبحت خططنا تامة جداً، إذ كان علينا أولاً أن نعثر على راتشيت، وقد تمكن

هاردمان من ذلك في النهاية. ثم حاولنا أن نحمل راتشيت على استخدام ماسترمان وهيكتور أو أحدهما على الأقل، وقد استطعنا ذلك، ثم بحثنا الأمر مع والد سوزان (إذ كان العقيد آربوثنوت مصراً على أن نكون اثني عشر شخصاً، ويبدو أنه اعتقد أن هذا يجعل الأمر متكاملاً. ولم يكن يحبذ فكرة الطعن كثيراً، إلاّ أنه وافق على أنها تحل معظم الإشكالات). وكان والد سوزان مستعداً للقيام بدوره؛ فقد كانت سوزان ابنته الوحيدة. وعرفنا من هيكتور أن راتشيت سيعود من الشرق عاجلاً أو آجلاً على قطار الشرق السريع، ووجود بيير ميشيل على ذلك القطار منحنا فرصة لا تعوض، بالإضافة إلى أنها طريقة جيدة تعدم اتهام أطراف خارجية. وكان لا بد لزوج ابنتي من أن يعرف بالطبع، وقد أصرّ على أن يأتي معنا على القطار. ثم رتّب هيكتور الأمور بحيث يسافر راتشيت في اليوم المناسب الذي تكون فيه نوبة عمل ميشيل في القطار. وأردنا أن نحجز كل مقصورة في عربة إسطنبول-كاليه، ولكن للأسف... كانت هناك مقصورة لم نتمكن من الحصول عليها؛ فقد كانت محجوزة قبل فترة طويلة لمدير الشركة. وكان السيد هاريس شخصية وهمية، ولكن سيكون صعباً للغاية أن يشترك غريب مع هيكتور في مقصورته، ثم وفي آخر لحظة أتيت أنت...

توقفت عن الكلام قليلاً، ثم أكملت: حسناً، أنت تعرف كل شيء يا سيد بوارو، فماذا ستفعل؟ إن كان لا بد من كشف الحقائق فهلاّ وضعت اللوم عليّ وحدي؟ فقد كنتُ على استعداد تام لأن أطعن ذلك الرجل اثنتي عشرة مرة وحدي، فهو لم يتسبب فقط في موت ابنتي وطفلتها وذلك الطفل الذي ربما كان حياً وسعيداً

الآن، بل كان الأمر أكثر من ذلك. لقد اختطف أطفالاً قبل ديزي، وربما كان من الممكن أن يختطف غيرهم في المستقبل. لقد حكم عليه المجتمع، وما فعلناه هو أننا نفذنا الحكم فقط. ولكن ليس من الضروري أن نورط هؤلاء جميعاً بالأمر، إنهم جميعاً طيبون وأوفياء؛ ميشيل المسكين... وماري والعقيد آربوثنوت... إنهما متحابّان.

كان صوتها رائعاً يتردد عبر الفضاء المكتظ، ذلك الصوت العاطفي العميق الذي يحرك القلوب والذي طالما أثار الجمهور في نيويورك.

نظر بوارو نحو صديقه ثم قال: أنت مدير الشركة يا سيد بوك، فماذا تقول؟

تنحنح السيد بوك وقال: برأيي -يا سيد بوارو- أن النظرية الأولى التي ذكرتَها هي الصحيحة بالتأكيد، وأقترح أن تقدمها إلى الشرطة اليوغسلافية على أنها الحل. هل توافقني يا دكتور؟

قال الدكتور كونستانتين: بالطبع أوافقك. أما بالنسبة إلى الدليل الطبي فأظن... إيه؟ أنني أخطأت في نقطة أو اثنتين!

قال بوارو: إذن، بعد أن وضعت الحل بين أيديكم، يشرّفني أن أتقدم باستقالتي من القضية.

* * *